© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١٩، ٢٠» شتاء وربيع ٢٠١٨

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **المقاومة ثقافة والثقافة مقاومة**

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

١٣ **هل هناك صهيونية ليبرالية؟**

د. فيصل دراج

٢٧ **تأسيس منظمة التحرير، وعقد المجلس الوطني الأول**

عبد الغني سلامة

٣٩ **يهودية الدولة: وسواس قهريّ للدولة العبريّة**

عزيز العصا

٥٥ **٧٠ سنة على إسرائيل..!**

نظير مجلي

أوراق عربية

٦٩ **رحلة الحرب من أجل السلام**

شذى يحيى

٨٥ **العلاقات الإسرائيلية الأميركية التزامات ومساعدات**

عليان الهندي

٩٧ **فلسطين في مرآة المستشرقين**

عبد الحميد محمود ابو النصر

أوراق ثقافية

١١١ **حوار مع محمود شقير**

بديعة زيدان

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٣١ **جدارية القرن الماضي .. عندما تكتب الإبنة بلسان الأم**

محمود الورداني

١٣٩ **أكرم زعيتر: فاتح الحفير ومغلق الصرفند**

جهاد أحمد صالح

١٥٧ **ما وراء صور شعراء صهاينة على الفئات الورقية الجديدة (للشيكل)**

يوسف الشايب

١٦٧ **فئران الشارع**

جان ماري غوستاف لوكليزيو

١٧٩ **١٠ حالات**

خالد درويش

١٨٧ **الباشا لا يموت**

سعد القرش

كتب وتقارير

١٩٧ **إسماعيل فهد إسماعيل وناجي العلي وحنظلة**

بديعة زيدان

٢٠٥ **القدس في أواخر العهد العثماني**

دانييل سيكاري

أوراق المؤسسة

٢٢٥ **ملتقى الحوار الرابع في القاهرة**

المقاومة ثقافة والثقافة مقاومة

عبّرت الثقافة الفلسطينية عن الهوية والأرض والصمود والبذل والتضحية وساهمت في رسم ملامح الوطنية الفلسطينية المستمدة من قيم وسجايا الشعب الفلسطيني.

ورافقت كفاحه منذ أن بدأ الشعب يواجه مكر الانتداب البريطاني، والاستيطان الصهيوني. الشعب هو المعلّم الأكبر، الشعب انتماء ووطنية وتضحيات.

الشعب حركة حياة مثل نهر يتدفق ويشق مجراه، يحدد مسراه فيستقيم ويندفع الى الأمام، ويتعرّج ثمّ يعمّق مجراه.

الشعب الفلسطيني هو الذي صنع ثقافته، فالثقافة ليست آداب وفنون فحسب، وانما نمط تفكير وأسلوب حياة، وسلوك.

وهكذا غمس الأدباء والشعراء ريشهم بمداد كفاح شعبهم، وسخّروا إبداعهم للتعبير عن بطولات القيم والانتماء والكفاح.

في مجال الآداب أوجد المثقفون الفلسطينيون ظاهرة في الأدب العربي، هي ظاهرة أدب المقاومة، وذلك في مرحلة الإرهاصات التي أفضت لتأسيس منظمة التحرير وانطلاقة الثورة الفلسطينية.

عبر الأدباء والشعراء وخصوصا داخل الخط الأخضر عن دقات قلب الشعب الفلسطيني بإبداع تتوفر فيه عناصر فنية عالية، إبداع نضج في جو التحدي ولعب دورا طليعيا في التعبئة ووحّد الوجدان، وعزز الهوية الإبداع كان قوّة دافعة لحركة الحياة، ولم يقتصر الإبداع على الكتاب والشعراء والفنانين، وانما أبدع الشعب بأسره الوسائل الممكنة من أجل الفوز في معركة صراع البقاء.

شعبنا الذي تعرض لأكبر مظلمة في التاريخ ابتدع أشكالا وأساليب شتى في كل مرحلة من المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية منذ ثورة ١٩٢٩ مرورا بثورة ١٩٣٦ وحرب ١٩٤٨ وثورة ١٩٦٥ وانتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ والمقاومة الشعبية التي بدأت في مقاومة الجدار حتى هبّة القدس ومسيرة العودة.

ومثلما فعلت الجماهير في بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وخاضت كفاحا عنيدا من أجل الحرية، فإن شعبنا وقواه الحية صنع واحدة من أكبر حركات التحرر الوطني في العالم.

حركة نضالية تعمق مجراها الكفاحي على امتداد تاريخها، وتعاقب على الانخراط فيها أجيال وأجيال.

وفي هذه الأيام تنشط المقاومة الشعبية في عموم الوطن الفلسطيني، وتجد الدعم والمساندة من شعبنا في الشتات والمهاجر وداخل الخط الأخضر ومن كل الأخلاقيات العالمية المحبة للحرية في هذا العالم.

لقد حقق الكفاح المسلح رسالته، فقد كان يزرع والسياسة تحصد، واستطاع أن يضع القضية الفلسطينية في صدارة المشهد الدولي، وحقق الاعتراف بحقوقه من الشرعية الدولية والقانون الدولي، واعترفت الأمم المتحدة بدولة فلسطين وبحق تقرير المصير والعودة حسب القرار ١٩٤.

وفي الوقت الذي تنحى فيه إسرائيل نحو التطرف والسياسات العنصرية والاستعمارية، وتعيش عزلة دولية مع حليفها الأميركي، فإنّ الرأي العام العالمي والشرعية الدولية تدعم كفاحنا الشعبي الذي يخوض معركته بوسائل سلمية، وتجلّى ذلك بمواقف دولية شاجبة ومستنكرة عمليات إطلاق النار من قبل إسرائيل على المدنيين العزل في قطاع غزة وقتل أكثر من ستين مدنيا وجرح الآلاف، كما تجلى ذلك أيضا بقرارات لجنة حقوق الإنسان في جنيف التابعة للأمم المتحدة التي اتخذت قرارا بإرسال لجنة دولية للتحقيق في تلك الجرائم التي ترقى الى مستوى جرائم حرب.

لقد تحوّلت المبادرات التي ابتدعها الشعب الفلسطيني الى قرارات سياسية في أطر منظمة التحرير وفي قراراتها.

إنّ تبني منظمة التحرير المقاومة الشعبية كسياسة هي تبنى أسلوب من أساليب ثقافة الشعب، وزد على ذلك تبني قرارات المجلس الوطني الأخير لحركة المقاطعة الدولية BDS الرامية إلى عزل إسرائيل اقتصاديا وثقافيا وأكاديميا، ودعم نضال الأسرى في سجون الاحتلال ونضالهم السلمي من أجل نيل حقوقهم.

ثقافة المقاومة الشعبية تتصاعد ويتعمق محتواها الكفاحي والديمقراطي ،وتمثّل الآن قوّة الثقافة في السياسة،كما أنّها تمثّل عنصر استلهام للمبدعين في مجالات الآداب والفنون، وعنصر تحفيز للكاتب والشاعر والفنان من أجل أن يرتقي بأدبه وفنّه ويعبّر عن كفاح شعبه بأساليب وعناصر فنيّة عالية تمثل إضافة نوعية لمنتجه الثقافي، وتمثل عنصر تجديد لأدب وثقافة المقاومة.

ومن هنا نستطيع القول أنّ المقاومة ثقافة، والثقافة مقاومة.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

حول كتاب اسحاق لاور: أساطير الصهيونية الليبرالية:

هل هناك صهيونية ليبرالية؟

د. فيصل دراج

تقول حكمة الشعوب: "الذي يطلق كذبة أولى يحتاج إلى متواليات من الكذب ليسندها". يشير القول إلى تهافت الكذب الذي يسير على ساقين من قش، ويستنجد بأكثر من عصا ليحجب تهافته. غير أن هذا التهافت يعثر على حل مريح، إن تسلّح بحكمة فاسدة لوزير الخارجية الأميركية السابق هنري كيسنجر الذي قال: "يستطيع القوي أن يكذب كما يشاء مستنداً إلى قوته".

أخذ المتصهينون، كما الصهاينة، منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، "بالحكمتين السابقتين" ونسجوا شكلين من الأساطير: أسطورة الحق التاريخي لليهود في فلسطين، الذي لا وجود له، وأسطورة الحق اليهودي الأبدي في فلسطين، الذي له شكل البداهة. أعلنت الأسطورة الأولى عن جوهر فلسطيني شرير، يدفعه شره إلى الاعتداء على الحق اليهودي، وصرّحت الأسطورة الثانية بخير يهودي قديم، تحاصره الأزمنة، ويبقى منتصراً.

تناول الإسرائيلي إسحاق لاور الأسطورتين في كتابه: "أساطير الصهيونية الليبرالية"، الذي ظهر باللغة الفرنسية عام ٢٠٠٧، وباللغة الإنجليزية عام ٢٠١٧. ومع أن موضوع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي حظي بدراسات متناتجة، ففي الكتاب الجديد ما يميّزه من غيره لأسباب ثلاثة: كتب مقدمته الروائي البرتغالي جوزيه ساراماغو، الحائز على جائزة نوبل، وكتبه أديب إسرائيلي رفيع المستوى له صفتان، كما جاء على غلاف الكتاب: "المنشقّ الإسرائيلي الأكثر شهرة، وأعظم الشعراء الأحياء في إسرائيل، "على الأرجح"، بل أنه، كما جاء، على الغلاف الأخير: "امتداد للفيلسوف اليهودي النهضوي سبينوزا، ذلك أنه حافظ على "التقاليد النقدية في الثقافة اليهودية". أما السبب الثالث فيعود إلى دور الشاعر

* ناقد وباحث فلسطيني

الكبير في فضح مواقف مثقفي "معسكر السلام في إسرائيل"، الذين يحظون بشهرة واسعة في الغرب مثل عاموس عوز، ديفيد غروسمان، وأ. ب يهوشوا.

اشار ساراماغو، في مقدمته، إلى التناقض العميق الذي يحكم مجتمعاً إسرائيلياً تؤيد غالبيته العظمى إجراءات حكومتها، الأكثر عنفاً وتطرّفاً، بحق الفلسطينيين، والتي تتضمن "الاحتقار والغطرسة" اللذين يقودان، عملياً، إلى إنكارٍ متطرّف لأي حق من حقوق الفلسطينيين الإنسانية، بل إلى إنكار حقهم الأساسي في الوجود. ويتوقف الروائي أمام دور المستوطنات التي يتجاوز عددها المائتين، في تعطيل أي جهد صادق من أجل السلام، ذلك أن في سياسة المستوطنات المستمرة ما يناقض جوهرياً إمكانية السلام، بعد أن غدا المستوطنون، ويتجاوز عددهم النصف مليون، ومن يشايعهم سياسياً، قوة قادرة على تعطيل القرار الحكومي، أكان ذلك في زمن إيهود أولمرت أو في زمن نتنياهو، حيث غدا الوضع أكثر تعقداً.

تحدّث ساراماغو، وهو ينظر إلى الفلسطينيين عن: الاستقلال فوق أرض فلسطينية، ودولة قابلة للحياة واستبعد، في الظروف الراهنة، الأمرين. كان قبل سنوات، حين زار المخيمات الفلسطينية، رأى في الإجراءات الإسرائيلية صورة عن إجراءات نازية سبقت، وهزمت. لا غرابة أن يحيّي الروائي كاتباً إسرائيلياً يندّد، بلا هوادة، بيسار إسرائيلي مفترض يرفع راية الليبرالية، ويدعم حكومة تأخذ بممارسات نازية.

المثقفون في معسكر السلام الزائف

يندّد مؤلف الكتاب بليبراليين "صهاينة"، مصالحين بين الحقيقة والخداع ويسخر، في اللحظة ذاتها، من إعلام غربي منافق يفتح صفحاته لمثقفين "يدافعون عن السلام"، أكثر نفاقاً وخداعاً، يستقدمون الماضي إلى الحاضر، وفقاً لمصالح حاضرة، تمليها "العلاقات العامة"، أو وسائل الإعلام، بلغة أكثر وضوحاً. فحين ينظر الروائي الشهير عاموس عوز إلى الاحتلال الإسرائيلي، وهو الاحتلال الأطول عمراً المتبقي من الحرب العالمية الثانية، يختصر الوضع في جملة مريحة: "عدالة مقابل عدالة"، إذ لليهود حق في فلسطين، وإذ للفلسطينيين حق في البقاء، حق مقابل حق.

ينسى الروائي، المرشّح لجائزة نوبل منذ سنوات، أن يقول: حق في مقابل حق، والحق للأقوى القادر على تقطيع أوصال أرض الفلسطينيين، وتحويل المناطق المحتلة إلى "غيتوات"، يستطيع أن يفعل الجنود الإسرائيليون بها أي شيء، وفي أي مكان، وفي أي زمان أيضاً. لا يقول أوز ما يقول إلا لأنه مثقف في خدمة السلطة، كما جاء في الكتاب، تحتاجه الأخيرة لتسويق مواقفها في صحف غربية

نافذة، عارفة بثقافته الواسعة وقدرته على "الإقناع"، ويحتاج بدوره إلى سلطة إسرائيلية نافذة بدورها، قادرة على إشهاره وتسليعه وتنصيبه روائياً لا يضارع.

ما يقوله عوز لا يختلف في نهجه عن قول صهيوني ليبرالي فرنسي شهير هو: كلود لانزمان، الذي رافق مجلة جان بول سارتر "الأزمنة الحديثة" عقوداً طويلة، وكتب عن الفلسطينيين في ٧ آذار ٢٠٠١ في صحيفة اللوموند الواسعة الانتشار ما يلي: "إن لهم مناطق مستقلة خاصة بهم، مثلما أن لهم قوى أمن مسلّحة، وعندهم أسلحة في كل مكان، ووراء رامي الحجارة الصبية الصغار في الجبهة الأولى هناك تنظيم TANZI فتح المقنّع والمجهّز بكل شيء.

اعتمد لانزمان، مثل عوز، على البلاغة، ومؤثراً بدوره المنطق الشكلي، فبعد "العدالة التي تقابل عدالة أخرى"، نصل إلى التنظيم الذي يقابل دولة، فكلاهما يتمتع بأرض مستقلة وقوة مسلحة. هنا يقول مؤلف الكتاب "لن أتحدث عن الكذب، ولا عن الشوفينية، أو عن نقص التعاطف الإنساني، ولا حتى عن مصداقية المثقفين. ما أودّ أن أعاينه هو إعادة إنتاج شيء ما يبدو "واضحاً"، بمساعدة نوع ما من المثقفين يقرّر أنّ الفلسطينيون مسلحون، وهذا صحيح، وهم مسلّحون وأنا أكتب هذه السطور (قوة بوليس مسلّحة"، ولكن مسلحون بماذا؟ بـ F١٦؟ بالدبابات، بطائرات الهيلوكبتر؟... لا شيء من هذا. يا عزيزي القارئ لا تنظر إلى المثقفين، كلامهم له هالة الحقيقة، وحقيقتهم كلمات، وكلماتهم رخيصة... ص: ٣٩٨"...

يتحدّث مثقفو السلام المفترضون عن ظواهر الأشياء الخادعة ليؤكدوا في النهاية أمرين: الفلسطينيون إرهابيون، حتى الصبية منهم الذين يرمون الحجارة، وهم مختلفون عن الإسرائيليين الذين يتميّزون بالعقل والحضارة والاستعداد الحقيقي (!) للحوار. كتب ديفيد غروسمان، وهو روائي شهير بدوره، في بداية الانتفاضة الثانية: "حقيقة، هناك اختلاف في التنازلات التي يمكن أن يقوم بها الطرفان. فلدى إسرائيل، تقريباً، كل الأوراق، بينما لدى الفلسطينيين خيارات محدودة. مع ذ لك لا يمكن القفز فوق صفات السلب التي يتسم بها عرفات، فهو أقل جرأة، وأقل إبداعاً، وأكثر عناداً..".

يعيد غروسمان ما قاله عوز بشكل آخر: إذا كان الثاني يقول "عدالة مقابل عدالة" والأقوى يربح، فالأول منهما يؤكد "إبداع مقابل إبداع" والأكثر إبداعاً ..... "ما يعني أن إسرائيل لا تعتدي على أحد، إنما هي الطبيعة البشرية، التي تفصل بين عقول لامعة وأخرى بليدة. غير أن ما يقرره غروسمان يفصح عنه عنوان كتابه: "الموت كنهج في الحياة"، المنشورة في نيويورك عام ٢٠٠٣، الذي يساوي بين الإبداع والحياة، والعناد الفلسطيني والموت.

وبالرغم من التزوير والعنصرية، اللذين يحتشد بهما كلام الروائي الشهير، فإن لاور يراه أقل عدوانية من عوز، الصوت الإسرائيلي الأكثر فاعلية في الرأي العام الغربي، والمعبّر البليغ عن سياسة الحكومة. فقد كتب بعد إخفاق "كامب ديفيد": "أعطى إيهود باراك للفلسطينيين أكثر من ٩٠٪ من الضفة الغربية والاعتراف بدولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية،... ولكن عبثاً، فقد عاد عرفات معتبراً نفسه صلاح الدين جديداً.. وبدأت الصحافة والإعلام الفلسطينيان مباشرة تضرب طبول حرب مقدسة ضد اليهود، "من أجل خلاص الأماكن المقدسة،..... بل أنه حرّض شعبه ضد إسرائيل واليهود، وأطلق موجة من العنف المشبع بالكراهية. ص: ٤٢".

يرتجل عوز الكلام كما يريد، بلا أدلة أو استشهادات، كما يقول لاور، مردداً ما يمكن أن يقول شارون، ولكن بعنجهية اقل، قاصداً، في النهاية، "إذلال قيادة عرفات، ونزع الشرعية عن القيادة الفلسطينية، وتسخيف مطلب الاستقلال الوطني الفلسطيني".

لا تكتمل صورة زيف "معسكر السلام الإسرائيلي" إلا بثالث لا ينقصه النفوذ ولا الشهرة هو: أ . ب. يهوشوا، الذي كتب في هاآرتز في ٢٠ تشرين أول/أكتوبر عام ٢٠٠٠: "جلسنا مع عرفات، وكان ما قدمه باراك بالغ الكرم، ولكن عرفات هشّم كل شيء، معتقداً أن العنف، كما الضعف الدولي، يوصله إلى مآربه. وارتكب خطأ جسيماً، لأنه كان يتعامل مع باراك، وليس مع شارون، أو نتنياهو، وكان باراك له كل الاستعداد لإنهاء الصفقة".

ما يلفت النظر أن هذا الأخير يختصر الشعب الفلسطيني كله في شخص عرفات، ما يجعل من "بؤس عرفات"، الذي لا يعرف الحوار السياسي!!!، مرآة "لبؤس الشعب الفلسطيني كله". وواقع الأمر، وبسبب رمزية القائد الفلسطيني الراحل، فإن التحريض الإعلامي الإسرائيلي يقع عليه، على اعتبار أن إسقاط الرمز يؤدي بسهولة إلى إسقاط قضيته. وهو ما التفت إليه مؤلف الكتاب، الذي رأى أن "معسكر السلام" حوّل عرفات إلى مجاز فلسطيني واسع يعلن عن شر الفلسطينيين ويفصح عن خيرهم المستحيل. ولهذا فإن عوز الخبير الإعلامي المحنك، جعل منه "صلاح الدين" قاصداً من وراء ذلك أمرين: التوجه إلى الرأي العام الغربي بإشارات صليبية توحي أن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ديني، مثلما كان عليه الأمر في زمن الحروب الصليبية، وتقديم إسرائيل مدافعاً عن القيم المسيحية اليهودية في مواجهة فلسطينيين تحرّكهم قيم إسلامية متعصبة.

في نقده العنيف للمزاعم المحدثة عن كرم "باراك"، يذكّر لاور بموقف باراك عام ١٩٧٠ حين قال: "إن منظمة التحرير من الحركات الأكثر ظلاماً في التاريخ"، ويسأل: كيف يمكن أن يكون صاحب هذا الموقف داعية للسلام؟ ولماذا كل هذا الكره لعرفات إن كنا نريد السلام معه؟ وإذا كان عرفات

"أب الشعب الفلسطيني" كله، كما كتب عوز، فلماذا قال أحد وزراء شارون: "لقد حان الوقت لنقوم بتصفية عرفات"، كان ذلك قبل رحيل القائد الفلسطيني بفترة قصيرة. على أية حال، فإنه من المحقّق، أن الحملة الإعلامية الضارية ضد عرفات كانت قراراً سلطوياً، من أعلى المستويات، الأمر الذي استدعى إشراك جميع الأقلام المشهورة، والمرموقة فيها، لا فرق إن كانوا يستعملون كلمة السلام أو يقفزون فوقها. ومن المحقق أيضاً أن إرادة الإدارة الإسرائيلية في التخلص من القائد الفلسطيني، كانت مرتبطة بصورته العالمية وقدرته على الحوار وصبره الطويل، ذلك أنه استمر في "تحضيرات أوسلو"، حين كان الاستيطان يتوسع وعدد المستوطنين يتضاعف ثلاث مرات، والأراضي المصادرة يزداد عددها، و "جهاز الاغتيالات" يلاحق الشباب الفلسطينيين. بهذا المعنى كان عرفات "عنيداً، اراد الاستمرار في الحوار الصعب (المغلق) مع الإسرائيليين، لينتزع استقلالاً وطنياً وعد شعبه به. يتوقف لاور أمام صفة عنيد، ويضيف إليها صفتين بنبرة متسائلة (أحمق؟، متفائل؟ ص: ١٤٦). وواقع الأمر أن الراحل الفلسطيني الكبير لم يكن أحمق، ولم يكن متفائلاً، إنما كان مقاتلاً، ويريد دولة فلسطينية مستقلة.

صدرت عن صفات القائد الراحل الجملة الإسرائيلية الشهيرة: "نريد السلام، ولكن لا شريك"، ذلك أن الشريك المطلوب هو الذي يتخلّى عن مطلب "الدولة المستقلة"، ويقبل بما يعرضه الإسرائيليون عليه، قليلاً كان أو كثيراً، وهم لن يعرضوا إلا قليل القليل على أية حال، إذا لم يعرضوا لا شيء على الإطلاق.

وبالعودة إلى عرفات، فإن إسرائيل ما كانت لتجيّش كبار كتّابها المدعومين بشهرة عالمية وترجمات في لغات متعددة، لولا أمرين: الاعتراف العالمي بالقائد الراحل، والإدعاءات الإسرائيلية التي تتجاوز المعقول، ذلك أن إسرائيل اعتبرت "اتفاق أوسلو" خطأ تاريخياً يجب محوه، وأوكلت إلى المثقفين الكبار دوراً في محوه، وفي تشويه صور الفلسطينيين. فبمناسبة زيارة البابا جون بول إلى إسرائيل عام ١٩٩٨، كتب غروسمان: "عزيزة من افراد عائلتي، أحد الناجين من معسكرات الموت، حضرت إلى حفل زفافي، وعلى ساعدها ضماد يخفي وشماً، كما لو أنها أرادت أن تشرك في الزفاف لحظة من "الهولوكوست"... تبدأ القصة عائلية يسردها أديب، لكن الأديب لا يلبث أن يصبح "أيديولوجياً"، مرشداً يوزّع الأفكار، كما يقول لاور، لأن في كلمتي "أحد الناجين" ما يبرر خوفها من الفلسطينيين، وحرصها على تأمين حاضرها ومستقبلها، وهو عملياً العملة الإسرائيلية الإعلامية الموجهة إلى الغرب: "نحن الناجون من المجزرة، لا موقع لنا إلا في الشرق الأوسط، ونحن أكثر من ذلك غربيون مثلكم، ولنا قيمكم، ونحن نريد السلام. ص. ٥٦".

تحضر كلمة هولوكوست، التي هي صناعة إعلامية، في كل خطاب صهيوني إسرائيلي، وتحضر في

كل خطاب عن الفلسطينيين والسلام، كما لو كان الفلسطينيون قد أسهموا في المحرقة النازية، أو يعدّون لليهود محرقة جديدة!!. ولماذا توجّه، أو يتوجه، "الناجون من المحرقة" إلى الشرق الأوسط لا إلى الغرب، الذي ينتمون إليه قيماً وثقافة، إلا إن كان الغرب قد يجرّهم بدوره إلى محرقة جديدة!! ومع أن شعار "المحرقة" قديم مستهلك وأقرب إلى الابتذال، فإن المقصود منه إسرائيلياً، حجب المجازر الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني بخوف قديم "مبرّر" وقلق. أما تأكيد انتماء "الناجين" إلى الغرب، فالمطلب منه حجب العنصرية الصهيونية وطريقة تعامل الإسرائيليين مع الفلسطينيين في مناطق السلطة. والقياس والحالة هذه بسيط: فإذا كان الغربيون "يقرفون" من المسلمين والعمّال المهاجرين بعامة، فإن من حق الإسرائيليين، وهم غربيون، أن "يقرفوا" من الفلسطينيين ويبتعدوا عنهم ويعاقبوهم أيضاً، وصولاً إلى ما يمكن أن يدعى: اتقاء الخطر المحتمل بواسطة اجتثاثه؟

الهولوكوست في استعمالاتها المختلفة

أعطى قاموس وبستر الجديد لكلمة هولوكوست المعنى التالي: كلمة ألمانية تعني "حرق الشيء" بكليته، إذ القسم الأول منها هولو يعني "الكل" والثاني (كوستوس) يعني الحرق، والمعنى النهائي هو التهديم الكلي، أو الكامل، للحياة، وخاصة بواسطة النار، ثم يضيف: الإبادة المنظّمة لأكثر من ستة ملايين يهودي أوروبي عن طريق النازيين خلال الحرب العالمية الثانية.

ومع أن الهولوكوست، وتساوي بالعربية المحرقة، قد أصابت الروس والبولنديين واللتوانيين وغيرهم، مثلما أصابت أهل رواندا في نهاية القرن الماضي، ناهيك عن مجازر صبرا وشاتيلا، استطاعت البلاغة الصهيونية جعلها خاصة باليهود وحدهم، قبل أن يشدّ حروفها لانزمان ويعطيها اسماً عبرياً (شوا SHOAH)، كما لو كانت موجودة في اللغة العبرية قبل أن يقوم بها الجنود الألمان.

غير أن الثقافة الصهيونية ما لبثت أن أعطت الكلمة تأويلاً وجودياً، فالهولوكوست هو التجسيد المطلق لمعنى الشر الكامل، وقد وقع على اليهود دون غيرهم، كما لو كانوا كبش فداء، وللبشرية كلها، أعقبه خلاص البشرية بعد هزيمة النازية، ما يجعل من نهاية المحرقة مبتدأ لأوروبا جديدة، متحررة من الشر، وبداية لإنسانية خيّرة. افتدى اليهود البشرية بأرواحهم، وضمّدوا جراحهم وذهبوا إلى فلسطين ليخلقوا دولة جديدة ثنائية الدلالة: فهي دولة لشعب من الناجين من الشر، وهي خير في ذاتها في زمن هُزم فيه الشر هزيمة أخيرة. يأخذ الناجون من المحرقة، بهذا المعنى، بعداً رمزياً دينياً، وتكون للإساءة إليهم أبعاد دينية أخرى، ما يجعل من كفاح الفلسطينيين ضد الدولة

الصهيونية فعلاً شريراً بامتياز، تتراءى فيه أطياف نازية، رآها الصهاينة، "بوضوح" في شخصية المفتي الحاج أمين الحسيني، قبل أن يجعلوا من عرفات مشجباً يعلقون عليه كل أنواع "الإرهاب" في الشرق الأوسط، كما يقول مؤلف الكتاب.

لا يكتمل معنى المحرقة، في التصور الصهيوني، إلا بالتذكير بأمرين: الذاكرة الإنسانية الديمقراطية ولا معقولية الحداثة. فإذا كانت الذاكرة اليهودية حوّلت "المحرقة" إلى عنصر أبدي في الضمير اليهودي فقد عملت، بنجاح كبير، على فرضها عنصراً مهيباً في ذاكرة الإنسانية كلها، كما لو كان ضحايا الحرب العالمية الثانية من غير اليهود غير جديرين بالتذكير بهم. ففي عام ٢٠٠٥ قررت الأمم المتحدة، وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني، الاحتفال بذكرى المحرقة كواجب عالمي. كانت بريطانيا وإيطاليا قد بادرتا إلى هذا منذ عام ١٩٩٦، من دون التلميح ولو "بكلمة واحدة" إلى هيروشيما وناغازاكي. وفي الفترة ذاتها أخذ قرار بناء متحف للهولوكوست في واشنطن، ما جعل التذكير بضحايا المحرقة جزءاً من "الهوية الثقافية الغربية"، وغدا يوم ٢٧ كانون الثاني، الذي هو يوم تحرير اليهودية من معتقل "أوشفيتس" النازي، يوم ولادة حضارية أوروبية جديدة، متحررة من "الاستبداد واللاسامية والماضي الأوروبي الشرير..". ولم يكن الاتحاد السوفييتي السابق، بعيداً عن "تهويد الذاكرة الأدبية"، وهو البلد الذي أودت الحرب إلى قتل ثمانية ملايين من جنوده، وستة عشر مليوناً من مواطنيه. وكذلك حال ألمانيا التي بنت في وسط برلين نصباً تذكارياً يحيّي ذكرى اليهود. يسأل المؤلف: ألا يجب التذكير بأكثر من عشرة ملايين من غير اليهود؟ وهل موتهم أقل أهمية من موت الآخرين. ص: ٢٧". أنجز الغرب المحتفي بالهولوكوست أمرين: احتفى بنهاية الحرب العالمية الثانية، وأختصر الانتصار على النازية في الاحتفال بذكرى اليهود. هكذا أمكن الحديث عن هوية ألمانية "يهودية مسيحية" ووسّع، لاحقاً، مصطلح "الثقافة اليهودية المسيحية"، كما لو كانت المحرقة قد لازمت أوروبا الحديثة منذ ولادتها في القرنين السادس والسابع عشر.

لا غرابة أن يطرح الفيلسوف الألماني أدورنو سؤاله الشهير: ماذا بعد أوشفيتس؟ الذي يعني، مهما كان تأويله، أن على الإنسانية جمعاء أن تفكر بشكل جديد، وأن ترى في الضحايا اليهود بداية تاريخ إنساني ثقافي جديد. الطريف أن اليهود لم يدخلوا كلمة shoah إلى قاموسهم اللغوي إلا في عام ١٩٤٠ مفترضين أن المحرقة مدخل حديث إلى قراءة تاريخهم وتاريخ البشرية جمعاء، طالما أن اللغة من الفكر والفكر من اللغة.

لا غرابة أن تأخذ الحداثة، لدى بعض الفلاسفة، تأويلاً جديداً، وأن تقرأ الثورة العلمية التقنية تحت ضوء جديد، طالما أن "أفران الغاز النازية" ترتبط بهذه الثورة، وأن زمن "المحرقة" من زمن الثورة العلمية الحديثة. بل يمكن أن يصبح مصطلح "ما بعد الحداثة"، الذي أزدهر في العقود الأخيرة،

إشارة إلى "عالم من القيم" لا يسمح باضطهاد جديد لليهود وأن يغدو ما يشير إلى الحداثة فعلاً "ظلامياً"، يتضمن، لزوماً، أبعاداً من اللاسامية وكراهية اليهود يشمل ذلك حديث الفلسطينيين عن الاحتلال الإسرائيلي لأرضهم، وحديث بعض الأوروبيين اليساريين عن "الجدار العازل" ومجازر غزة.

هكذا يصبح، نظرياً، الحديث عن "معاداة العنصرية" والصهيونية إيديولوجيا زائفة، بعد أن فرض "ما بعد أوشفيتس" زمناً كونياً جديداً" لا مكان فيه للعنصرية والاحتلال إلا لدى العقول المستبدة، التي لا تريد أن تختصر الشر الإنساني الواسع في الشر الذي أنتج المحرقة. بل أن في هذه الإيديولوجيا الزائفة ما يميّز بين الإنسان الديمقراطي والإنسان المستبد، ذلك أن الأول يقبل بدلالة المحرقة، من دون الإشارة إلى قومية وثقافة ودين، على اعتبار أن "الخلاص اليهودي" خلاص للإنسانية كلها. يتبقّى أن وضع الإنسان، بداهة، ماثل في التاريخ الاستعماري الأوروبي وضحاياه، هذه "الضحايا" المجسدة في مآل الشعوب الإفريقية ومصائر العالم العربي، الذي أسهم الاستعمار في توليده وتفكيكه، إذ استولده بشكل يفضي إلى تفككه، وفي مأساة الشعب الفلسطيني، التي دشنها الاستعمار البريطاني، وأكمل بناءها الاحتلال الكولونيالي الصهيوني.

يسوّغ "تهويد الذاكرة الإنسانية"، المتكئ على الهولوكوست، نسيان معاناة الشعوب التي كانت مستعمرة، طالما أن معاناة اليهود احتقبت الأشكال المختلفة لأية معاناة إنسانية، بما في ذلك معاناة هؤلاء الذين يتضورون جوعاً، ويبرّر الفرق النوعي بين اليهود وغير اليهود، مؤكداً جدارة الطرف الأول بكل شيء وعدم جدارة الطرف الثاني بأي شيء. كتب المؤلف: "إن كانت مآسي الضحايا من غير اليهود العرب والأفارقة والآسيويين غير جديرة بالانتباه، فإن لضحايا اليهود الانتباه كله. فالفتاة الفلسطينية التي يطلق النار على رأسها جندي إسرائيلي تبقى ضحية مجهولة، بينما تكون الفتاة الإسرائيلية، التي اطلق النار عليها إرهابي، معروفة الاسم. وكذلك الأمر في ما يتعلق بالسجناء: فنحن الإسرائيليين اليهود نعرف جميعاً أسماء حفنة من السجناء الإسرائيليين، كما يفعل الكثير من الناس في الغرب، وإذا لم نعرف الاسم فعلى الأقل التهمة والصفة. بينما أسماء المساجين اللبنانيين والفلسطينيين الذين يتعفنون في السجون الإسرائيلية سنوات طويلة غير معروفة، ولا يعنينا أمر هؤلاء السجناء في شيء. ص: ٤٠".

٣ كابوس عودة اللاجئين

عرفات ليس شريكاً في عملية السلام، أرهابي لا مصداقية له، وعلى الفلسطينيين، إن كانوا يؤمنون بالديمقراطية الحقة، أن يكونوا جزءاً من الإنسانية التي تخلّد ذكرى المحرقة: بعد ذلك يصل

الليبراليون الصهاينة إلى البعد الثالث الماثل في: عـودة الفلسطينيين إلى بلادهم أكانت الـعودة إلى إسـرائيل الدولة، أم إلى أرض السلطة في الضفة الغربية. يمثّل هذا البعد الكابوسي جوهر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ذلك أن الفلسطينيين شعب واحد، لا عدة شعوب.

يوقظ تعبير "حق العودة" لدى الإسرائيليين، الليبراليون منهم كغيرهم، تعبيراً مقابلاً هو "الأقلية اليهودية"، الذي يحمل دلالة عددية تقول "بأكثرية عربية"، قائمة أو محتملة، ودلالة نفسية قوامها فكرة: الخطر، الذي على الإسرائيليين أن يتقونه.. لهذا يستدعي هؤلاء الليبراليون، مباشرة، عام ١٩٤٨، بعد اختراعه، إذ ينسبون إلى الفلسطينيين "مجازر عديدة" ارتكبوها بحق اليهود، كما جاء على لسان إلان جريلسمر في مقالة له في جريدة اللوموند الفرنسية، نشرها في الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠٣. وأغراض هذا الكاتب، كما غيره من الكتاب الليبراليين، واضحة: هل يستطيع اليهود، وهم أقلية، أن "يدخلوا" إلى مجتمعهم، أو إلى "وطنهم" فلسطينيين ارتكبوا بحقهم مجازر كثيرة؟

يعلق مؤلف الكتاب على إطلاقية الموقف الإسرائيلي، فيكتب: "فقد البعض وظائفهم في الجامعات الإسرائيلية، لأنهم تحدثوا عن شيء أقل من حق العودة"، كما لو كان التصريح بهذا الحق يشكّل خيانة كبرى. فهو يفقد "الاحتلال الإستيطاني" معناه طالما أن أرض العرب في إسرائيل ليست للعرب، وأنها جزء من هندسة الهوية الصهيونية التي تضع اليهودي المتحضر المستنير مكان العربي المتخلّف والظلامي، أي المسلم الذي تخاصم أعرافه قيم المجتمع الغربي، الذي يعتبر "طرد العرب" فعلاً حضارياً مستنيراً. بيد أن هذا الغرب المتحضر، بالمناسبة، ينسى القوانين الأمومية الدينية في إسرائيل، وحرمان الفلسطينيين الإسرائيليين من حقوق المواطنة بما في ذلك، طبعاً، الحق الفعلي في التعلم والتعليم الجامعيين بل أن الصهيوني الفرنسي فنكلكرايت يسأل: "هل بإمكان العربي، داخل إسرائيل أو خارجها أن يستوعب روحياً وثقافياً معنى الهولوكوست، الذي هو عنوان الذاكرة الكونية الحديثة؟" الجواب لا كما لو كان على الفلسطينيين أن يعترفوا "بالمحرقة"، وأن يعيشونها نفسياً، قبل المطالبة بحق العودة، هذا أمر مستحيل!! إن لم يكن عليهم أن يتبرأوا من "الإسلام"، وأن يلتحقوا بالتقاليد "اليهودية المسيحية". والأمر كله أثر للاختراع، الذي يضع التاريخ الفلسطيني خارج التاريخ الحديث، ويجعل من إسرائيل امتداداً سالماً وحالماً لتاريخ الثقافة الغربية. فهي بلد "الناجين من الشر"، وكما أن يهود إسرائيل يهود من نوع جديد، تتجسّد فيهم الذاكرة الأوروبية الشريرة والمتحررة من الشر في آن؟ فهي الذاكرة الشريرة المرتبطة "بالمحرقة"، والذاكرة المتحررة من الشر بعد انتصار اليهود وهزيمة العنصرية النازية.

والسؤال هنا من وجهة نظر الإعلام الصهيوني النشيط: إذا كان من الممكن الحديث عن يهودي

جديد، عرف المحرقة وتجاوزها، فهل من الممكن الحديث عن فلسطيني جديد؟ والسؤال، في اختراعه البلاغي لا دور له إلا تقريظ المدافعين عن حقوق إسرائيل المطلقة في فلسطين. فعاموس عوز تجسيد لليهودي الجديد، بلغة الصهيوني الآخر مارتن سلبر: فهو من مواليد القدس عام ١٩٣٩، التي كانت تحت الاحتلال الإنجليزي، وعوز، كما جيله، من الذن ترعرعوا في زمن انتصار الخير اليهودي على الشر النازي، ما يجعله مرآة مرحلة إنسانية جديدة، ويضع في كلامه حكمة لا تحتاج إلى برهان عنوانها: "نحن هنا هنا في إسرائيل لنذكّركم أن الشر وجد يوماً، لأنه كان موجهاً ضدنا". وإذا كنا قد عانينا من الشر في زمن سبق، فلماذا نقبل بالتعايش مع "الشر الفلسطيني" تحديداً؟ بل أن عوز يذكّر الآخرين بأنه كان عام ١٩٦٧، مع قلة غيره، من أنصار حل الدولتين المتجاورتين.....، لكن اليوم كل شيء تغيّر، لأن ما طرحه رفضه الفلسطينيون ولا يزالون يرفضونه إلى اليوم، "وهم يصرّون على "حق العودة"، في حين أننا نعلم جميعاً ان "حق العودة" يعني في اللغة العربية تصفية دولة إسرائيل. وعرفات لم يصرّ فقط على حق الفلسطينيين في دولة لهم، وهو ما أدعمه كلياً، لكنه يرى اليوم أنه يتوجب على الفلسطينيين في المنفى أن يعودوا، ليس إلى فلسطين فقط بل إلى إسرائيل أيضاً، ما يزعزع التوازن السكاني، وما قد يقلب إسرائيل إلى الدولة رقم ٢٦ من العالم العربي، ...ص: ٦٤". يشير عوز إلى أستاذ جامعي لطيف من "معسكر السلام" قال له: "الآن، يجب علينا أن نكتب جميعاً ضد حق العودة".

يرد "معسكر السلام الإسرائيلي" على حق العودة بذريعة قديمة، أقرب إلى السخرية السوداء، قوامها أن "مئات الألوف من اليهود طردوا من العالم العربي عام ١٩٤٨ وما تلاه، وخسروا ما يملكونه، ما يعني أن عدد الذين رحلوا من الفلسطينيين يساوي عدد اليهود الذي تركوا طواعية العالم العربي، بعد قيام دولة إسرائيل. ترجع مرة ثانية القاعدة الفاسدة القائلة "عدالة بعدالة". والطريف أن اليهودي الفرنسي إيلي فيزل Elie Wisel، الحائز على جائزة نوبل للسلام، من الرافضين بشدة أيضاً لحق العودة، فقد كتب بعد تسعة أيام من "عودة عاموس عوز إلى صوابه"، وفي صحيفة لوموند الفرنسية في ١٨ كانون الثاني من ٢٠٠١: "يصر الفلسطينيون على "حق العودة" لأكثر من ثلاثة ملايين لاجئ. وحول هذه النقطة إسرائيل موحّدة في رفضه، وآية ذلك أن أكثر كتّاب إسرائيل العظام والأكثر دفاعاً عن السلام، مثل عاموس عوز وأ.ب. يهوشوا وديفيد غروسمان يعارضون علنياً هذا المطلب. إن هذا الحل، الذي يعني عودة حاشدة، لا يمكن للعقل أن يقبل به. فأن يأتي ثلاثة ملايين فلسطيني إلى إسرائيل يعني لزوماً انتحاراً جسدياً، الأمر الذي لا يمكن أن يقبل به أي إسرائيلي مؤمن بدولته؟".

يتطيّر الإسرائيليون من حق العودة الفلسطيني، لا بسبب ذريعة العدد والتوازن السكاني فقط، بل

لأن فيه ما يقوّض مبتدأ الاحتلال الإسرائيلي، الذي قام ، ظاهرياً، على حجة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، غافلين أن هذا الشعب الغائب فاجأهم بوجود لا يمكن إنكاره.. ولعل حجتهم الواهنة القديمة، التي تقف على ساقين من قش، هي ما يدفع "فيزل"، كما غيره، إلى عودة دورية إلى فكرة "الضحية"، التي "ينذر الخطر الفلسطيني" باضطهادها من جديد، وهو تعبير يساوي عند عاموس عوز "تصفية اليهود"، بل أن الصهيوني الفرنسي كلود لانزمان، الذي يتخذ من عوز مرجعاً له، صرح بنبرة درامية في شباط عام ٢٠٠٧: "إن حق العودة هو موت إسرائيل، فلتكن لهم دولتهم ولتكن لنا دولتنا، ولندع أنفسنا نبني جداراً فاصلاً، يعادل سور الصين، ...، وإذا هاجمونا، فهذا يعني الحرب، ...، وليعلم الجميع أن هؤلاء اليهود أكثر حذقاً من الأميركيين مع أسلحتهم الذكية...".

أما الفيلسوف الليبرالي الفرنسي الزائف برنارد هنري ليفي، الذائع الشهرة والأقرب إلى نجوم الإعلام والدعاية، فكتب في الفترة ذاتها: "أستطيع أن أقول ما قال به عاموس عوز، إن وضع حق العودة على رأس مطالب منظمة التحرير تمثّل استفزازاً صارخاً، لأن هذا الحق لم يعد يعني وجود دولة فلسطينية واحدة، بل وجود دولتين فلسطينيتين: الأولى قائمة من الآن على ما تبقى من أرض فلسطين، والثانية تأتي لاحقاً داخل إسرائيل ذاتها، وذلك حين تحوّل ملايين العائدين إليها من اللاجئين إلى دولة إسرائيل إلى دولة ذات أغلبية فلسطينية".

يطرح اسحاق لاور السؤال التالي: ما الذي يجعل الإعلام الفرنسي يقبل الأطروحات الصهيونية الكاذبة؟ لا يأتي الجواب، هذه المرة، مباشرة من المحرقة، بل مستجدات عميقة شهدها المجتمع الفرنسي على المستوى الفكري والاجتماعي، تتمثّل بكراهية الغرباء والإسلاموفوبيا والمطابقة بين الفلسطيني والإسلامي وبين الإسلامي والإرهابي،... وقد يأتي أيضاً من صورة المجتمع الإسرائيلي، الديمقراطي..... إعلامياً، الذي يؤذيه إيذاء شديداً دخول العرب المسلمين إليه، بقيمهم الثقافية التي تختلف عن قيم "المجتمعات الغربية" اختلافاً كبيراً، هذه المجتمعات التي لا تعرف "الحجاب" والأسرة الكثيرة الأولاد،...

إسرائيل جزء من الغرب

من أساطير الصهيونية الليبرالية تلك القائلة: تنتمي إسرائيل إلى الغرب، ووجودها في الشرق فرضه تاريخ قديم يعود إلى أكثر من ألفي عام، حيث تمثّل ذاتها بثقافة يهودية لغتها العبرية، وتتمثل فيها ثقافة غربية، شكّل اليهود بعداً أساسياً فيها، تجلّى، بخاصة، في القرن العشرين. فقد احتل المفكرون اليهود مكاناً واسعاً في "العلوم الاجتماعية" مثل: سيجموند فرويد مؤسس علم التحليل النفسي،

وإميل دوركايم عالم الاجتماع الكبير، وماركس عالم الاقتصاد الذي حلم بثورة اشتراكية. كان منهم في الأدب فرانتس كافكا، الذي كتب ذات مرة قصة "العرب وبنات آوى"، القابلة لأكثر من تأويل.

غير أن الانتساب اليهودي للثقافة الغربية يتأتى عن مصطلح، صعد بعد الحرب العالمية الثانية، هو الثقافة المسيحية اليهودية، حيث تمتد اليهودية في المسيحية، بقدر ما تمتد الثانية في الأولى. ومع أنّ الأمر لا ينفصل عن تصاعد النفوذ اليهودي في القرن العشرين، فإن في المصطلح ما يحجب الزمن ويقيم بين المسيحية واليهودية اتحاداً يعود وراء "مئات السنين". وفي هذا المعنى فإن الثقافة اليهودية القريبة من الثقافة المسيحية، بعيدة عن الإسلام، في تشويهاته العنصرية المتعددة، وبعيدة أكثر عن "ظلام الإسلام" و"إرهابه".

من اللافت أن تنعكس صورة الإسلام في الغرب على القضية الفلسطينية، بسبب آلة إعلامية صهيونية نشيطة توزّع ما تريد على معادلة بسيطة؛ تعيّن الإسلام، إرهاباً سافراً، وتختصر الفلسطينيين إلى جماعة دينية غريبة، ثقافياً وفكرياً، عن الغرب واليهود معاً. بل أن في الربط بين الإسلام والإرهاب، في صيغته الإعلامية الصهيونية ما يستدعي النازية، وشيئاً مصطنعاً من تاريخ فلسطين الوطني مثّله المفتي الحاج أمين الحسيني.

تحارب إسرائيل، إذن، ما حاربه الغرب في الحرب العالمية الثانية، أي إرهاباً منقطعاً عن القيم الإنسانية. وقد استثمرت الحركة الصهيونية، في العقود الأخيرة، استثماراً واسعاً النزوعات الإسلامية في الكفاح الفلسطيني، وأدرجتها في إطار "الإسلاموفوبيا"، أي الخوف من الإسلام، كما لو كان الإسرائيليون وهم يقاتلون "حماس" يقاتلون من أجل قيم حضارية غربية صميميّة.

وإضافة إلى صورة المسلم النمطية، التي هي مزيج من العنصرية وذكريات استعمارية وصليبية، هناك صورة نمطية مكمّلة أولها: صورة الروّاد التي تعود إلى "الغرب الأميركي"، حين كان الأميركيون يحرثون أرضاً جديدة ويقاتلون "الهنود الحمر"، ما يحجب، زيفاً، الوجه الاستعماري الاستيطاني لإسرائيل. ولم تكن صورة الرائد الصهيوني، التي تجسّدت في أسطورة زائفة "الكيبوتسات"، إلا صورة الأميركي الحديث الذي يطوّر مزرعته مستنداً على المعرفة والتقنية الحديثة، وإلى جانبه زوجته النشيطة التي لا تعرف الحجاب والجلباب والنقاب...

لم تقتصر صورة "الثقافة الأميركية"، التي يقلّدها المجتمع الإسرائيلي بحماس كبير، كما يقول "لاور"، على الروّاد والعمل الزراعي، بل امتدت إلى صورة الجندي والمجنّدة الإسرائيلية، اللذين يشيران في شكليهما ونمط حياتيهما إلى ثقافة ترتاح إلى الغرب أكثر مما ترتاح إلى الشرق.. ويؤكد ذلك شكل الإعلام الذي يتوقف كثيراً أمام اليهودي إذا كان أشقر الشعر وأزرق العينين، أي "غربياً حقيقياً" لا

علاقة له بوجوه العرب، المشتقة من الصحراء.

وأخيراً يتميّز كتاب لاور بمزيج من الثقافة العالية والذكاء اللامع، والقدرة المدهشة على السجال والكشف عن التزوير، لكن تميّزه قائم أولاً في "روحه الصادقة" وتبيانه، بوضوح كبير، عدالة القضية الفلسطينية.

انظر:

Yitzhak Laor: the myths of Liberal Zionism. Verso, London 2017.

البدايات الأولى

تأسيس منظمة التحرير، وعقد المجلس الوطني الأول

عبد الغني سلامة *

مقدمة

عُرفت فلسطين بهذا الاسم، وبحدودها الطبيعية منذ أقدم العصور، وقد عاش الشعب الفلسطيني فيها، ولم يغادرها قط (إلا بعد النكبة)؛ بيد أن فلسطين في فترة الحكم العثماني كانت جزءاً من بلاد الشام، ولم تكن معروفة بنفس حدودها السياسية كما هي الآن؛ ولم يكن للفلسطينيين شخصية سياسية مستقلة، ولا تمثيل سياسي، شأنهم شأن بقية شعوب البلدان العربية التي كانت تحت السيادة العثمانية، ولكن، ومع بدايات القرن العشرين، ولمواجهة المشروع الصهيوني؛ أخذت الحركة الوطنية الفلسطينية تتبلور، وتتبلور معها الشخصية السياسية الفلسطينية، بمعنى أن الهوية السياسية الفلسطينية جاءت ردا على المشروع الصهيوني، وتشكلت لغرض مواجهة خطر تصفية القضية الفلسطينية.

في عشرينات القرن العشرين، تأسست في عدد من المدن الفلسطينية جمعيات إسلامية ومسيحية، كانت بظاهرها جمعيات اجتماعية، لكنها كانت أهم أشكال المقاومة والتصدي للمخططات الصهيونية، وقد برزت من خلالها شخصيات قيادية محلية، وكانت الشكل الأولي الذي عبر عن الشخصية الفلسطينية، أو أنها شكلت حينها نواة الكيانية الفلسطينية..

وفي سنة ١٩٢٠ انعقد المؤتمر الفلسطيني الأول، مشكلا من ممثلين عن تلك الجمعيات، انبثقت عنه لجنة تنفيذية لقيادة الكفاح الوطني، تبعته ستة مؤتمرات كان آخرها سنة ١٩٢٨، وفي الثلاثينات أخذت الأحزاب الفلسطينية بالتشكل، وقامت ثورة ال٣٦، وعلى إثرها تشكلت الهيئة العربية

* كاتب وباحث فلسطيني

العليا، ممثلة من إئتلاف خمسة أحزاب، بقيادة الحاج أمين الحسيني، وهي التي قادت الكفاح الوطني حتى العام ١٩٤٨.

بعد النكبة تداعت شخصيات فلسطينية في غزة، وشكلت حكومة عموم فلسطين، برئاسة أحمد حلمي باشا، وقد اعترفت بها الدول العربية باستثناء الأردن، التي سارعت لعقد مؤتمر أريحا، الذي تمخض عنه ضم الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية. في حين خضع قطاع غزة للإدارة المصرية.

على إثر النكبة، ضُربت الكيانية الفلسطينية، وتشرد الشعب الفلسطيني، ولم تعد له قيادة، ولا تمثيل سياسي، وقد تحولت كل من حكومة عموم فلسطين، والهيئة العربية العليا إلى مجرد يافطات دون مضمون، ودون أي قدرة على ممارسة أي دور..

وهكذا دخل الشعب الفلسطيني مرحلة من الضياع والتيه، أريد لها أن تدوم للأبد، وتحولت القضية الفلسطينية إلى مجرد قضية معونات إنسانية تقدمها وكالة الغوث.

لكن المخطط الإمبريالي الصهيوني لم يمض كما أريد له؛ إذ انطلقت الثورة الفلسطينية، وتأسست منظمة التحرير، وأعاد الفلسطينيون تصويب مسار التاريخ.. بعد أن نظموا صفوفهم، وحملوا السلاح، وطرحوا قضيتهم بقوة في المحافل الدولية، وصار لهم برلمان (مجلس وطني)، وقيادة، ومؤسسات..

في نهاية نيسان ٢٠١٨، التأمت في رام الله الدورة الثالثة والعشرون للمجلس الوطني الفلسطيني، وهي مناسبة لنستذكر من خلالها حيثيات وظروف تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وملابسات انعقاد أول دورة للمجلس قبل ٥٤ عاما في القدس، كما يرويها مؤسس المنظمة المرحوم أحمد الشقيري، في كتبه: «من القمة إلى الهزيمة»، و«على طريق الهزيمة»، و«حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء»، والذي صاغ فيها بأسلوبه الشيق قصة تأسيس منظمة التحرير..

ومن خلال هذه الدراسة الموجزة سنطلع أيضا بشكل سريع على أهم مؤسسات منظمة التحرير، وكيف أُنشئت؟ وما هي أدوارها..

قصة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية

تبدأ القصة سنة ١٩٦٣، ببرقية من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، يرشّح فيها أحمد الشقيري ليكون مندوب فلسطين في جامعة الدول العربية، بعد وفاة المرحوم أحمد حلمي، رئيس حكومة عموم فلسطين.. وقد كان الشقيري قبل ذلك مندوب سورية، ثم السعودية في الأمم المتحدة.

قبِل الشقيري بالتكليف، وكانت أول مهمة له تشكيل وفد يتحدث باسم الشعب الفلسطيني في

الأمم المتحدة، وكما هو متوقع، واجه صعوبات كثيرة في تشكيله، ليس فقط من قبل الحكومات العربية، التي نظرت بريبة وتوجس لفكرة إحياء الكيانية الفلسطينية، بل وأيضا من قبل تجمعات الشعب الفلسطيني في مختلف بقاع الأرض، والتي يريد فيها كل تجمع أن يكون له تمثيل في هذا الوفد، الذي سيضم ١٨ شخصية، منهم سيدتان.

في نهاية العام ١٩٦٣ دعا عبد الناصر لعقد «القمة العربية الأولى» لبحث مسألة تحويل إسرائيل لمجرى نهر الأردن.. وبعد تذليل صعوبات موعد انعقاد المؤتمر (كانون ثاني ١٩٦٤)، كانت المعضلة الكبرى في توحيد كلمة العرب؛ خاصة في تلك الظروف التي كانت تعصف فيها الخلافات بين الدول العربية: حرب بين المغرب والجزائر على الحدود، حرب سعودية مصرية في اليمن، حرب إذاعية بين دمشق والقاهرة، وبين القاهرة وعمّان، خلافات بين مصر والعراق بشأن الكويت، صراع بين المغرب وتونس بشأن الاعتراف بموريتانيا، انقلابات في سورية والعراق، ومشاريع انقلابات في الأردن بدعم من دول الجوار، إنزال أطلسي على شواطئ لبنان، تهاوي خلف بغداد، انفراط الوحدة بين الأردن والعراق، وبين مصر وسورية.. كان عبد الناصر في أوج زعامته، والمنطقة تموج بالأحداث والصراعات، والحرب الباردة بين المعسكرين الكبيرين على أشدها..

بالنسبة لترتيبات بروتوكول انعقاد القمة، كانت المشكلة في حضور الشقيري؛ أين يجلس؟ وبأي صيغة؟ هل يجلس بين الملوك والرؤساء، وهو ليس رئيسا، أم يجلس بالخلف؟ أخيرا اتفق المنظمون على أن يجلس على طرف المائدة، على كرسي عادي (ليس مزدوج)، وعلى بعد خطوتين للخلف.. قبِل الشقيري بذلك، وهو يضمر شيئا بنفسه..

بدأت الوفود تحضر، وقد عكس الرئيس السوري أمين الحافظ عبوسه على الأجواء، إلى أن حضر بن بيلا وبورقيبة فلطفا الأجواء بدماثتهما، وما أن أعلن افتتاح الجلسة، حتى قدَّم الشقيري مقعده قليلا، وجلس كتفا إلى كتف بجوار الملك الحسن الثاني.. حملق رجال البروتوكول إلى مخالفة الشقيري، لكنهم لم يجرؤوا على الاعتراض.. وعلى حد تعبير الشقيري «تقدمت القضية الفلسطينية خطوة صغيرة في مسيرتها نحو إنشاء الكيانية الفلسطينية».

حين تقدم الشقيري لألقاء كلمته، طلب منه رئيس الجلسة عبد السلام عارف الاختصار، فاعترض قائلا: هذا مؤتمر من أجل فلسطين، وعليَّ أن أتكلم بإسهاب.. في كلمته طالب بإنشاء منظمة تمثل الشعب الفلسطيني، وبرلمان، وجيش، وسلاح، وتجنيد إجباري، وحرب عصابات، وصندوق مالي.. وفي مذكراته، يقول: كان وقع الكلمة عليهم كالصاعقة، وقد بدت المفاجأة على وجوههم، إذ اعتادوا المرور السريع على بند القضية الفلسطينية، وتوقعوا أن المسألة مجرد خطاب إنشائي..

في اليوم الثاني أعلنت رئاسة المؤتمر أن الجلسة ستقتصر على الملوك والرؤساء، فاحتج الشقيري عند عبد الناصر قائلا: إذا لم تحضر فلسطين، فمن يحضر! فقال له: إذهب إلى الملك حسين، واقنعه.. وبالفعل، توجه الشقيري إلى العاهل الأردني، مبددا مخاوفه بشأن الكيان الفلسطيني، مؤكدا له أنه لا ينوي سلخ الضفة الغربية عن المملكة، وبعدها طاف على جميع الرؤساء والملوك، ومعه موافقة الملك حسين على حضوره. وكانت المشكلة مع الملك سعود، الذي كان حينها قد أوكل كل صلاحياته إلى الأمير فيصل، والذي بدوره كان على خلاف مع الشقيري، على خلفية حرب اليمن. وعندما تعقدت الأمور، هدد الشقيري بالانسحاب، فقال الرئيس بن بيلا :»إذا انسحبت فلسطين تنسحب الجزائر».. وهكذا تمت الموافقة على مضض.

انتهى المؤتمر بقرار من سطرين: «يكلف الشقيري بمواصلة جهوده والاتصال مع الحكومات العربية والشعب الفلسطيني لغرض تمكين الشعب الفلسطيني من تنظيم دوره لاستعادة وطنه». ولم يكن حينها في جيب الشقيري شيئا، حتى نفقات سفره.

يقول الشقيري: أول ما بدأت؛ رسم الكيان الفلسطيني على الورق، تخيُّل شكل المنظمة وهيكليتها، المجلس الوطني، صياغة الميثاق، تشكيل جيش التحرير، الصندوق القومي، مركز الأبحاث، الإذاعة، مكاتب للمنظمة في العواصم العربية... إقناع الحكومات العربية، الاتصال بجماهير الشعب الفلسطيني، والإجابة على تساؤلاتهم الكثيرة...

بدأ خطوته الأولى في الأردن؛ عقَد ٣٠ مؤتمرا شعبيا في المدن والبلدات الأردنية والفلسطينية وفي مخيمات اللاجئين، لعرض الفكرة على الجماهير، واستمزاج آرائهم، ومعرفة توجهاتهم، ثم انتقل إلى سورية التي منعته من عقد أي مؤتمر شعبي، وكذلك فعلت السعودية، أما في لبنان والكويت والبحرين وقطر والإمارات والعراق، فقد عقد عشرات اللقاءات الجماهيرية، والرسمية، وسط حضور شعبي كبير ومؤيد، سواء من الفلسطينيين، أم من الجماهير العربية..

بعد سلسلة اللقاءات الرسمية والمؤتمرات الشعبية، أراد الشقيري أخذ موافقة الأردن على تأسيس المنظمة، واعترافه بها، ولتبديد مخاوف الملك حسين، بأن الكيان الفلسطيني لن يطالب بسلخ الضفة الغربية عن المملكة، ولن يؤثر على التركيبة الديمغرافية للأردن؛ طلب الشقيري من الملك أن يصيغ بيان إعلان موافقة الأردن على تشكيل المنظمة، وبالفعل قام الملك بصياغة البيان، وقام الشقيري بإلقائه في الإذاعة الأردنية.

في أثناء لقاءاته مع التجمعات الفلسطينية في الدول العربية، قدمت البحرين تبرعا بقيمة عشرة آلاف جنيه، وكان هذا ثاني مبلغ تتلقاه المنظمة، الأول كان من «حامد أبو ستة» بقيمة خمسين ألف

دولار، ثم تبرعت قطر بمبلغ ثلاثين ألف جنيه، وقد أودعت المبالغ في البنك العربي.

من المفارقات التي يرويها الشقيري في مذكراته، أنه أثناء زيارته بغداد، دخل خمسة شبان من حزب التحرير غرفته، ومعهم بيان مطبوع خلاصته أن تأسيس المنظمة كفر وإلحاد.. ولم يكن هؤلاء مشكلته الوحيدة، فقد شككت الأحزاب السياسية والجبهات الفلسطينية المختلفة بالمنظمة، وبجدوى تأسيسها، وعلاقتها بالجامعة العربية، وبعبد الناصر.. وكان الشقيري يمضي معهم ساعات طويلة من الجدال بلا طائل.. حركة فتح التي كانت في بداياتها اتخذت موقف الانتظار الإيجابي والتريث.. دون توجيه اتهامات، وقد عبرت عن موقفها في مجلة «فلسطيننا»، بالدعوة لأن يكون هذا الكيان الفلسطيني مرتكزاً للثورة المسلحة وليس بديلاً عنها.

خلال تلك الفترة تم تشكيل لجنة تحضيرية مهمتها تسمية أعضاء المجلس الوطني، الذي سيعقد أول اجتماعاته في ٢٨-٥-١٩٦٤، في فندق انتركونتنتال على جبل الزيتون في القدس، وقد تم توجيه الدعوة للملوك والرؤساء لحضور الجلسة.

القيادة السورية اعترضت على أسلوب اختيار أعضاء المجلس، وأصرت أنه يجب أن يتم ذلك من خلال الانتخابات فقط! السعودية ظلت رافضة لاستقبال الشقيري، أو التعاطي مع فكرة إنشاء المنظمة. وكانت السفارات الأميركية في عمان والرياض وعواصم أخرى قد وجهت رسائل تحذير ورفض لفكرة إنشاء المنظمة، بحجة أن الشقيري عميل للسوفييت، وقد عرض صورة عن تلك الرسائل موظف كبير في الخارجية الكويتية.

توجه الشقيري إلى عمّان، لإقناع الملك حسين بافتتاح أعمال المجلس، إلا أن الملك الذي ظل متحفظا ومتخوفا من فكرة إنشاء المنظمة، كان قد توجه إلى العقبة، تهربا من حضور المؤتمر، فلحقه الشقيري إلى هناك بصحبة بهجت التلهوني، ولتليين موقف الملك، ألمح الشقيري إلى إمكانية عقد المجلس في القاهرة بدلا من القدس، وحينها واقف الملك على الحضور.

حضر المؤتمر الأول ٤٥٠ عضوا، من مختلف تجمعات الشعب الفلسطيني (مصادر أخرى ذكرت العدد ٤٢٢).. وباستثناء السعودية، شارك في الافتتاح جميع وزراء الخارجية العرب، وممثل عن الرئيس عبد الناصر، والأمين العام لجامعة الدول العربية، وقد وصلوا عبر مطار قلنديا. وحينها عسكرت الدبابات الأردنية حول الفندق وفي الطرق المؤدية إليه، لحراسة موكب الملك حسين الذي سيفتتح المؤتمر.

وفي كلمته، قال الشقيري: إن الكيان الفلسطيني لا يبنيه الملوك والرؤساء، ولا تبنيه الجامعة العربية، إنما يبنيه الشعب الفسطيني بدمه وعرقه.

انتخب المجلس الشقيري رئيسا، وكلاً من حكمت المصري وحيدر عبد الشافي نائبين للرئيس، ونقولا الدر (من شفا عمرو) أمينا للمؤتمر. ثم انتخب اللجنة التنفيذية، كما أقر النظام الأساسي للمنظمة، والميثاق القومي، وأعلن عن البدء بتشكيل جيش التحرير الفلسطيني، ومؤسسات المنظمة المختلفة، والهيئات المنبثقة عنها..

فمثلا تمت الاستعانة برئيس أركان الجيش السوري سابقا شوكت شقير، لوضع خطة متكاملة لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني، تنظيما وتسليحا.. ثم تولت مصر مسألة إعداد الجيش، برعاية الفريق علي علي عامر القائد العام للقوات العربية الموحدة، والفريق محمد فوزي وزير الحربية المصري، واتفق على أن تتمركز وحدات الجيش في سيناء (قوات عين جالوت)، وسورية (قوات حطين) والعراق (قوات القادسية). كانت العراق أول دولة تتبرع لجيش التحرير بمبلغ مليون دينار، تبعتها الكويت، ليصل مجموع التبرعات خمسة ونصف مليون دينار. ويؤكد الشقيري أنه من العام ١٩٦٤ حتى العام ١٩٧١، كانت كل دولة عربية قد تخلفت خمس أو ست مرات عن دفع التزاماتها للمنظمة أو لجيش التحرير.

كما استعين بخبراء إعلاميين لصياغة برنامج إعلامي، وإنشاء إذاعة وجريدة، واستعين بخبراء ماليين لإدارة الصندوق القومي، وتم اختيار عدد من الباحثين والمفكرين لتأسيس مركز الأبحاث.. وهكذا.

يقول الشقيري إن من بين أكبر المعضلات التي واجهته، تسمية أعضاء المجلس، حيث أن الشخصيات الوطنية التي يرضى عنها الشعب هي نفسها التي لا ترضى عنها الحكومات، وعليه أن يحل هذا التناقض، بحيث لا يجلب عداوة الحكومات ولا يخسر ثقة الشعب.

وأيضا استمرار التشكيك ووضع العراقيل، سواء من الحكومات، أم من قطاعات الشعب الفلسطيني المختلفة، فمثلا، يقول الشقيري: ظل الحاج أمين الحسيني يرسل البرقيات للملوك والرؤساء والهيئات الدولية لعرقلة جهود إنشاء المنظمة، والتشكيك بمصداقيتها، وللتأكيد على أن الهيئة العربية العليا هي الممثل الشرعي للفلسطينيين.

وأيضا، عندما اختير عبد المجيد شومان لرئاسة الصندوق القومي، قال البعض أن المنظمة هيئة برجوازية رجعية، وعندما استأجرت المنظمة ساعات بث من إذاعة الشرق الأوسط، قال البعض هل نحتاج إذاعة وخطابات؟ وعندما تقرر إنشاء مكاتب للمنظمة في العواصم المختلفة، اعترض البعض قائلين: هل نحتاج سفراء ومكاتب ونفقات بلا داعٍ؟ وعندما أُنشئ أول معسكر تدريب في النصيرات ليكون تابعا لجيش التحرير، قال البعض أن هذا جيش نظامي مثل الجيوش العربية، لإفشال حرب العصابات والعمليات الفدائية. هذا فضلا عن تناقضات التيارات العقائدية والأحزاب السياسية،

وتدخلات الأنظمة العربية، ومحاولاتها زج شخصيات تابعة لها، والتأثير على القرار الفلسطيني، والهيمنة على المنظمة.

في مؤتمر القمة العربي الثاني الذي عقد في الإسكندرية (أيلول ١٩٦٤)، قال الملك فيصل، وكان حينها رئيسا للمؤتمر، إن المجلس الوطني الذي عُقد في القدس لا يمثل كل الفلسطينيين، وأن الشقيري تجاوز صلاحياته، والمهام التي كلفه بها المؤتمر، والتي لا تتجاوز دراسة الوسائل لإنشاء الكيان الفلسطيني، ولم نطلب منه إنشاء هذا الكيان بنفسه. وأضاف إنه يريد إنشاء كيان فلسطيني بطريقة ديمقراطية، وبالانتخابات!!

وكالعادة، تدخل الرئيس الجزائري، وقال إن إجراء الانتخابات غير ممكنة حاليا، وأن الحركات الثورية تستمد شرعيتها من الكفاح، وطالب المؤتمر بالاعتراف بمنظمة التحرير، كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني.

وكانت هزيمة ١٩٦٧ قد أسهمت في إنضاج الظروف التي أدت إلى انعطافة مفصلية في تاريخ المنظمة، حيث تضافرت نتائج الخلافات بين الشقيري وفصائل المقاومة المسلحة التي تنامى دورها وتعززت مكانتها، مع الرغبة العربية الرسمية في التخلي عنه، وأديًا معاً إلى دفعه للاستقالة في ٣-١٢-١٩٦٧. وجرى تكليف يحيى حمودة لرئاسة منظمة التحرير بالوكالة، ومن ثم تشكلت لجنة تحضيرية للإعداد لعقد الدورة الرابعة للمجلس الوطني الفلسطيني التي كانت بمثابة بداية مرحلة جديدة في تاريخ المنظمة، انعقدت في القاهرة في تموز ١٩٦٨، على قاعدة التحولات الجذرية التي كانت أقرتها اللجنة التحضيرية، والتي أسفرت عن تقليص عدد أعضاء المجلس الوطني إلى ١٠٠ عضو. وتغيير اسم الميثاق القومي إلى الميثاق الوطني، وتعديل العديد من مواد الميثاق وإضافة مواد جديدة، وإسقاط البند الذي كان يحرم على المنظمة ممارسة أي سيادة إقليمية على الضفة الغربية وقطاع غزة، وتعديل النظام الأساسي للمنظمة (فصل رئاسة المجلس الوطني عن اللجنة التنفيذية، وانتخاب اللجنة التنفيذية مباشرة من المجلس الوطني، وهي التي تنتخب رئيساً لها).

ثم عقدت الدورة الخامسة للمجلس الوطني الفلسطيني، في القاهرة في شباط ١٩٦٩ وحسمت هذه الدورة سيطرة فصائل المقاومة المسلحة على المنظمة، وجرى تشكيل لجنة تنفيذية جديدة، انتخبت ياسر عرفات رئيساً لها، وكان من بين أهم قرارات هذه الدورة التركيز من الناحية السياسية، على التصدي لمشاريع التسوية السلمية ومحاولات إنشاء كيان فلسطيني، والدعوة إلى إيجاد صيغة لتوحيد الكفاح الفلسطيني المسلح.

خلاصة أولية

مع نهاية العام ١٩٦٥، بدأت معالم منظمة التحرير تتضح، وأخذت هيئاتها تتشكل، وقد انتزعت اعتراف الجامعة العربية بها.. وما هي إلا عشر سنوات على تأسيسها حتى كانت الأمم المتحدة تعترف بها عضوا مراقبا، ويدخلها ياسر عرفات ومسدسه على خاصرته، ملوحا بغصن الزيتون، ومهددا ببندقية الثوار..

بقية القصة معروفة، لكن السؤال المطروح: هل أنشأت الدول العربية المنظمة لتزيل عن كاهلها حمل القضية الفلسطينية، وتسلمه لمنظمة فلسطينية، أرادت منها أن تكون تابعة لها، وأن تظل ضعيفة وكسيحة، وأن يظل قرارها مرتهنا بيد الحكومات.. أم أن الزعيم عبد الناصر الذي لولاه لما أُنشئت المنظمة، كان يحلم فعلا بالتحرير، وهو على قناعة، بأن تحرير فلسطين لن يكون إلا على يد الفلسطينيين، ومن أجل ذلك يجب أن يكون لديهم كيان سياسي، ومنظمة تمثلهم، وقيادة وطنية تتحدث باسمهم..

وماذا لو نجحت الأنظمة العربية بالهيمنة على المنظمة؟ كيف سيكون شكلها، وخطها السياسي، ومساراتها، لولا دخول فتح والجبهة الشعبية والديمقراطية، وبقية الفصائل الفدائية؟

والسؤال الأهم: كيف نعيد لمنظمة التحرير ألقها، وروحها الثورية، ونصوّب مساراتها؟ وهذا السؤال مطروح أمام المجلس الحالي.

مؤسسات منظمة التحرير

منظمة التحرير الفلسطينية هي قيادة معبئة لقوى الشعب العربي الفلسطيني لخوض معركة التحرير، ودرع لحقوق شعب فلسطين وأمانيه، وطريقه للنصر. (البند الأول من إعلان المؤتمر العربي الفلسطيني الأول). والمنظمة هي الممثلة لقوى الثورة الفلسطينية، مسؤولة عن حركة الشعب العربي الفلسطيني في نضاله من أجل استرداد وطنه وتحريره والعودة اليه وممارسة حق تقرير مصيره. (الميثاق الوطني المادة ٢٦). وهي تجمع للقوى الفلسطينية في جبهة وطنية من أجل ثورة لتحرير الأرض، ويعتبر الفلسطينيون جميعاً أعضاء طبيعيين في منظمة التحرير الفلسطينية، والشعب الفلسطيني هو القاعدة الكبرى لهذه المنظمة (المادة الرابعة من النظام الأساسي).

هيكلية منظمة التحرير الفلسطينية:

المجلس الوطني الفلسطيني:

يعتبر المجلس الوطني الفلسطيني حسب النظام الأساسي، البرلمان الفلسطيني والسلطة العليا التي

تصنع سياسات المنظمة ومخططاتها وبرامجها. وحسب النظام الأساسي يتم انتخاب أعضاء المجلس الوطني عن طريق الاقتراع المباشر، ونظراً للصعوبات الكثيرة التي تعيق هذه الطريقة، تجري تسمية أعضاء المجلس عن طريق لجنة منتخبة من كل دورة سابقة للمجلس، استناداً إلى مشاورات واسعة بين الفصائل الفلسطينية والاتحادات الشعبية والشخصيات المستقلة.

ويضم المجلس نواباً عن فصائل المقاومة الفلسطينية التالية: حركة فتح، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، فدا، الصاعقة، القيادة العامة، جبهة التحرير العربية، وجبهة التحرير العربية الفلسطينية، جبهة التحرير الفلسطينية، جبهة النضال، حزب الشعب الفلسطيني، المبادرة الوطنية. إضافة إلى ذلك يضم المجلس نواباً عن الاتحادات الفلسطينية الشعبية: (الطلبة، والمرأة، والفلاحين، والعمال، والمحامين، والأطباء، والمهندسين، والمعلمين، والفنانين، والكتاب والصحافيين) كما يضم المجلس نواباً من الشخصيات الوطنية المستقلة، ويضم العسكريين، ونواب المجلس التشريعي.

وقد توالى على رئاسة المجلس كل من أحمد الشقيري (١٩٦٤~١٩٦٧)، عبد المحسن القطان (١٩٦٨)، يحيى حمودة (١٩٦٩)، خالد الفاهوم (١٩٧٤~١٩٨٤)، عبد الحميد السائح (١٩٨٤~١٩٩٦)، سليم الزعنون (١٩٩٦~ حتى الآن).

اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية:

ويعرفها النظام الأساسي للمنظمة، بأنها أعلى سلطة تنفيذية للمنظمة، وتكون دائمة الانعقاد، أعضاؤها متفرغون للعمل، وتتولى تنفيذ السياسات والبرامج والمخططات التي يقررها المجلس الوطني، وتكون مسؤولة أمامه مسؤولية تضامنية وفردية (المادة ١٥). وفصّل النظام الأساسي مهام وصلاحيات اللجنة التنفيذية في المواد (١٥، ١٦، ١٨، ١٩) وهى على وجه العموم تباشر جميع مسؤوليات منظمة التحرير وفق الخطط العامة والقرارات التي يصدرها المجلس الوطني. وطبقاً للمادة (٢٠) من النظام الأساسي فإن ولاية اللجنة التنفيذية تستمر ما دامت متمتعة بثقة المجلس الوطني، وعليها أن تقدم استقالتها للمجلس الوطني الجديد في أول اجتماع يعقده، ويجوز إعادة انتخابها.

أمانة سر اللجنة التنفيذية:

ويتولاها أحد أعضاء اللجنة التنفيذية، وهي تختص بإقرار جدول أعمال اللجنة التنفيذية، وإعداد محاضر الاجتماعات، وقراراتها وترد إليها جميع القضايا التي يجب أن تعرض على اللجنة التنفيذية من داخل أطر منظمة التحرير، أو من أي جهات أخرى، حكومية أو شعبية، عربية أو أجنبية. وقد مارست اللجنة التنفيذية فعلياً عدداً كبيراً من الصلاحيات الأساسية والواسعة، ومنها الأمر بتشكيل

جهاز قضائي، وفرض القوانين الفلسطينية على فصائل المقاومة وعلى جميع قطاعات الشعب الفلسطيني، والتصرف في إعلان الحرب أو عقد الهدنة والاتفاقات السياسية، إضافة إلى فرض الضرائب على المواطنين الفلسطينيين وجبايتها منهم، وتمثيل الشعب الفلسطيني في المحافل الدولية والمنتديات الإقليمية، والتمثيل الدبلوماسي في دول العالم.

المجلس المركزي الفلسطيني:

أصدر المجلس الوطني الفلسطيني قراراً في دورته الحادية عشرة (١٩٧٣)، بتشكيل مجلس مركزي من بين أعضائه، ويكون صلة الوصل بين اللجنة التنفيذية والمجلس الوطني، وخلافاً لما حصل مع قرار تشكيل اللجنة المركزية تقرر في اللائحة الداخلية للمجلس المركزي اعتبارها هيئة دائمة، ويشكل المجلس المركزي من أعضاء اللجنة التنفيذية، ورئيس المجلس الوطني، وعددا من الأعضاء يساوي، على الأقل ضعفي عدد أعضاء اللجنة التنفيذية. وتحدد المادة الثالثة من لائحته مهامه باتخاذ القرارات في القضايا التي تطرحها عليه اللجنة التنفيذية في إطار مقررات المجلس الوطني، وإقرار الخطط التنفيذية المقدمة إليه من اللجنة التنفيذية، ومتابعة اللجنة التنفيذية تنفيذ قرارات المجلس الوطني.

دوائر منظمة التحرير الفلسطينية

كانت المادة ١٨ من النظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية قد أعطت الحق اللجنة التنفيذية بإنشاء خمس دوائر، ولكن المادة نفسها منحت اللجنة التنفيذية حق إنشاء أي دائرة أخرى ترى اللجنة ضرورة إنشائها، ويكون لكل دائرة مدير عام والعدد اللازم من الموظفين، ومن أبرزها:

الدائرة السياسية:

وهي المكلفة بإدارة النشاطات السياسية التي تقوم بها المنظمة على مختلف الصعد، والمسؤولة عن نشاطات المنظمة في هيئة الأمم المتحدة وكافة وكالاتها المتخصصة. وتشرف الدائرة السياسية على مكاتب، وسفارات منظمة التحرير حول العالم، وهي المكلفة برعاية مصالح الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده، والإشراف على علاقات منظمة التحرير بسائر المنظمات الإقليمية، وفق توجيهات اللجنة التنفيذية.

الدائرة العسكرية:

وهي المسؤولة عن القضايا المتعلقة بجيش التحرير الفلسطيني، وإعداد برامج التدريب والتعبئة وتأمين حاجاته، وتقدم الدائرة المشورة لرئيس اللجنة التنفيذية في الأمور العسكرية والمتعلقة بجيش التحرير الفلسطيني.

الصندوق القومي:

وهو مكلف بتسلم الموارد المختلفة، وتمويل منظمة التحرير والدوائر والأجهزة التي تنبثق عنها، وتنمية موارد الصندوق، والإشراف على أعمال الجباية ومراقبة الإنفاق، ويضم رئيس الصندوق القومي إلى عضوية اللجنة التنفيذية بحكم موقعه.

دائرة شؤون الوطن المحتل:

وهي مسؤولة عن دراسة كافة الأوضاع داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وإعداد وتنفيذ الخطط المتعلقة بصمود الشعب ومساندة نضاله، وهي مسؤولة أيضاً عن فضح الممارسات العدوانية للاحتلال وتقديم الأدلة على ذلك، ودعم البلديات والتطور الاقتصادي والتربوي والخدمة العامة.

دائرة التنظيم الشعبي:

وهي المكلفة بالإشراف على نشاط وانتخابات الاتحادات والمنظمات الشعبية والمشاركة في مؤتمراتها العامة، ومن ذلك الاتحاد العام للطلبة، والاتحاد العام للعمال، والاتحاد العام للكتاب والصحافيين، والاتحاد العام للمعلمين، والمجلس الأعلى للشباب والرياضة، والحركة الكشفية الفلسطينية وغيرها. إلى جانب هذه الدوائر هناك أيضا: دائرة التربية والتعليم العالي، ودائرة الشؤون الاجتماعية، ودائرة الإعلام والثقافة، ودائرة شؤون اللاجئين، ودائرة العلاقات القومية، والدائرة الإدارية. بالإضافة لمركز الأبحاث الفلسطيني، الذي تأسس عام ١٩٦٥، ومقره بيروت، وقد أنيطت به مهام جمع الوثائق وتأليف وترجمة الدراسات العلمية الوطنية عن القضية الفلسطينية، وإصدار دورية شؤون فلسطينية. وأيضا شكلت المنظمة جهاز الأمن الموحد، ومكتب الإعلام الموحد، ووكالة الأنباء الفلسطينية - وفا. هذا بالإضافة للعديد من اللجان المتخصصة والفرعية في مجالات شتى.

المصادر

١. أحمد الشقيري، من القمة إلى الهزيمة، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧١.

٢. أحمد الشقيري، على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٢.

٣. أحمد الشقيري، حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٠.

٤. د. محمد إشتية، أوراق، منظمة التحرير الفلسطينية، الصفحة الرسمية للدكتور إشتية، http://mohammadshtayyeh.ps/ar

٥. الصفحة الرسمية للمجلس الوطني الفلسطيني، دوائر منظمة التحرير، https://www.palestinepnc.org

٦. تعريف ونشأة المجلس الوطني، وكالة الأنباء الفلسطينية وفا، http://info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=3758

يهودية الدولة: وسواس قهريّ للدولة العبريّة .. ومحاولات لشطب الوجود الفلسطيني

عزيز العصا *

مقدمة

قامت الحروب الصليبيّة على قاعدة أن فلسطين مهد السيد المسيح وبلده، وحاضنة القبر المقدس. ولم يفتك الصليبيون في القدس بالمسلمين وحدهم، بل قتلوا اليهود أيضًا. مما يعني أنه لم يكن في أفق الفكر الكاثوليكي أي حق للوجود اليهودي في فلسطين، كما أنه لم يكن، من وجهة نظرهم، أي وجود لما يسمى «الشعب اليهودي»، وكانوا ينظرون إلى اللغة العبرية على أنها «هرطقة»، وكانت أوروبا تعمل جاهدة على منع تدريسها وانتشارها. كما أن اليهود أنفسهم، لم تكن فلسطين تعنيهم في شئ، وحتى العبرية لم تعد اللغة المحكيّة لهم؛ فيهود الأندلس لم يكونوا يتحدثون إلا بالعربيّة حتى في منازلهم. مما يدفعنا إلى السؤال الاستراتيجي: لماذا أنشِئت دولة إسرائيل؟ وما هو الدور الوظيفي الذي تقوم به؟ وهل يمكنها أن تكون «دولة يهوديّة»؟ وما مخاطر اعترافنا بهذه الدولة؟

سوف نتناول في هذا المقال، الظروف التي خلقها الغرب الاستعماري من أجل إنشاء دولة «إسرائيل»، وتطور مفهوم «الدولة اليهوديّة» أو «يهوديّة الدولة» منذ العام ١٩٤٨م حتى تاريخه، ومجموعة القوانين واللوائح التي يتبناها اليمين الصهيوني من أجل نقل هذا المفهوم من الإطار النظري إلى الإطار العملي، وتطبيقه على الأرض، ومطالبته القيادة الفلسطينية الاعتراف بذلك وإقراره. كما سيتم مناقشة تداعيات وانعكاسات «يهودية الدولة» على فلسطينيي ١٩٤٨ على وجه الخصوص، وعلى الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده كافة.

* باحث من فلسطين

لماذا أقيمت دولة إسرائيل؟

قبل الغوص في موضوع «يهودية الدولة العبرية»، لا بد من العودة إلى الجذور التي تستمد منها هذه الدولة عصارة الصّلف والتحدي والاستعلاء في تعاملها مع الشعب الفلسطيني بشكل خاص، وجوارها الجغرافي بشكل عام.

إن دولة إسرائيل التي أقيمت على أرض فلسطين في العام ١٩٤٨م، ليست سوى كيان استعماري يشكل رأس الحربة للمشروع الاستعماري الكولونيالي الغربي الهادف إلى إخضاع المنطقة برمّتها؛ بثرواتها وموقعها الاستراتيجي، لخدمة الغرب الساعي إلى السيطرة على العالم.

وأما الجذور التاريخيّة لهذه الدولة فتعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما انطلقت الحركة البيوريتانية- وهي الحركة «التطهّرية»(١)، التي انبثقت عن البروتستانتية في بريطانيا- التي ربط أتباعها بين حركتهم ونهضة «شعب إسرائيل» في أرضه، وأن هذه الرابطة قد جاءت بدافع الرؤيا القائلة إنه فقط بعد عودة «بني إسرائيل» إلى صهيون سيحلّ الخلاص المسيحي على البشرية جمعاء، وعندها سيحظى العالم برؤية عودة يسوع المتجددة(٢). بهذا؛ تكون تلك الحركة (التطهّرية) قد حولت الأفكار والمبادئ الدينية المتعلقة باليهود إلى عقيدة سياسية، وأهمها(٣):

- فكرة وجود «الشعب اليهودي».
- فكرة «عودة الشعب اليهودي» إلى فلسطين.
- فكرة «استيطان الشعب اليهودي» في فلسطين.

كما أن هناك وجهًا آخر للصورة، وهو المتمثل في أن المجتمعات الغربية أصبحت تضيق ذرعاً باليهود؛ فلم تعد تطيق وجودهم بين ظهرانيها، فظهر كتاب ومفكرون يدعون إلى التخلص من اليهود و(الزج) بهم في فلسطين، أو أي مكان آخر، لكي لا تمارس المذابح بحقهم، بين الحين والآخر. ومن بين الأمثلة على تلك الدعوات(٤):

- في العام ١٥٤٤ ألّف مارتن لوثر كتاباً بعنوان «اليهود وأكاذيبهم», يقول فيه أننا على أتم الاستعداد بأن نزود اليهود بكل ما يحتاجونه في رحلتهم إلى أرضهم في يهوذا, لمجرد أن نتخلص منهم؛ فهم عبءٌ ثقيل ومصيبةٌ أحلت بنا(٥).
- في أوائل القرن السابع عشر، طالب القس البريطاني، وعالم اللاهوت، توماس برايتمان بإعادة اليهود إلى أرض آبائهم، ليس من أجل الدين؛ لأن الله يمكن أن يُعبد في أي مكان: ولكن بسبب «صراع اليهود مع الأمم التي يقيمون بين ظهرانيها».

من جانب آخر، وعندما جاء نابليون من مصر لغزو فلسطين في العام ١٧٩٨ كان عازماً أمره على ما أطلق عليه "إعادة مدينة يروشلايم لليهود"، فوجّه نداءً (لليهود)، بعنوان: رسالة إلى الأمة اليهودية من القائد الأعلى الفرنسي بونابرت ومن الحاخام أهارون في يروشلايم، جاء فيها[٦]: «أيها الإسرائيليون، أيتها الأمة الفريدة فرنسا تقدم لكم ورثة آبائكم، استعيدوا ما أخذ منكم بالقوة ودافعوا عنها، بدعم فرنسا ومساعدتها».

بعد نداء نابليون بعامين؛ أي في العام ١٨٠٠ نشر الكاتب البريطاني جميز بيتشينو كتاباً، بعنوان: عودة اليهود حل لكل الأمم»[٧]، دعا فيه إلى تجميع يهود العالم في فلسطين، تحقيقاً للنبوءات التوراتية[٨]، وسعياً إلى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية. وعلق بيتشينو آمالاً واسعة على فرنسا النابليونية لتحقيق هذا المشروع[٩].

كان نتيجة ذلك كله أنه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أصبح جميع الأوروبيين، وخصوصًا الصهيونيين، يفكرون تفكيرًا توراتيًا تاريخيًا، وهم يحاولون تعيين حدود «الأرض المقدسة»، في حين أن السكان المحليين والدولة العثمانية لم يعيروا هذه التعبيرات التوراتية أي اهتمام[١٠].

هكذا، بدأ المستعمرون الفعليون؛ الأوروبيون من مختلف القوميّات والأقطار -بخاصة بريطانيا، يمهدون المكان -فلسطين- ويعدونه لكي يغرسوا لعنتهم في هذه الأرض، فتمكنوا من استغلال ضعف الدولة العثمانيّة، التي كانت فلسطين ضمن أمصارها وأقطارها وسيطرتها، وشهدت حقبة النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٧م حركة دؤوبة على أرض فلسطين لصالح المشروع المذكور، كانت نتيجته انتشار (٣٦) مستعمرة يهودية.

ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، في العام ١٩١٧م، حتى بادرت بريطانيا بإعلان وزير خارجيتها «بلفور» عن وعده لليهود بإقامة وطن قومي لهم على أرض فلسطين، ثم قامت باحتلال فلسطين تحت مبرر الانتداب عليه.

بذلك؛ تكون انطلاقة الشرارة نحو برامج استعمارية للمنطقة، بشكل عام، ولفلسطين بشكل خاص، بغطاء ديني-عاطفي يهدف إلى استقطاب أصحاب رؤوس الأموال والسياسيين ورجال الدين في المجتمع الأوروبي. وبدأت الحالة الديمغرافية في فلسطين تميل لصالح اليهود القادمين من خلف البحار. فقد أشارت معطيات الإحصاءات البريطانية إلى أن مجموع سكان فلسطين قد بلغ في العام ١٩١٩ (٧٠٠) ألف نسمة (منهم ٦٦٥,٠٠٠ عربي، و٣٥,٠٠٠ يهودي) ، ارتفع إلى (٢,١ مليون) نسمة في العام ١٩٤٨ (١,٤٥ مليون عربي و٦٥٠,٠٠٠ يهودي)[١١]. وتدرجت الحالة الديمغرافية على أرض فلسطين، خلال حقبة الاحتلال البريطاني، كما هو في الجدول رقم -١-.

الجدول رقم -١-

التطور الديموغرافي في فلسطين خلال فترة الاحتلال البريطاني (١٩٤٨-١٩١٩)، حسب الإحصاءات البريطانية

تم تصميم الجدول بناء على المعلومات الواردة على الرابط التالي:

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2014/2/11/بريطانيا-وفلسطين-بين-وعدين

السنة والعدد الإجمالي	نسبة المسلمين ٪	نسبة المسيحيين ٪	آخرون ٪	نسبة اليهود ٪
١٩١٩ (٧٠٠ ألف)	٩٥			٥
١٩٢١ (٧٦٢ ألف)	٧٦,٩	١١,٦	٠,٩	١٠,٦
١٩٣١ (١,٠٣٦ مليون)	٥٩,٨	٨,٨	١	١٦,٨
١٩٤٨ (١,٤٥٠ مليون)	٦٩			٣١

وكانت بريطانيا قد عملت خلال الفترة ١٩١٧م-١٩٤٨م على توفير الأجواء والظروف الملائمة لإقامة الدولة التي أعلن عنها بن غوريون فور مغادرة بريطانيا –رسميًا-، وفي أجواء مذابح وطرد وتشريد وتهجير لما يزيد عن مليون فلسطيني خلال الفترة (١٩٤٧م-١٩٤٩م)، واحتلال ٧٨٪ من أرض فلسطين.

يتضح من الجدول أعلاه أن هناك نموًا ديموغرافيًا للعرب في فلسطين؛ إذ بقيت نسبتهم كما هي خلال الفترة (١٩٣١-١٩٤٨)، رغم تضاعف أعداد اليهود. كما أنه، وبحسب هذا الجدول أيضًا، من الجدير ملاحظة أنه إذا بقي في فلسطين المحتلة بعد النكبة (١٥٠) ألفًا من العرب خلف حدود الدولة الوليدة، كما تجمع المصادر، فإن من العبث التحدث عن تهجير (٧٥٠) ألفًا أو (٨٥٠) ألفًا، وإنما العدد الأقرب للمنطق بين (٩٠٠,٠٠٠) والمليون.

بهذا ترسخت فكرة الدولة، لتبدأ بعدها بالإعداد والاستعداد، لتأخذ الدور الوظيفي الذي أنشئت من أجله، والمتمثل بالعربدة في المنطقة وإشعال الحروب والفتن، هنا وهناك، وضمان الإبقاء على دولها وشعوبها في حالة من الفرقة والتشرذم والاقتتال. ونتيجة ذلك كله تبقى المنطقة، برمّتها، قيد التبعيّة المطلقة للغرب الاستعماري.

يهوديّة الدولة: الفكرة والهدف..

تبع الإعلان عن الدولة في منتصف شهر أيار/مايو من العام ١٩٤٨م، محاولات المحو الحضاري والثقافي والعمراني لشعب فلسطين، وإنشاء الهوية الجديدة الوليدة. وأما بن غوريون، من جانبه،

فقد أكمل برنامج المحو هذا، بعرض إسرائيل كدولة لليهود، وطالب جميع يهود العالم بالهجرة إليها، مما أثار غضب زعيم اليهود – الأميركيين في ذلك الحين، يعقوب بلاوشطاين، وهو ملياردير كان يتبرع بسخاء لإسرائيل، فتسلسلت الأحداث كما يلي(١٢):

حضر ثلاثة من زعماء المنظمات اليهودية – الأميركية إلى إسرائيل، في شهر أيار العام ١٩٤٨، والتقوا مع بن غوريون، وأبلغوه بأن «إسرائيل ليست مخولة بالإعلان عن نفسها أنها دولة يهود العالم وتدعوهم للهجرة، لأن هذا الأمر قد يشعل عداء للسامية خفيا وادعاءات حول ولاء مزدوج».

هدد بلاوشطاين بوقف التبرعات لإسرائيل «إذا ما استمر قادتها بالتسبب ليهود أميركا بالاصطدام مع غير اليهود حول مسألة الولاء المزدوج». وأصدر بلاوشطاين بيانا حذر فيه إسرائيل من «المس بمواضيع حساسة لليهود في أماكن أخرى من العالم. ويهود أميركا يرفضون أي تلميح إليهم بأنهم يعيشون في الشتات».

بعد ذلك دعا بن غوريون بلاوشطاين إلى زيارة إسرائيل. وسرعان ما تبين لرئيس الحكومة أنه يجري مفاوضات مع زعيم يهود أميركا». وقد أوضح بلاوشطاين لبن غوريون أن «الولايات المتحدة ليست شتاتا، وهي ليست مكانا علق فيه اليهود. وبالنسبة ليهود أميركا، الولايات المتحدة هي الغاية الأخيرة...".

بدوره أصدر بن غوريون بيانا تراجع من خلاله عن وصف إسرائيل بأنها «دولة اليهود"، وأعلن أن «دولة إسرائيل تمثل مواطنيها فقط، وتتحدث باسمهم، ولا تتطلع بأي شكل من الأشكال إلى أن تمثل أو أن تتحدث باسم اليهود مواطني دول أخرى... وليس لدينا، نحن الإسرائيليين، أية نية للتدخل بأية طريقة كانت في شؤون المجتمعات اليهودية خارج إسرائيل.

منذ ذلك الحين، لم يعد التحدث في هذا الموضع، في العلن على الأقل، حتى العام ٢٠٠٣م وما بعده، إذ مرت بالمراحل التالية(١٣):

تحفظت إسرائيل –بقيادة شارون- على خطة «خريطة الطريق»، التي طرحتها الإدارة الأميركية، مطالبة بأن يُشار صراحة إلى حق إسرائيل في الوجود دولة يهودية، وإلى التخلي عن أي حق للاجئين الفلسطينيين في العودة إلى دولة إسرائيل –كان ذلك في أيار-٢٠٠٣م-.

بعدها تم التأكيد على هذا المطلب في الكلمة التي ألقاها أرييل شارون في مؤتمر العقبة (٢٠٠٣/٦/٤)، الذي جمع وقتها الرئيس الأميركي جورج بوش ورئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون ورئيس الحكومة الفلسطينية محمود عباس. وفي حينه أيد جورج بوش هذا المطلب بكلمته التي تحدث فيها عن «التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل دولة يهودية نابضة بالحياة والنشاط".

وقد بلغ التجاذب أشده بين إسرائيل والفلسطينيين بشأن هذا الموضوع في مؤتمر أنابوليس (٢٠٠٧/١١/٢٧)، الذي نظمته الولايات المتحدة الأميركية في أواخر عهد بوش، حيث طرح هذا المطلب في كلمات كل من رئيس الحكومة الإسرائيلية (وقتها) إيهود أولمرت، ووزيرة خارجيته تسيبي ليفني.

في العام ٢٠٠٩م، تحول نتنياهو نحو طلب الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية منذ الخطاب الذي ألقاه في بار إيلان في ذلك العام، أي بعد أن نفذ الفلسطينيون، في ظل قيادة أبو مازن، الشروط التي حددتها خطة «خريطة الطريق».

بعد ذلك، تكررت الفكرة عدة مرات متحوّلة من تعريف وفهم ذاتي للصهيونية ومهماتها إلى مفهوم متداول على الساحة الدولية، عندما كرر الرئيس الأميركي أوباما هذا التعريف لإسرائيل عدة مرات في خطاباته(١٤).

في الثلاثين من نيسان من العام ٢٠١٨م، أقر الكنيست الإسرائيلي، بالقراءة الأولى، بأكثرية ٦٤ صوتا ضد ٥٠، مشروع قانون القومية، الذي يعتبر إسرائيل «الدولة القومية للشعب اليهودي»، وذلك تشبها بالدول القومية الأخرى، التي نشأت خلال المئتي سنة الأخيرة، وخصوصا في أوروبا؛ وذلك على اعتبار أن القبائل والطوائف اليهودية، التي تمكنت الصهيونية من تجميعها في إسرائيل، تعتبر «قومية» يهودية بحد ذاتها.

بالتواصل الهاتفي مع المؤرخ الفلسطيني «صبري جريس»، وجدت أنه يرى في هذا «القانون!» المقترح قمة الإجراءات العنصرية الصهيونية»، ويبين وجهة نظره القانونيّة في هذا القانون، كما يأتي(١٥):

خلال السنوات الأخيرة، تحت حكم اليمين العنصري، اقر الكنيست، أو قام بتعديل أكثر من قانون يستهدف «فلسطيني ٤٨»، الذين يعتبرون مواطنين في إسرائيل، تزيد نسبتهم عن خُمس سكانها، ويميّز ضدهم ويحاول تقييد خطاهم والمس بحقوقهم بصورة «رسمية» في أكثر من مجال. وقانون القومية هذا هو قمة تلك القوانين، من حيث فجاجته وقبحه وخطورته، من خلال التحليل التالي:

يسقط القانون، كلمة «ديمقراطية» عند وصفه إسرائيل ولا يتطرق إليها. ويحاول المس، بصورة صبيانية، بمكانة اللغة العربية، التي تعتبر حتى الآن لغة رسمية في إسرائيل. كما انه يحظر إنشاء أي تجمع عمراني جديد، مثل إقامة مدن أو قرى جديدة، أو «مستوطنات» حسب التعبير الصهيوني المفضّل لغير اليهود.

وفي ضوء هذا القانون يرى «جريس» أنه على الفلسطينيين في أي تفاوض لهم مع إسرائيل إضافة

شرط ومطلب جديدين من إسرائيل، وهما: الاعتراف بفلسطينيي ٤٨ كأقلية قومية والإقرار بحقوقهم القومية والمدنية المترتبة على ذلك.

يهوديّة الدولة: وجدليّة المصطلح لدى اليهود أنفسهم

إن قراءة متأنّية لما جرى من نقاش بين يهود إسرائيل ويهود أميركا في العام ١٩٤٨م تؤكد، بما لا يدع مجالًا للشك، بأن هذا المفهوم يفتقر إلى الإجماع بين اليهود أنفسهم، إذ أنه استنهض المصطلحات الأكثر جدلًا المتعلقة بتعريف "اليهودي" وتعريف الوطن عند اليهود. وفي هذا الجانب يقول "أ. ب. يهوشواع"([١٦]): إن مصطلح وطن عند اليهود إشكالي، وأنهم لا يفهمون ماذا يعني وطن؛ لأنه عندهم «افتراضي».

من جانبٍ آخر، يتضح من القراءات المعمقة للمفاهيم التي تقوم عليها "إسرائيل" أن هناك ارتباكًا واضحًا في العديد من المفاهيم المتعلقة بهذا الكيان القائم على العدوانية على الآخرين، والذي يسعى إلى جمع مجموعة التناقضات الفكرية، ذات الصلة بالأسس التي تقوم عليها دولتهم. ففي حين أن "أ. ب. يهوشواع" قال في العام (٢٠٠٦): "لا تكتمل اليهودية إلا بوجود اليهودي في إسرائيل"، نجد أن المفكر "إيلان غور" يقول: "اليهودية لا تكتمل إلا في المنفى"([١٧]).

ويقول الصحافي اليهودي-الاسرائيلي «جدعون ليفي» حول «يهودية الدولة»([١٨]):

إن إسرائيل مصابة بما أسماه «وسواس اسمه الدولة اليهودية»، إذ لا أحد يعلم ما هي بالضبط الدولة اليهوديّة، وكيف تبدو، وكيف يجب أن تتصرف. وفي الوقت نفسه يطالب رئيس الوزراء الفلسطينيين الاعتراف بالدولة اليهودية، ويقترح وزير الخارجية تبادل سكان من أجل الهدف نفسه، وتشهد وزيرة القضاء والتفاوض بأن الذي يحركها هو الحفاظ على «الطابع اليهودي»، وتستمد محاربة عشرات آلاف طالبي اللجوء الأفارقة المهينة من الباعث «الوسواسي» نفسه. وينهي مؤكدًا على الوسواس القهري لصانعي القرار في دولته بالقول: إن «إسرائيل» تضعضع يهوديتها بالاحتلال، لكن أولئك الذين يصرخون طالبين دولة يهودية هم الذين يصرخون مؤيدين استمراره أيضًا، ويتساءل ليفي: هل توجد طريقة لتفسير هذا السلوك سوى أن «دولة الاحتلال» مصابة بوسواس قهريّ مصحوب بمشاعر خوف وشعور بالذنب.

هل نعترف بيهودية الدولة؟

يشدد «**ستيوارت آيزنستات**»؛ **وهو رئيس مشارك لمجلس إدارة «معهد سياسة الشعب اليهودي»** على ضرورة الاعتراف الفلسطيني بيهودية الدولة وليس الاعتراف العربي، لأن الفلسطينيين

والإسرائيليين يتنازعون على نفس قطعة الأرض، ويستشهد على ذلك بأن معاهدات السلام بين إسرائيل وكل من الأردن ومصر هي اتفاقيات موقعة بين دول- ولم تُشر إلى قبول إسرائيل كدولة يهودية(١٩).

يتضح من قول «**آيزنستات**» هذا، ومن خلال الهجوم الكاسح الذي يتعرض له هذا المصطلح من قبل المفكرين اليهود، ومن مختلف الأجيال، أنه تم إحياؤه لتوظيفه سياسيًا؛ من أجل إخلاء الدولة العبرية من أي وجود فلسطيني، ما يعني إلغاء حق العودة ومنع أي إمكانية للتفكير فيه، وحرمان الفلسطينيين في حدود تلك الدولة -فلسطينيو ٤٨- من أي حقوق خاصة بالمواطنة -وهذا ما سيتم مناقشته في البنود التالية من هذا المقال-.

لذلك، ومنذ اللحظة الأولى التي أعيد فيها طرح فكرة الدولة اليهوديّة أعلن الفلسطينيون -على المستويات كافة- رفضهم المطلق لهذه التسمية، وانبرى الباحثون والمحللون الفلسطينيون، بالتصدي لها بالقراءة والتحليل والتحذير، وتبيان مخاطر تنفيذها على الأرض. فهناك من يرى أن الهدف العملي لتحول «يهوديّة الدولة» من تعريف ذاتي إلى مفهوم في العلاقات الدولية، وفي ما يسمى بـ «عملية السلام»، هو إقصاء حق العودة للاجئين الفلسطينيين تماما، وإسقاطه قبل مناقشته، كما يعني قبول يهودية الدولة إقصاءاً دولياً وعربياً لمبدأ «الدولة لجميع مواطنيها»، الذي تحدى مسألة يهودية الدولة داخليا ووضعها في حالة تناقض وصراع مع فكرة المساواة والديمقراطية(٢٠).

في ظل هذا التناقض في فهمهم لحقيقة هويتهم ووجودهم هم أنفسهم، وفي ظل فهمنا لحقيقة الصراع القائم على أن وطننا مغتصب من قبل هؤلاء، يتوجه اليمين الإسرائيلي إلينا بـ "إملاء" إرادته؛ بضرورة اعترافنا بـ "يهودية الدولة". فقد أشارت وثيقة صادرة عن معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي التابع للوكالة اليهودية(٢١)، إلى أن الحيّز الجيو-سياسي المرتبط بإسرائيل سيظل مفتقرًا إلى الاستقرار وحافلًا بالنزاعات؛ إذ أنه من المتوقع أن تستمر جهود تغيير طابع إسرائيل، سواء من داخلها (عرب إسرائيل) أو من خارجها (حملة نزع الشرعية عنها)، الأمر الذي يتطلب إتباع السياسة التالية(٢٢):

- الإصرار على تضمين أي اتفاق مستقبلي بندًا يعبر عن اعتراف فلسطيني بحق الشعب اليهودي في وطن قومي.
- من الأفضل الحصول على اعتراف عربي شامل بكون إسرائيل دولة يهودية.

لا شك في أن في هذا سلوك وسواسيّ قهريّ مرضيّ بكل المعايير، كما يصفه جدعون ليفي أعلاه. وهنا؛ نتوقف أمام السؤال التالي: هل نعترف بيهودية الدولة؟ هذا هو السؤال الاستراتيجي، الذي يجب

علينا التوقف عنده، معمقاً، لكي نتعرف على نتائج هكذا اعتراف، الذي يطالبنا به نتنياهو منذ العام ٢٠٠٩؛ باعتباره شرطاً أساسياً لنهاية الصراع، والذي يُنتظر تبنّيه أيضا من الإدارة الأميركية – بقيادة ترامب- التي تحدت كل القوانين والأعراف بالاعتراف بالقدس المحتلّة عاصمة لإسرائيل الدولة المحتلّة.

هذا الاعتراف الذي تكمن خلفه كارثة وطنية (تضاف) إلى الكوارث التي حلت بنا من القرن التاسع عشر. ويمكن تفنيد هذا الشعار من خلال المآخذ التالية(٢٣):

أولاً: بحسب وزيرة الخارجية السابقة ليفني التي طرحت «حل الدولتين للشعبين» وليس «حل الدولتين"، بحيث تكون «إسرائيل « الدولة القومية للشعب اليهودي، وفلسطين الدولة القومية للشعب الفلسطيني». وأضافت أن فلسطين هي أيضا الدولة القومية لعرب-٤٨. وفي ذلك إعادة تهجير لفلسطينيي-١٩٤٨.

ثانياً: بحسب الدراسة التي وضعها د. طال بيكر/ عضو الوفد الإسرائيلي إلى عملية أنابوليس في العام ٢٠١٢، بعنوان «مطلب الاعتراف بدولة إسرائيل كدولة يهودية – إعادة تقييم»، أن الاعتراف الفلسطيني بـ «الدولة اليهودية»، يلحق بالفلسطينيين، في جميع مواقع تواجدهم، أضراراً بالغة ومتعددة الأوجه، منها:

- نسف الرواية التاريخية الفلسطينية للصراع.
- استباق المفاوضات حول قضية اللاجئين الفلسطينيين، بما يُلزم برفض أي حل لقضية اللاجئين الفلسطينيين التي من شأنها أن تهدد الصبغة اليهودية لإسرائيل !
- يأتي هذا الطلب بـ «الاعتراف الصريح من قبل الفلسطينيين بحق تقرير المصير لليهود»، في الوقت الذي لا تعترف إسرائيل بحق تقرير المصير للفلسطينيين الذين شُرِّدوا من ديارهم بغير وجه حق.

ثالثاً: هناك مشاريع قوانين إسرائيلية تتمحور حول «يهودية الدولة» تلغي صبغة «الديموقراطية!» التي تدعيها إسرائيل، والتي سيكون لها، في حال إقرارها وتطبيقها، نتائج كارثية على الفلسطينيين في حدود تلك الدولة، تتلخص فيما يلي:

- رفض الاعتراف بأن هذه البلاد هي وطن الفلسطينيين.
- رفض أن تكون اللغة العربية لغة رسمية. علماً بأن اللغة العربية هي جزء عضوي من هويتهم الثقافية والوطنية.

- لن تكون «إسرائيل « دولة لجميع مواطنيها؛ فترى المنظمات الحقوقية أن هناك تمييزاً ضد الأقلية العربية في إسرائيل(٢٤)، وفي حال سن تلك القوانين فإنه سيغلق الباب أمام مطلب تحقيق المساواة.
- مصطلح الدولة اليهودية لا يتعامل مع اليهودية كدين، وإنما مع الدولة القومية والثقافة اليهودية، وتشكل موطنا لليهود في العالم كله. مما يعني التوجه نحو تجميع أعداد أخرى من اليهود من كافة بقاع الأرض على حساب الحقوق المشروعة لأصحاب الأرض الشرعيين.

وإذا ما استجاب فلسطينيو-٤٨ لهذا الشعار، فإن نتائج كارثية سوف تحل عليهم، منها(٢٥):

- يجردهم من الكثير من الحقوق المدنية في دولة احتلال قامت على وطنهم.
- سيتركون منعزلين؛ بلا سند حقيقي.
- قد يسري اليأس إلى نفوس جزء منهم.
- سيعمق الانفصال جغرافياً وسياسياً ونضالياً، وإذا استمر قد يخلق شرخاً جغرافياً وبشرياً مع جزء مهم من الشعب الفلسطيني وفي هويته الوطنية.

من جانبٍ آخر؛ وجد جبارين (٢٠١١)(٢٦) في استعراضه لـ "مشروع قانون الأساس»؛ وهو مشروع القانون الذي كان قد طرحه على الكنيست الثامن عشر النائب (السابق) آفي ديختر، بالاستناد إلى صيغة بلورها «معهد الإستراتيجيات الصهيونيّة"، أن لمشروع القانون هذا عدة نتائج، منها:

- يرمي إلى تغيير إسرائيل كدولة "يهوديّة ديمقراطيّة"، إلى أنّ "دولة إسرائيل هي الوطن القوميّ للشعب اليهوديّ، وفيها يجسّد طموحاته بتقرير المصير"، وأنّ الحقّ "في تحقيق تقرير المصير القوميّ في دولة إسرائيل هو حقّ حصريّ للشعب اليهوديّ".
- ينتهك هذا التعريف الدستوريّ الانتماء المدنيّ والقومي للمواطنين الفلسطينيّين انتهاكًا قاتلاً، حيث يتحوّلون إلى مواطني دولة تصرّح في قاعدتها الدستوريّة الأساسيّة أنّها ليست موطنهم القوميّ، بل وتحوّلهم إلى غرباء في وطنهم.
- يكرس هذا التعريف المكانة القانونية المتدنية للمواطنين الفلسطينيين، وبالتالي ينتج تبعيةً رسمية تقوّض مكانة المواطنين الفلسطينيّين وتنتقص من شرعية حقوقهم اليومية والقومية.

من جانبٍ آخر؛ فإن من بين نتائج الاعتراف بالدولة اليهودية(٢٧):

- تجاهل البعد الاستعماري؛ إذ أن النقاشات التي تخوض في «معنى يهودية الدولة» تتجاهل، عن قصد، السياق الكولونيالي والتاريخي لنشوء الدولة الإسرائيلية والظلم التاريخي الذي لحق بالسكان الأصليين للبلد، جرّاء إخراج فكرة إنشاء وطن قومي يهودي في أرض مأهولة بالسكان.
- تحويل الصراع إلى صراع ديني؛ لأن الاعتراف بيهودية الدولة يعني الاعتراف الضمني بمركزية البعد الديني، بسبب تطابق الديني بالقومي في هذه الدولة. وما يعنيه ذلك من اعتراف بالقصص التوراتية التي تجعلها "أرض إسرائيل "، وإنكار قصصه القاضية بأن للمسلمين والمسيحيين حقوق دينية على أرض فلسطين.
- الاعتراف بالرواية اليهودية الصهيونية؛ أي أن يعترف الفلسطيني بأن نكبته هي نتاج استرداد حق تاريخي لحق امتلكه على غير وجه حق، واعتبار وجوده حدثًا عارضًا تم تصحيحه في عمل عادل؛ هي نكبته!

هكذا؛ يكون الهدف الأبرز لمطلب الاعتراف بـ «دولة قومية للشعب اليهودي» هو إلغاء حق العودة وإقصاء فلسطينيي-٤٨ عن الحيّز السياسي[٢٨]، كما أنه يتغلغل إلى المجالات التي تلامس جذور المكانة القانونيّة للفلسطينيين: الهجرة، والمواطنة، والأراضي، والثقافة، والدين، وغير ذلك. مما يؤدي إلى نهش وتفتيت في مكانة المواطنين الفلسطينيّين[٢٩].

... ويبقى ثبات المعنى في الوطنية الفلسطينية

لم تكن فلسطين، عبر التاريخ، إلا كياناً من وطن وشعب وثقافة، وأن قوامها هو أرض كنعان والشعب الكنعاني والثقافة الكنعانية منذ خمسة آلاف عام. تلك الهجرات السامية التي أنشأت ذلك الشعب الدؤوب المبدع؛ الذي كان موئلاً للحضارة[٣٠].

لذلك؛ فإنه، ورغم ما جرى لهذا الشعب من ويلات وتشريد وتهجير ومحاولات «محو»، إلا أن الوطنية الفلسطينية ما زالت تملك حيوية، وأن ما يجري على جانبي الخط الأخضر من شأنه أن يعمقها، وأن يوضح مدى التشابه في المعاناة الفلسطينية في الضفة والقطاع وفي الجليل والنقب، مما يؤدي إلى تنامي الوعي بترابط النضال الوطني الفلسطيني بين أراضي-٤٨ وأراضي-٦٧.

ولا يمكن إغفال أن هناك تصاعداً في وتيرة الحراك السياسي في مختلف مناطق الشتات الفلسطيني، تحافظ على حيوية هذه الوطنية القادرة على النهوض مرة أخرى. وأما الواقع السياسي لفلسطينيي-٤٨ فتتزايد أهميته بسبب مواجهة شعار يهودية الدولة، وبسبب ما تتعرض له "الأقلية الفلسطينية" من تمييز عنصري وقيود عنصرية ومصادرة للأملاك[٣١].

كما يأتي هذا الفعل الفلسطيني في مواجهة تحرك (شعبي) يهودي، مدعوم من السلطة الرسمية في إسرائيل يهدف إلى إثارة أجواء من الرعب في أوساط فلسطينيي-٤٨. فهناك عصابة يهودية يُطلق عليها «عصابة دفع الثمن" تقوم بممارسات إرهابية بحق رجال الدين والأماكن الإسلامية والمسيحية في المناطق التي تستطيع الوصول إليها؛ في حدود فلسطين المحتلة-٤٨ أو في غيرها. وقد طالت تلك الممارسات المسجد الأقصى وعشرات المقدسات الإسلامية والمسيحية في الضفة الغربية والقدس المحتلة(٣٢).

يتضح مما سبق أنه، ومهما كانت قوة «إسرائيل» مفرطة، وبندقيتها عمياء وضالة للطريق، إلا أن هناك شيئًا راسخًا هو «الوطنية الفلسطينية» التي أثبتت وجودها وحضورها، رغم المحن، ورغم هول المعركة غير المتكافئة. وهذا هو المؤشر الواضح على ثبات المعنى ورسوخه في نفوس الأجيال الفلسطينية المتعاقبة.، والذي تتضح ملامحه من خلال ردود فلسطينيي-٤٨ على تحولات المبنى الذي ابتليت به فلسطين وشعبها. هذه الوطنيّة التي لن تقبل بيهوديّة الدولة، ولن تتنازل عن حقوقها التي تكفلها القوانين واللوائح والشرعيّة الدولية، مهما طال الزمن.

فلسطين، بيت لحم، العبيدية، ٢٠١٨/٠٥/٠٢

الهوامش

١) تلاشت هذه الحركة في نهاية القرن السابع عشر، إلا أنها كانت قد انتشرت خارج بريطانيا، كما أن نشاطها الطويل كان نواة للاهتمام البريطاني بالمسألة اليهودية (الحوت، بيان (١٩٩١). فلسطين (القضية-الشعب-الحضارة): التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين. دار الاستقلال للدراسات والنشر. بيروت، لبنان. ط١. ص: ٢٨٧).

٢) ساند، شلومو (٢٠١٣). اختراع "أرض إسرائيل ". المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. رام الله، فلسطين. ط١. ص: ١٢-١٣.

٣) الحوت (١٩٩١). مرجع سابق. ص: ٢٨٥-٢٨٦.

٤) حمدان، عبد المجيد (٢٠٠٧). إطلالة -١- على القضية الفلسطينية. المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية. رام الله، فلسطين. ص: ٢٣.

٥) كان نفس الكاتب قد كتب قبل ذلك بعشرين عاماً كتاباً، بعنوان «المسيح ولد يهودياً»، يقول فيه: لقد كانت مشيئته أن يكون إنعامه على العالم بالدين من خلال اليهود وحدهم دون سائر البشر (انظر: حمدان (٢٠٠٧)، ص: ١٧).

٦) انظر الموقع الالكتروني «إسرائيل بالعربية»: (٢٠١٤/٧/٢٤)

http://www.israelinarabic.com/نابليون-بونابرت-اليهود-ورثة-فلسطين/

٧) شلايل، عمر (٢٠١٣). فلسطين في صراع الشرق الأوسط. دار الجندي للنشر والتوزيع. القدس. فلسطين. ط١. ص: ٩٠.

٨) لقد لقيت آراء بتشينو صدى واسعاً في بريطانيا، وأعيدت طباعة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧. (انظر:

محافظة، علي (٢٠٠٩): المستعمرات الألمانية في فلسْطين. الموقع الالكتروني لـ «مجلة مجمع اللغة العربية الأردني». الجامعة الأردنية. انظر الرابط (تم الوصول إليه في ٢٠١٤/٨/٢٦):

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009748-/00-36-09-10-02-mag93-10-.html.

٩) محافظة (٢٠٠٩). مرجع سابق.

١٠) الدجاني، يعقوب، والدجاني، لينا (٢٠٠١). فلسطين واليهود: جريمة الصهيونية والعالم. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. عمان-الأردن. ط١. ص: ١٣.

١١) السهلي، نبيل (٢٠١٤). بريطانيا وفلسطين.. بين وعديْن. الجزيرة.نت. انظر الرابط (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٧/١١/٢١): http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2014/2/11/بريطانيا-وفلسطين-بين-وعدين

١٢) مدار – المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- (٢٠١٣). الأهداف الكامنة وراء مطلب الاعتراف بإسرائيل «دولة قومية للشعب اليهودي". تقارير خاصة. منشور بتاريخ: ٢٠١٣/١١/٢١م على موقع المركز، وفق الرابط التالي الذي أمكن الوصول إليه في ٢٠١٨/٠٥/٠٢م:

https://www.madarcenter.org/تقارير/تقارير-خاصة/136-الأهداف-الكامنة-وراء-مطلب-الاعتراف-بإسرائيل-دولة-قومية-للشعب-اليهودي

١٣) الكيالي، ماجد (٢٠١٤). عن معنى إسرائيل دولة قومية لليهود. الجزيرة.نت، انظر الرابط (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٨/٠٥/٠١):

http://www.aljazeera.net/home/print/6c87b8ad-70ec-47d5-b7c43-aa56fb899e2-9371-16851917/4f00-b703203-e31e1a0c9

١٤) بشارة، عزمي (٢٠١١). دولة يهودية وديمقراطية. المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات. ص: ١.

للمزيد، أنظر الرابط (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٨/٠٥/٠١):
https://www.dohainstitute.org/ar/lists/ACRPS-PDFDocumentLibrary/document_E79479C7.pdf

١٥) نشر «صبري جريس» رأيه على موقعه على صفحات التواصل الاجتماعي، كما تم إجراء مقابلة هاتفية معه من قبل الباحث، ظهر ٢٠١٨/٠٥/٠١.

١٦) يهوشواع، أبراهام (٢٠١٤). لدى اليهود استخفاف عام بأوطان الآخرين. مقابلة، أجراها: أنطوان شلحت وبلال ضاهر. مجلة دراسات إسرائيلية، العدد (٥٤). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. ص ص: ١١٢-١٢١.

١٧) غور-زئيف، إيلان (٢٠٠٦). جدلية الوطن والمنفى. إعداد: سلمان ناطور. ترجمة: وليد أبو بكر وآخرون. المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله، فلسطين. ص: ٧.

١٨) ليفي، جدعون (٢٠١٤). وسواس إسمه دولة يهوديّة. مقال منشور في صحيفة القدس المقدسية، بتاريخ: ٢٠١٤/٠١/٢٠م، ص: ١٦.

١٩) في ٢٠١٤/١٠/٣١، خاطب ستيوارت آيزنستات؛ ، وكان قد تقلد مناصب رفيعة في البيت الأبيض ووزارات الخزانة والخارجية والتجارة الأميركية. نقلًا عن:
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/jewish-and-democratic-implications-of-israels-self-description-at-home-and

٢٠) بشارة (٢٠١١). مرجع سابق. ص: ١.

٢١) وقف على رأس هذا المعهد في فترة معينة الدبلوماسي الأميركي «دينيس روس»، الذي كان الرجل الأول لعملية السلام في الشرق الأوسط أثناء ولاية إدارة كل من جورج بوش الأب وكلينتون، حيث كان يعمل عن كثب مع وزراء الخارجية جيمس بيكر ووارن كريستوفر ومادلين أولبرايت. وقد قام بدور الوسيط في مساعدة الفلسطينيين والإسرائيليين للوصول إلى الاتفاق المؤقت عام ١٩٩٥؛ كما توسط بنجاح في اتفاقية الخليل عام ١٩٩٧ وقام بتسهيل معاهدة السلام الأردنية-الإسرائيلية (نقلًا عن: http://www.washingtoninstitute.org/ar/experts/view/ross-dennis (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٨/٠٥/٠٢م)

٢٢) شلحت، أنطوان (٢٠١١). "تكريس إسرائيل كـ "دولة يهودية". في معنى الدولة اليهودية (إعداد وتحرير: هنيدة غانم وأنطوان شلحت)، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ط١. ص: ١٣٧-١٦٢.

٢٣) مدار (المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية) (٢٠١٣). المشهد الإسرائيلي، بتاريخ: ٢٠١٣/١٢/٠٣. العدد ٣٢١، السنة الحادية عشرة. ص: ٧.

٢٤) استخدم هذه التسمية «أبراهام ب. يهوشع» في مقابلة أجراها معه أنطوان شلحت وبلال ضاهر، مجلة قضايا اسرائيلية، عدد ٥٤، ص ص: ١١٢-١٢١.

٢٥) القلقيلي، عبد الفتاح، أبو غوش، أحمد (٢٠١٢). الهوية الوطنية الفلسطينية: خصوصية التشكل والإطار الناظم. إصدار: مركز بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين.

٢٦) جبارين، يوسف (٢٠١١). مشروع قانون أساس: إسرائيل- الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ. انظر (أمكن الوصول إليه بتاريخ ٢٠١٥/١/٢٥م): http://www.madarcenter.org/pub-details.php?id=552

٢٧) غانم، هنيدة (أ) (٢٠١١). "مقدمة في معنى "دولة يهودية". في معنى الدولة اليهودية (إعداد وتحرير: هنيدة

غانم وأنطوان شلحت)، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ط١. ص: ١١-٣٢.
٢٨) المشهد الإسرائيلي في مدار (٢٠١٣). مرجع سابق.
٢٩) جبارين، يوسف (٢٠١١). مشروع قانون أساس: إسرائيل- الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ. انظر:
http://www.madarcenter.org/pub-details.php?id=552
(أمكن الوصول إليه بتاريخ ٢٠١٥/١/٢٥م)
٣٠) غارودي، روجيه (١٩٩١). فلسطين –أرض الرسالات السماوية-. ترجمة: قصي أتاسي وميشال واكيم. دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر. دمشق، سوريا. ص: ٢٧.
٣١) هلال، جميل (٢٠١١). الحركة السياسية الفلسطينية: ''فتح'' و''حماس'' اليسار: الواقع والتحديات. مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد ٢٢، عدد ٨٧، ص ص: ٣١-٣٥.
٣٢) 077c-4b24-ba6f-c0e861dbdc0f-http://www.aljazeera.net/news/pages/a498d4a9

٧٠ سنة على إسرائيل..!

** إنجازات هائلة حققتها الدولة العبرية خلال ٧٠ سنة من قيامها. وهذه حقيقة. لكن الحقيقة الأكبر، هي انها أضاعت عليها عددا هائلا من الفرص لتكون دولة طبيعية مقبولة في الجو الإقليمي، تعيش بسلام مع جيرانها. بل إنها، وهي التي تدعي تمثيل اليهود الذين كانوا ضحية للتمييز والعنصرية والملاحقة في أوروبا وغيرها، اختارت أن تتقمص دول الجناة والظالمين. وتمارس سياسة التنكيل والاحتلال والبطش بحق الشعب الفلسطيني. وبغض النظر عما تفعله بنا كضحية لها، إنها لا تترك وسيلة إلا وتستخدمها لتورث للأجيال القادمة من اليهود صراعا أبديا وعيشا طويلا على الحراب وتبدد لهم آمال السلام والأمان وتجعل من «أرض السمن والعسل» ساحة حرب وقتال دام يهدد كل تلك الإنجازات.

نظير مجلي *

٧٠ سنة على إسرائيل...!

١٢٠ سنة على تأسيس الحركة الصهيونية

١٠٠ سنة على وعد بلفور

٥٠ سنة على الاحتلال

ليس فقط مرور ٧٠ سنة هي مناسبة احتفالية في إسرائيل، بل إن قيادتها تحتفل بمناسبات عديدة أخرى على النمط نفسه: ففي سنة ٢٠١٨ يصبح عمر الحركة الصهيونية ١٢٠ عاما، ويصبح وعد بلفور في عمر مئة سنة ويصبح عمر احتلالها بقية الأرض الفلسطينية (الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة)، الذي يعتبرونه «تحريرا لأرض إسرائيل» ٥٠ سنة. لكن هذه الاحتفالات مشوبة

* باحث في الشأن الإسرائيلي - فلسطين

بالكثير من القلق، خصوصا لدى العقلاء. والكثيرون منهم يطرحون علامات سؤال وعلامات تعجب، إن كانت ستصمد في سياستها الحالية ٧٠ سنة أخرى او حتى ١٧ سنة. فهي إلى جانب كمية هائلة من النجاحات، في مختلف المجالات، تواجه أخطارا وتضع نفسها في مسلسل من الأخطار الجديدة، التي تثير الانزعاج. ومن يريد ان يدرس التجربة الإسرائيلية ينبغي ان يعترف بالنجاحات ويشير الى الإخفاقات ولا يتردد في الحديث عن الأخطار المستقبلية، خصوصا في هذه الحقبة من الزمن، التي نشأت فيها فرصة تاريخية أمام إسرائيل لتصبح دولة مقبولة في المنطقة وهي تضيع هذه الفرصة بشكل صريح من الصعب فهمه.

من الواضح، أن كثيرين يقيّمون هذه التجربة بعيدا عن الموضوعية. فهناك من يروا إسرائيل بعد ٧٠ عاما عجيبة من عجائب الدنيا، حققت أكبر الإنجازات في تاريخها في كل مجالات الحياة ولذلك يطيب العيش فيها والاعتزاز بها وهؤلاء كثيرون، ولكنهم مخطئون. فهم يأخذون جانبا واحدا من المسألة ويتجاهلون أمورا كثيرة أخرى لا يجوز تجاهلها، بل إن تجاهلها يلحق أضرارا استراتيجية بعيدة المدى. وهناك فلسطينيون وعرب وأناس آخرون وبينهم إسرائيليون يرون إسرائيل تجربة فاشلة ويبشرون بقرب نهايتها أيضا. وهم أيضا مخطئون. والحقيقة ان إسرائيل بعد ٧٠ عاما، تستحق دراسة موضوعية معمقة تكشف مغازي هذه التجربة بشكل علمي، خصوصا في وللساحة الفلسطينية. فالشعب الفلسطيني يطمح إلى إحقاق حقوقه المشروعة وإقامة دولته المستقلة. وهذا الطموح متعلق كثيرا بالتجربة الإسرائيلية. أولا لأن غالبية الفلسطينيين في المنطقة يعيشون في احتكاك دائم مع التجربة الإسرائيلية، ففلسطينيو ٤٨ يعيشون التجربة بشكل عضوي وباتوا جزءا لا يتجزأ منها، وفلسطينيو ٦٧ يعيشون الجانب الأقسى منها بسبب الاحتلال وما يجلبه من قمع وتنكيل من جهة وما يجلبه من احتكاك يومي، بحلوه ومرّه، من جهة ثانية. وفلسطينيو الشتات، الذين يعيشون نتاج التجربة الإسرائيلية، بما تحتويه من عناء وتحديات وشغف العودة. وعموما، تشكل إسرائيل العقبة ويمكن ان تشكل المفتاح لتحقيق هذا الطموح.

كيف يرون هذا التاريخ

إن سألت الإسرائيليين عن هذه التجربة، فسيستعرضون التاريخ السياسي والعسكري بشكل أساس. يتحدثون عن «الانتصار على الجيوش العربية» في سنة ١٩٤٨، وعن «الانتصار على مصر في سنة ١٩٥٦، وعلى كل الجيوش العربية في ١٩٦٧ واحتلال سيناء والجولان والضفة الغربية، وعن تحول حرب أكتوبر ١٩٧٣ من هزيمة نكراء الى انتصار آخر، علما بأن الولايات المتحدة تدخلت يومها

بطائرات وطيارين جاؤوا الى أرض المعركة مباشرة للمحاربة مع الإسرائيليين. وسيتحدثون عن اتفاقيتي السلام مع مصر والأردن (ويتجاهلون اتفاقيات أوسلو التي يعتبرها معظمهم «نكراء شعواء»). وسيتحدثون عن نشاط «الموساد» (المخابرات الخارجية) في أعماق العديد من الدول العربية والإسلامية ونجاحه في خطف أدولف آيخمان، أحد المدبرين للمخطط النازي للقضاء على اليهود إبان الحرب العالمية الثانية، وتقديمه للمحاكمة بموجب القانون الاسرائيلي والحُكم عليه بالإعدام، وعن تدمير المفاعل النووي العراقي في ١٩٨١ والسوري في ٢٠٠٧ وعن «بطولات الشاباك» (المخابرات الداخلية المسؤولة أيضا عن المناطق الفلسطينية) وعن عمليات خارقة لـ «أمان» (شعبة الاستخبارات العسكرية)، عن الاغتيالات وزرع أجهزة التجسس وعن العمليات الحربية «الخاطفة» (حربا لبنان في ١٩٨٢ و٢٠٠٦) وحروب غزة (في السنوات ٢٠٠٩ و٢٠١٢ و٢٠١٤). وعن القدرات العالية في صنع الأسلحة من رشاش العوزي إلى القبة الحديدية والطائرات بلا طيار والرادارات الحساسة التي يتم تركيبها اليوم على عدة صواريخ وطائرات غربية، هذه الصناعة التي جعلت إسرائيل في المكان السابع في تصدير الأسلحة في العالم بمبلغ بلغ ٩,٢ مليار دولار في سنة ٢٠١٧ (١).

صدر في نهاية السنة الماضية كتاب جديد بعنوان «إسرائيل – قصة نجاح»، للمؤلفين آدم رويتر ونوجا كينان، وهما صاحبا شركات ناجحة في الاقتصاد، يتحدثان فيه عن نجاحات إسرائيل في كل مجالات الحياة وبناء وطن وأمة من لا شيء. اول نجاح يتحدثان عنه هو استيعاب الهجرة اليهودية، حيث انها استوعبت ٣,١ مليون مهاجر جديد من بداية الحركة الصهيونية وحتى سنة ٢٠١٧ (٤٠٪ من دول الاتحاد السوفييتي السابق، و٢٥٪ من الدول العربية والإسلامية، و٢٠٪ من أوروبا، و٣٪ من الولايات المتحدة – التي ما زال يعيش فيها ثاني أكبر تجمع لليهود بمقدار ٦ ملايين – ثم اثيوبيا ٣٪ والبقية من بقية دول العالم). ثم يتحدثان عن أهمية التكافل الاجتماعي، إذ ان قيمة التبرعات التي قدمها اليهود لنشاطات اجتماعية وثقافية وتعليمية تبلغ بالمعدل مليار شيكل (حوالي ٣٠٠ مليون دولار). ويشيران الى الأوضاع الصحية فيؤكدان ان نسبة الأطباء في إسرائيل أعلى من المعدل المتوسط في دول المنتدى الاقتصادي العالمي (OECD) وصناديق المرضى الاسرائيلية هي الأفضل في العالم، وفقا لتقييمات منظمة الصحة العالمية، ومعدل الأعمار للرجل ٨١ وللمرأة ٨٤ سنة وهي من أعلى النسب في العالم ونسبة رضى المواطنين عن الوضع الصحي تصل الى ٩٠٪ (٢).

ويعددان المزيد من الانجازات في المجالات التالية: * على الرغم من ان حوادث الطرق في إسرائيل تجاوزت عدد قتلى الحروب (٢٥ ألفا في الحوادث مقابل حوالي ٢٤ ألفا في الحروب)، إلا أن نسبة الحوادث في إسرائيل تعتبر من الأكثر انخفاضا في العالم. ففي حين يبلغ معدل الوفيات في الحوادث ٢٠ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة من السكان، تبلغ النسبة في إسرائيل ١٠ حالات وفاة لكل ١٠٠ ألف

نسمة. والسبب هو التحسن الدائم في شبكة الشوارع ونجاعة طواقم الإسعاف وسرعة وصولهم الى مواقع الحوادث (ينبغي الانتباه هنا الى ان إسرائيل دولة صغيرة جغرافيا والمسافات فيها قصيرة) * في مجال التعليم، يؤكدان على ان ٩١٪ من أبناء جيل ٢٥ – ٣٤ عاما أنهوا الدراسة الثانوية، وهذه نسبة تزيد عن المعدل لدى (OECD) وعدد ساعات التعليم في إسرائيل تزيد عن المعدل في دول المنتدى المذكور وما يصرف على التعليم في إسرائيل (٢٣٪ مقابل ١٦٪ في المنتدى) ونسبة خريجي الجامعات تبلغ ٤٨٪ مقابل ٣٤٪ في دول المنتدى * جوائز علمية: تعتبر إسرائيل نسبيا صاحبة أكثر عدد من جوائز نوبل في العالم. ففي القرن الحادي والعشرين حصل ٨ علماء منها على جائزة نوبل للعلوم وأما في جائزة «جودل» للعلوم، التي تحل في المرتبة الثانية بعد نوبل في الأهمية العلمية، فمن مجموع ٦٢ فائزا بها في سنة ٢٠١٦ كان هناك ١٩ إسرائيليا (أي ٣٠٪ تقريبا) * الاختراعات: تحل إسرائيل في المرتبة ١٤ في التدريج العالمي من ناحية عدد الاختراعات العلمية بالمقارنة مع عدد السكان. ففي العلوم تسبق إسرائيل حتى الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا. ربع هذه الاختراعات في المجال الطبي. من أهمها آلة تصوير الأشعة المعمقة (سي تي) و(ام آر أي). في الشؤون الحربية: القبة الحديدية وهي منظومة الصواريخ المضادة للصواريخ والطائرات بلا طيار والسفن بلا ربان والسيارة المجنزرة بلا سائق وكلها أسلحة تم صنعها لتدخل «أرض العدو» من دون تهديد حياة الجنود بالخطر * الوضع الاقتصادي: يبلغ معدل دخل الفرد في إسرائيل حوالي ٣٦ الف دولار في السنة وبذلك تحل في المرتبة ٢٤ من مجموع ١٨٧ دولة. نسبة البطالة ٤,٣٪. الازمة الاقتصادية التي اجتاحت دول الغرب في سنة ٢٠٠٨ لم تمس باسرائيل. تدريج الاعتمادات المالية الإسرائيلية هو (A+) . والعملة الاسرائيلية ثابتة * الوضع الأمني – تتمتع إسرائيل بدعم أميركي عسكري لا مثيل له في العالم بين دولتين: ٣,٨ مليار دولار هبات مالية للأغراض العسكرية، قواعد عسكرية أميركية عديدة في إسرائيل تم الاتفاق على تفعيل كل جنودها ومعداتها في أية حرب قادمة، بيعها أحدث الطائرات المقاتلة (أف ٣٥)، وهذا فضلا عن الدعم السياسي في الساحة الدولية.

ويشعر الإسرائيليون إزاء هذه الإنجازات بالافتخار. وحسب استطلاع للرأي جاء أن ٨٢ في المائة من المواطنين الإسرائيليين فخورون بإسرائيليتهم، من ضمنهم ٥٦٪ ممن قالوا بأنهم شديدو الفخر، وإلى جانبهم ٢٦٪ ممن قالوا إنهم فخورون جدا. وفي المقابل، فقد أجاب ١٥٪ من المستطلعة آراؤهم بأنهم غير فخورين بالجنسية الإسرائيلية، وقد انقسم أولئك إلى فئتين: فقد قال ٩٪ من مجمل المستطلعة آراؤهم بأنهم "ليسوا فخورين إلى حد كبير" وإلى جانبهم فقد صرّح ٦٪ بأنهم غير فخورون بالمطلق بجنسيتهم. ويشير إلى أن ٩٣٪ من المصوتين لتياري اليمين والوسط فخورون بإسرائيليتهم، وذلك مقابل ٥٩٪ فحسب من مصوتي اليسار الذين يشعرون بالفخر. وعندما أوغل

الاستطلاع في النبش في مسألة الفخر بانتساب المواطن لإسرائيل، أوضحت المناسيب المقاسة وجود ما يشبه الإجماع العام، حيث أن هنالك ٨١٪ يفترضون بأن إسرائيل هي دولة يطيب العيش فيها. ومن ضمن هؤلاء الـ ٨١٪ هنالك ٣٦٪ ممن يقولون بأن إسرائيل هي "مكان يطيب جدّا العيش فيه" وإلى جانبهم، فهنالك ٤٥٪ ممن يفترضون بأن إسرائيل هي "مكان جيد بما فيه الكفاية ليعيشوا فيه. وعلى الجبهة المقابلة، فإن ١٦٪ من مجمل الجمهور لا يجدون سببا للقول بأن العيش رغيد في إسرائيل، ويقولون بأن إسرائيل على مدار سبعين عاما من إعلانها لاستقلالها لم تكن مكانا يطيب العيش فيه. من أوساط هؤلاء أجاب ١٣٪ بأن إسرائيل "ليست مكانا جيدا إلى حد كبير"، فيما كانت آراء ٣٪ قاطعة أكثر، إذ قالوا بأن العيش في دولة إسرائيل "ليس جيدا بالمطلق"(٤).

القلق

بالرغم من تلك النتائج، التي يبرزها عادة اليمين الحاكم في إسرائيل ويعتبرها في غالبية الحالات دليلا على نجاح حكمه، إلا أن الإسرائيليين قلقون. حسب الاستطلاع المذكور، يقول ٥٢٪ من المستطلعة آراؤهم إنهم قلقون من خطر اندلاع حرب على المستوى المنظور، وذلك، على ما يبدو، في ظل التوتر القائم على الجبهة الشمالية، وتهديدات إيران بالرد على الهجمات الإسرائيلية. وقد عبر ١٢٪ من المستطلعة آراؤهم عن "خشيتهم الشديدة" من اندلاع حرب خلال الفترة القريبة، مقابل ٤٠٪ ممن يقولون إنهم قلقون بشكل كبير. ومقابلهم هنالك ٣١٪ ممن قالوا بأنهم لا يخشون إلى حد كبير من اندلاع الحرب، فيما عبر ٧٪ عن كونهم لا يخشون بالمطلق من اندلاع حرب عما قريب.

وحول السؤال: مم يخشى الإسرائيليون، يجيب الاستطلاع بأن ٣٤٪ منهم تنبع خشيتهم من مخاطر "خارجية": إيران، حماس، وحزب الله، وقال ٣٢٪ من المستطلعة آراؤهم بالمقابل بأن خشيتهم نابعة من "الإرهاب الفلسطيني" [هم يرون في كل مقاومة للاحتلال، بما في ذلك مسيرات العودة السلمية، ارهابا]. وقال ٣٢٪ من الإسرائيليين، بحسب الاستطلاع، بأن المشكلتين الأكثر اعتراضا لمستقبل الدولة هما ارتفاع غلاء المعيشة، والفروقات الاقتصادية بين الشرائح الاجتماعية. فيما، وبالنظر إلى قضايا الفساد التي تورطت فيها قمة الهرم السياسي الإسرائيلي، فقد قال ٢١٪ من أن الإسرائيليين يعتبرون الفساد الذي يجتاح المؤسسات العامة هو مشكلة تعترض تطور الدولة. كانت مشكلة الفساد، بحسب الاستطلاع، قد احتلت المرتبة الرابعة من حيث الأهمية. لاحقا، قام الإسرائيليون بتدريج مشاكل أخرى، على غرار الصراع بين المتدينين والعلمانيين، الذي يتسبب بالضيق لـ ١٠٪ فحسب من الجمهور الإسرائيلي، أما المرتبة الأخيرة فقد مثّلها القلق من العلاقات

بين اليهود والعرب، حيث قال ٨٪ بأن التدهور في العلاقات بين المجموعتين القوميتين يقلقهم بحيث يعتبرونه عائقا يعترض طريق تطور الكيان العبري.

وعلى المستوى العملي، وعلى ضوء المعطيات أعلاه، يشير الاستطلاع إلى أن ٢١٪ من الإسرائيليين قد يفكرون، في ظروف معينة، بالهجرة من البلاد، وذلك مقابل ٧٢٪ ممن لا يفكرون بالهجرة منها. وفي أوساط الفئة الأولى، فإن ٤٧٪ منهم هم من أبناء التيار اليساري، و٢٩٪ من سكان تل أبيب. ومقابلهم، هنالك ٨٢٪ ممن لا يفكرون بالهجرة من البلاد وهم من أتباع التيار اليميني، من ضمنهم ٧٩٪ من المتدينين وأتباع التيار الحريدي. والسبب الأساسي الذي يدفع غالبية من يفكرون بالهجرة من البلاد هو سبب اقتصادي شخصي (مثل ما نسبته ٥٣٪) ويلحقه، من حيث الأهمية، أسباب سياسية أو عقيدية على النحو التالي: الخشية على مستقبل الديمقراطية: ١٧٪. الخشية من صيرورات التدين: ١٣٪. الخشية من اندلاع حرب: ١١٪. والخشية من الحالة الأمنية الداخلية: ٦٪.

ما لا يقلقهم ويجب ان يقلقهم

يحلو للكثير من القادة الإسرائيليين أن يتهموا القيادات الفلسطينية بأنها لم تفوت فرصة لتفويت الفرصة عليها في التاريخ الحديث. وهذه تهمة قد لا تخلو من الصحة، لكن القادة الإسرائيليين هم آخر من يحق له توجيه هذا الاتهام، وذلك لسبب بسيط هو انهم أكثر قادة في التاريخ الحديث ضيعوا الفرص على شعبهم.

ضيعوا الفرصة، من البداية، لإقامة دولة طبيعية تموضع لنفسها مكانة ملائمة لمحيطها العربي. وعلى الطريق ارتكبوا مسلسلا من الأخطاء والخطايا، التي دفعنا ثمنها جميعا، يهودا وعربا على مر السنين.

الخطأ الأول

أقامت دولة بيض فوقية للأشكناز (٦)، الذين يميزون ضد كل من هو مختلف عنهم. لم يكن في إسرائيل سود بشرة وعبيد، لكنهم صنعوا مجموعة من السود واستعبدوهم. ولا نقصد العرب من فلسطينيي ٤٨ فحسب، بل أيضا اليهود الشرقيين، الذين جلبوهم من بلدانهم العربية بوعود براقة لكن أقاموا لهم مخيمات لاجئين تحمل اسم «معبرات» (بالعبرية «معبروت»)، ثم أقاموا لهم بلدات نائية في النقب والجليل تحولت الى شاهد على التمييز العنصري الذي لم ينسه اليهود الشرقيون حتى اليوم ولم يتحرروا من أغلاله بل حملوا آلامه جيلا بعد جيل.

وكان بإمكان القيادة الاشكنازية هذه أن تستخدم اليهود من أصول عربية جسرا بين دولتهم الفتية وبين أصولهم العربية. فاليهود عاشوا في الدول العربية بسلام ومساواة على الغالب. وإذا تعرضوا يوما للتمييز والغبن، فإن الحاكم الذي ظلمهم كان من الحكام الذين ظلموا الشعب كله وليس اليهود وحدهم. اليهود العراقيون لا يزالون يحنون للعراق المجيد حتى الآن وغالبيتهم يقيمون نشاطات ثقافية تخلد تراثهم العربي وبعضهم يكتب بالعربية. وهم من الشرائح الناجحة بين اليهود الشرقيين أكثر من غيرهم. ويسيطرون اليوم على غالبية مرافق رأس المال المالي (أصحاب شركات تأمين وشركات تعمل في البورصة والبنوك وشركات الاستثمار وغيرها). واليهود المغربيون، يحلفون بملك المغرب ويحرصون على حفظ لغتهم وأغانيهم وتراثهم ومنذ أن سمح المغرب لهم بالعودة والتواصل، وهم يزورون البلد والكثيرون منهم يقيمون علاقات تجارية متشعبة. والتونسيون يزورون تونس اليوم ويمجدونها. واليمنيون يعبرون عن الألم لما يجري لليمن اليوم من هدر للدماء والدمار ولم ينسوا كيف قامت أوساط من شرائح السلطة القديمة بخطف أطفالهم وبيعهم لعائلات من اليهود القادمين من أوروبا، بحجة ان جرائم النازية حرمتهم من الأولاد وحرمت نساءهم من الولادة. قسم كبير من هؤلاء اليهود الشرقيين يحاولون توريث الأجيال القادمة هذه المشاعر.

لكن حكومات إسرائيل المتعاقبة، عملت كل ما في وسعها لغمر نفوسهم بالكراهية والعداء للعرب. كانت تدفعهم الى خانة الدفاع عن النفس وأدخلتهم في امتحان يومي لإثبات ولائهم للدولة العبرية والبرهنة على انهم لا يخونوها ولا يتجسسون عليها لمصلحة الدول العربية. فكانت كراهيتهم وعداؤهم للعرب بطاقة الدخول والقبول للدولة الإسرائيلية.

الخطأ الثاني

المواطنون العرب في إسرائيل، هم سكان الجليل والمثلث والنقب، الذين بلغ عددهم في سنة ١٩٤٨ حوالي ١٥٪ من المواطنين (١٥٤ ألف نسمة)، وأصبحوا اليوم ١,٧ مليون يشكلون نسبة ١٨,٥٪.

هم أيضا شريحة مهمة كان بإمكان القيادات الإسرائيلية ان تستفيد من بقائهم في وطنهم وجعلهم جسرا بين شعبهم وأمتهم من جهة وبين دولتهم الفتية من جهة ثانية. لكنها من البداية تعاملت معهم على انهم خارج الاجماع. بل رأت فيهم «خطرا أمنيا»، لذلك فرضت عليهم نظام الحكم العسكري من سنة ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٦. وحاول رئيس الحكومة الأول، دافيد بن غوريون، منع المواطنة عنهم. وفقط بعد ان خاضوا معركة شعبية تم منحهم الجنسية في سنة ١٩٥٢ وخصصت المخابرات دائرة لملاحقتهم وزرعت العملاء للتجسس عليهم ومارست ضدهم سياسة تمييز

وتعاملت معهم كأعداء محتملين طول الوقت (٧).

لقد أضاعت الحكومات الإسرائيلية عليها فرصة جعل العرب في إسرائيل نموذجا للتعايش المشترك، الذي لو حصل لكان ترك انطباعا إيجابيا عنهم لدى بقية شرائح الشعب الفلسطيني والأمة العربية برمتها. ومنعتهم من أي اتصال مع أصولهم، وكان كل من يقيم اتصالا كهذا يتعرض للاعتقال وحتى المحاكمة. ومنعت وصول الكتب الصادرة في العالم العربي اليهم. وخلقت منهم شريحة من اللاجئين داخل الوطن، هم أولئك المواطنون الذين هدمت حوالي ٥٠٠ قرية لهم ومنعتهم من السكنى فيها وحتى الوصول لزيارتها في بعض الأحيان. وصادرت أراضيهم وممتلكاتهم. فصار أهل صفورية لاجئين في الناصرة وشفا عمرو، يسكنون في بيوت تطل على قريتهم المهدومة كل صباح وكل مساء. ومثلهم ٢٨٠ ألف لاجئ داخل الوطن.

الخطأ الثالث

في سنة ١٩٥٦، شاركت إسرائيل مع فرنسا وبريطانيا في حرب على مصر، عرفت باسم العدوان الثلاثي. حرب ليس لها فيها لا ناقة ولا جملاً. كل ما هنالك أنها اختارت تأجيج العداء لأكبر دولة عربية، لأنها رأت في النظام السياسي فيها بقيادة جمال عبد الناصر خطرا محدقا. وكانت قد سبقت هذه الحرب بعملية تخريب رهيب، إذ أرسلت الى مصر مجموعة من الوكلاء لتنفيذ عمليات إرهاب ضد مرافق أميركية في القاهرة والإسكندرية، بهدف منع التقارب الذي بدأ يترعرع بين مصر والولايات المتحدة.

هذا العداء والاستعداء، الذي سارت عليه كل الحكومات الإسرائيلية، أدى إلى بناء حواجز شاهقة منعت حتى القوى العربية، التي رغبت في تسوية الصراع معها، من التقرب منها.

الخطأ الرابع

في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧، حققت إسرائيل انتصارا مذهلا على الجيوش العربية مجتمعة واحتلت في أعقابها بقية أراضي فلسطين (الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة) وكذلك هضبة الجولان السورية وسيناء المصرية.

لقد طرح الكاتب أوري أفنيري، الذي بدأ حياته مقاتلا في منظمة «ايتسل» اليمينية ثم تحول الى كاتب صحافي يساري، مشروعا لإقامة دولة للفلسطينيين في الضفة والقطاع والقدس الشرقية.

وكان ذلك مشروعا لافتا اهتم به كثيرون بينهم جنرالات كبار مثل رحبعام زئيفي. وقد استدعاه رئيس الحكومة، ليفي اشكول، ليفهم منه الدوافع والأهداف فأوضح أفنيري ان مثل هذا المشروع سيضع حدا للصراع وتخرج فيه إسرائيل كدولة محترمة في المجتمع الدولي، إذ به تنفذ قرار تقسيم فلسطين. لكن اشكول رفض الاقتراح قائلا: «يا أوري. في التجارة أنت تطرح اقتراحا تعطي فيه الحد الأدنى لخصمك وهو يطلب الحد الأقصى ثم تتفاوضان وتتفقان على حل وسط. أتريد من البداية ان نطرح عليهم كل الأرض؟». وبالتالي لم يطرح اشكول شيئا على الفلسطينيين والعرب، لا الحد الأعلى ولا الحد الأدنى (٨).

وبدلا من ذلك سادت في إسرائيل نفسية الغرور والعربدة، وراحت حكوماتها تتصرف باستعلاء وتعزز الاحتلال لهذه الأرضي وتسعى لتهويدها فأعلنت عن ضم القدس الى حدودها (وفيما بعد هضبة الجولان)، وصارت القدس اورشليم وألغت اسم الضفة الغربية من القاموس لتصبح «يهودا والسامرة» وسميت الأراضي المحتلة بـ «المناطق المدارة»، ثم «أرض إسرائيل التاريخية» وهدمت حي المغاربة في القدس لتهويده وثلاث قرى غربي الضفة هي عمواس ويالو وبيت نوبا وشردت السكان الفلسطينيين ورفضت عودة النازحين في الحرب إلى ديارهم وباشرت في غرس المستوطنات اليهودية في أحياء القدس والضفة الغربية وراحت تعمل على خلق أمر واقع فيها يمنع إقامة «دولة فلسطينية بنت معيشة»، كما يقول الأميركيون.

الخطأ الخامس

لقد فوتت القيادة الإسرائيلية علينا وعليها كل فرصة لاحت لإقامة السلام. في السنوات ١٩٦٣ – ١٩٦٦، بادر الملك حسين في الأردن الى عملية سلام لكن جهوده فشلت وتوقفت تماما بعدما أقدمت إسرائيل على ارتكاب جريمة السموع، القرية الفلسطينية في الضفة الغربية التي تعرضت لاجتياح عسكري بحجة ملاحقة مجموعات مسلحة من فتح.

وبعد الحرب بثلاثة أسابيع جدد الملك حسين جهوده والتقى مع يعقوب هرتسوغ، مساعد رئيس الحكومة اشكول، في لندن. ثم التقى مع وزير الخارجية الإسرائيلي أبا ايبن. وقال إنه جاء بمعرفة جمال عبد الناصر ويريد ان يعرف ما الذي توافق عليه إسرائيل حتى يحصل السلام. وقد اعتبر وزير الخارجية الأميركي، دين راسك، هذه الخطوة «شجاعة للغاية تشكل اختراقا مهماً على طريق السلام». لكن الرد الإسرائيلي جاء باردا وصدت ضغوط واشنطن للتقدم فيها. ولم يكل الملك الأردني وحاول مرات ومرات، وكانوا يصدونه. وقد اشتهر عن اشكول قوله في اجتماع للجنة الوزارية

لشؤون الأمن في أيار ١٩٦٨: «أخشى من اليوم الذي سنضطر فيه الى الجلوس وجها لوجه مع العرب لادارة مفاوضات سلام» (٩).

وتولت رئاسة الحكومة بعد اشكول، غولدا مئير، المشهورة بإنكارها وجود الشعب الفلسطيني (١٠) . وقد رفضت مئير مشروع روجرز الذي قبله الرئيس المصري جمال عبد الناصر للسلام الإسرائيلي العربي (١١)، ثم مشروع يارينغ لتأتي بعدها حرب أكتوبر التي فقدت فيها إسرائيل ٢٦٧٣ قتيلا و٧٢٥١ جريحا مقابل ٢٠ الف قتيل عربي و٣٧ ألف جريح.

وعندما اقتنع اسحق رابين بعملية سلام مع الفلسطينيين تم اغتياله بأيدي شاب يميني متطرف. ثم جاءت المبادرة العربية للسلام، والتي تقضي بإقامة سلام مع جميع الدول العربية ثم الدول الإسلامية مقابل الانسحاب من أراضي ١٩٦٧ وإقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، فرفضتها اسرائيل. وعندما اقتنع رئيس الوزراء ايهود أولمرت بعملية سلام وطرح مشروعا متكاملا لها تم اسقاطه بمؤامرة المعارضة اليمينية سوية مع أوساط في المؤسسة البوليسية القضائية التي ارادت تصفية الحساب معه لأسباب تتعلق بموقفه من القضاء (١٢).

الخلاصة

لقد حققت إسرائيل فعلا إنجازات هائلة في شتى مجالات الحياة. بعض هذه الإنجازات تثير الاعجاب لدى كل باحث موضوعي. إلا أنها الى جانب ذلك أخفقت في أمور جوهرية تتعلق بمستقبل أبنائها وليس فقط بشعبنا الفلسطيني. وإن كان لها أن تبحث عن عدو يهدد مصالحها الحقيقية، فإنها ستجدهم في رأس هرم قيادتها، أكثر بكثير مما تفتش عنه خلف الحدود. وأخطر هذه الإخفاقات انها أضاعت عليها عددا هائلا من الفرص لتكون دولة طبيعية مقبولة في الجو الإقليمي، تعيش بسلام مع جيرانها. بل إنها، وهي التي تدعي تمثيل اليهود الذين كانوا ضحية للتمييز والعنصرية والملاحقة في أوروبا وغيرها، اختارت أن تتقمص دول الجناة والظالمين. وتمارس سياسة التنكيل والاحتلال والبطش بحق الشعب الفلسطيني. وبغض النظر عما تفعله بنا كضحية لها، إنها لا تترك وسيلة إلا وتستخدمها لتورث للأجيال القادمة من اليهود صراعا عبثيا أبديا وعيشا طويلا على الحراب وتبدد لهم آمال السلام والأمان وتجعل من «أرض السمن والعسل» ساحة حرب وقتال دام يهدد كل تلك الإنجازات.

الهوامش

(١) – تقرير دائرة الصادرات الأمنية (سيباط) في وزارة الأمن الإسرائيلية – ١ أيار ٢٠١٨

(٢) – صدر الكتاب عن دار النشر «كنيرت» – من تحرير رامي روتهولتس في ٢٠١٧ – موديعين بالعبرية – صفحة ٢٦ - ٦٤.

(٣) – المصدر السابق (صفحة ٦٦ -)

(٤) - استطلاع للرأي الذي أُجري لصالح صحيفة «معريف» لمناسبة احتفالات السبعين، نفذته شركة «Panels Politics» المختصة باستطلاعات الرأي ونشر في ١٩ نيسان ٢٠١٨.

(٥) – المصدر ذاته

(٦) - «أشكناز» هو اسم يذكر في التوراة. استخدمه الأدباء والحاخامات اليهود إشارة إلى من عاشوا على نهر الراين في ألمانيا بشكل خاص وتم توسيع استعمالها لاحقا لتشمل يهود أوروبا باستثناء يهود البلقان الذين كانوا من السفارديين. يتكلم اليهود الأشكناز لغة اليديش، وهي خليط من اللغات العبرية والألمانية القديمة والسلافية والآرامية. و يعتبر الأشكناز اليوم غالبية اليهود المعاصرين، إذ يشكلون حوالي ٧٤٪ من يهود العالم (المصدر: عيدو أفراتي: الاشكنازيون الأوائل – جريدة «هآرتس» ١٢ أيلول ٢٠١٤).

(٧) – هليل كوهن – كتاب «عرب جيدون» – ٢٠٠٦

(٨) – أوري أفنيري – جريدة «هآرتس» – ٩ نيسان ٢٠١٧

(٩) – د. آفي راز – مجلة «ألكسون» ٩ حزيران ٢٠١٥

(١٠) – واشطن بوست ١٥ حزيران ١٩٦٩

(١١) – الذي قدمه وزير الخارجية الأميركي وليم روجرز سنة ١٩٧٠

(١٢) – كتاب أولمرت الذي صدر في ٢٠١٨ بعنوان «ضمير المتكلم».

أوراق عربية

رحلة الحرب من أجل السلام

أربعة عقود على زيارة السادات للقدس «٢»
ثقافة السلام كما يراها الإسرائيليون

شذى يحيى *

أربعة عقود على زيارة السادات للقدس، ربع قرن على توقيع اتفاقية أوسلو للسلام، سبعون عاماً على النكبة وإعلان قيام دولة إسرائيل، مياه كثيرة جرت تحت الجسور وقضايا لم تحل ولم تسقط بالتقادم ويظل المشهد يسير من سيء إلى أسوأ، إسرائيل حاضرة التقدم ورمز المدنية في الشرق الأوسط وسط أشلاء دول وكيانات ممزقة ومحترقة حروب مذهبية وطائفية، حروب تبدو وكأنها قادمة من العصور الوسطى بين ملوك الطوائف وسادة الأرض، في وسط هذا كله تبدو واحة التكنولوجيا الحديثة المتوائمة مع نفسها ومع العالم نموذجاً ديمقراطياً مبهراً يتغاضى العالم عن صورته الأخرى المتعصبة الوحشية أمام ما يسمى بإنجازه المذهل والخدمات التي أسداها للإنسانية، وهو النموذج الذي اصبح مبهراً حتى للجيران المعادين الذين مزقتهم الحروب وألقت بهم في غياهب التاريخ.

لم يستوعب العرب جرأة ترامب في إعلانه نقل السفارة الأميركية إلى القدس كما لم يستوعبوا خطابه الذي صرح فيه أن القدس عاصمة الأمة اليهودية ولا تهنئته بإعلان قيام دولة إسرائيل الذي تطلع فيه إلى نقل السفارة خلال شهر، هم أيضاً لم يستوعبوا حتى ما كتبه وزير الدفاع الإسرائيلي عن رغبته في ضم لاعب كرة مصري للجيش الإسرائيلي واعتبروها محاولة لتدمير اللاعب، وهللوا لرفض الممثلة الأميركية «ناتالي بورتمان" لجائزة احتجاجاً على الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على الفلسطينيين ونسوا أنها هي نفسها من كادت أن تعصف بزميلة لها لأنها رفضت أن تقول أن

* باحثة من مصر

محل ميلادها هو القدس عاصمة إسرائيل لأن القدس متنازع عليها، إلتصقوا بالشاشات لمشاهدة الإسرائيلية «جال جادوت" في أفلام المرأة الخارقة رغم علمهم بخدمتها في الجيش الإسرائيلي ، في حين أن الكثيرين منهم أعتبر "عهد التميمي" خدعة تركية إخوانية لكسب التعاطف، انهارت ثوابت بعض الدول العربية وهرولت لتبنّي كل ما كانت تراه كفراً وضلالاً واعترفت بأنها نشرت مذاهبها التي مزقت أشلاء أشقائها واشعلت أوار حرب السنة والشيعة والجهاد في الداخل قبل حرب إسرائيل خدمة لمصلحة الحليف الإمبريالي الأميركي العتيد.

كل هذه الحيرة هذا التخبط والتمزق تدلل على نتيجة واحدة (خسر العرب حرب الثقافة) ؛فمنذ بدايات القرن التاسع عشر خاض العرب مع بدء تفكك الدولة العثمانية حرباً ثقافية خسروها بالكامل لأن أصحاب المصالح في منطقتهم فهموا ما تقوم عليه أسس ثقافتهم وسعوا لتدمير هذه الثقافة بينما حتى يومنا هذا وبعد كل هذه العقود والأحداث لم يستطع العرب أن يفهموا طبيعة ثقافة الآخر وبالتالي عجزوا عن التعامل معهم بلغة ثقافية يفهمونها.

نحن نخوض حرباً ثقافية بكل ما في الكلمة من معاني، نخسرها بكل ما تعنيه كلمة خسارة من مفردات لسبب أساسي وهوعجزنا عن فهم «كود الاخر الثقافي» وبالتالي نخسر القدرة على التعامل معه، ويعرف «الكود الثقافي» بأنه تلك الشبكة من القيم والعادات والمعتقدات والأفكار التي تشكل في مجموعها القاعدة الفكرية لمجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات ويقوم بالدرجة الأولى على الخبرة الجمعية التي يمر بها أفراد الجماعة أو يتوارثوها عمّن قبلهم وهذا الكود الذي يتضمن وجوباً المعرفة الجمعية باللغة والثقافة والتاريخ لهذه الجماعة ؛ وهو بذلك المحدد الرئيسي لطريقة تفكيرها واتخاذها لقراراتها فلايوجد نص أو فكرة ينفصل عن محتواه الثقافي.

فإذا نظرنا لإسرائيل سوف نجد ان المحتوى الثقافي الإسرائيلي المعلن منذ إعلان قيام دولتهم حتى الآن والركيزة الأساسية التي تقوم عليها فكرة الميثولوجيا الثقافية لديهم هي جملة واحدة (نحن نمد أيدينا بالسلام) ؛ وردت هذه الجملة في إعلان قيام الدولة بالفعل عام ١٩٤٨م ومن يومها أصبحت على حد قول الباحثة في جامعة القدس «داليا جافريلي نوري» جزءأ لا يتجزأ من خطاب كل رئيس وزراء إسرائيلي على مدى سبعين عاماً وبصمة تميز أدبيات الخطاب السياسي الإسرائيلي عامة، ترى نوري أن لغة الخطيب دائماً ما تشير في الظاهر إلى أن الخطيب يمد يده بالسلام بغرض مصافحة الطرف الآخر لكن فحوى هذه اللغة يدلل وبقوة على أن الطرف الآخر هو دائماً المعتدي والرافض والمتعنت في قبول هذه اليد، في تأكيد دائم لقاعدة فكرية يراد إرساؤها في داخل الراي العام المحلي والدولي تنص على أن من يتبنون فكرة المجتمع الديمقراطي المتحضر يواجهون خطراً عارماً من هؤلاء الذين يمدون إليهم يدهم بالسلام لرغبتهم الدائمة في الحرب، هم أصحاب عقيدة

السلام في مواجهة عقيدة الحرب، في انعكاس لنظرة عليا للإنسان المتحضر الذي يمد يده لمن هو أدنى منه، فالدولة المثالية المتحضرة تمد يدها للهمج على أمل العيش في سلام والمشاركة أيضاً في تحضرهم وهذه هي القاعدة الأولى التي تتحكم في ذهنية المواطن والسياسي والمفاوض الإسرائيلي على حد سواء والتي تتشابه لحد كبير والنظرة الغربية الاستعمارية التي شرعنت احتلال أراضي الغير بدعوى أن الأعلى أخلاقياً يحاول الارتفاع بالهمجي لمستوى الإنسانية بل هي مشتقة منها.

أما القاعدة الثانية والتي لا تبتعد كثيراً عن الأولى فقد لخصتها خطبة «جولدا مائير" في الأمم المتحدة العام١٩٥٦م عندما استعملت نفس الجملة (نحن نمد أيدينا بالسلام ونعود خاوي الوفاض)، أي أنه لايوجد ولن يوجد شريك حقيقي ليتحقق السلام معه، في نفس السياق بعد أربعين عاماً في العام ٢٠٠٦م استخدم ايهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت نفس الجملة في احتفالية ذكرى وفاة بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل عندما قال (منذ ميلاد إسرائيل مد بن جوريون يده بالسلام لجيرانه العرب ولكن هذه اليد رفضت ومازالت هذه اليد ممدودة، أنا أمد يدي بالسلام لجيراني العرب آملاً أن لا ترفض)، جاء هذا بعد يوم واحد فقط من توصل الفلسطينيين بشق الأنفس لوقف لإطلاق النار مع الإسرائيليين الذين كانوا قد سووا أحياء كاملة من قطاع غزة بالأرض، كان استعمال هذه الجملة تعزيزاً من أولمرت لنفسه كخليفة لمن وضعوا إعلان قيام الدولة وللتذكير بالفكرة القومية التي قامت عليها هذه الدولة.

تلك هي نفسها الجملة التي كان قد استخدمها من قبله الحائز على جائزة نوبل للسلام إسحاق رابين بعد عام واحد من توقيع إتفاقية أوسلو العتيدة العام ١٩٩٣م بشكل اكثر وضوحاً وبلاغة وبلا لبس معبراً عن مفهوم السلام في ثقافة الإسرائيليين قائلاً (يدنا سوف تظل ممدودة بالسلام دائماً، وأصابعنا ستظل دائماً على الزناد)، رابين نفسه هو القائل (إن المسألة الأساسية هي ما إذا كان بالإمكان عقد صلح حقيقي مع بلد عربي علماً بأن البلدان العربية لا تتمتع بالإستقرار بحكم طبيعتها ..... يرى البعض أنه لا طائل من التفاوض حالياً وانا لا أوافق على هذه المقاربة فإسرائيل لا يمكنها أن تنتظر لحين قيام ديمقراطية في الدول العربية لذا يجب علينا التفاوض الآن حريصين على اهتمامين، أولاً أن يفضي الصلح إلى اتصالات بين الشعوب فهذا هو السبيل الوحيد للقضاء على العداوات ...ثم يجب علينا دوماً الإحتفاظ بهامش للأمن).

فالموقف الذي تتمسك به إسرائيل دائماً أنها مضطرة للحرب ومواجهة العنف بالعنف حتى من قبل نشأة الدولة رسمياً، ويرى مؤرخ جيش الدفاع الإسرائيلي "نتانيال لورش" أنه منذ البداية أي منذ نشأة «المنظمة العسكرية الصهيونية» كان رد فعل للجوء العرب للعنف كدفاع للشعب اليهودي عن نفسه ضد الهجمات من كل من القوات العسكرية النظامية وغير النظامية العربية وأنه بالنظر

لأسماء المنظمات التي أنشئت مثل هاشومير (المراقب)، هجاناه (الدفاع)، وجيش الدفاع (الجيش الإسرائيلي) توضح مهمة أساسية هي الدفاع، ومن التناقض أن حركة دولة – فيما بعد- لم تنظر يوماً إلى العنف كأداه لتحقيق أهدافها قد انخرطت تقريباً في صراع عنيف، موقف يختلف كثيراً عن تعريف ثقافة السلام الذي وضعه اليونسكو والذي ينص على أنها «منظومة من القيم والتصرفات والسلوك تعكس نموذجاً تفاعلياً وملهماً ومشاركاً يرتكز على مبادئ الحرية والعدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان والتسامح والتضامن الذي ينبذ العنف ويسعى حثيثاً للبعد عن الصراعات»، ويتطابق مع المفهوم الذي تحدث به "موشيه ديان" وزير الدفاع الإسرائيلي في عدوان ١٩٦٧م حين وقف في أعقاب احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس وسيناء ليقول (لقد عدنا إلى أقدس أماكننا المقدسة وهذه المرة عدنا لكي لا ننفصل مرة أخرى وأقول لجيراننا العرب أنه حتى في هذه الساعة بل وعلى الأخص في هذه الساعة نحن نمد أيدينا بالسلام) هذا المفهوم هو نفسه الذي نجحت الحركة الصهيونية ومن يدعمها منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين في مراكمة وجوده كحقيقة عبر روابط متخيلة بين الأرض والشعب «أرض فلسطين والشعب اليهودي « وخلقت من هذه الروابط فكرة قومية معاصرة استعملت لتدعيمها كل العلوم التي كانت مستحدثة في تلك الفترة مثل الأركيولوجيا وعلم الأجناس الأنثربولوجيا وعلوم الجغرافيا السياسية ونجحت بهذا في إرساء فكرة الأرض المقدسة عبر خلق علاقة قد تبدو محددة ومنطقية للوهلة الأولى بين الأرض والعرق، وبين العرق والعقل الجمعي، وبين هذا العقل الجمعي والثقافة، وبين الثقافة والخواص القومية، وبربط الثقافة بالخواص القومية بذلك نجحت في اضفاء شرعية على زعم قديم بأن للأمة اليهودية الحق في الحصول على دولة قومية في الأرض التي شهدت ولادة هذه الأمة ومنحت فيها حق الحياة (أرض فلسطين).

إن إرتباط الثقافة والرؤية بين الأرض المقدسة والشعب اليهودي هو ما يلخص تاريخ النزاع العربي الإسرائيلي في مجمله ويجعله تاريخاً لنزاع ثقافي يسعى فيه كلا الطرفين لتجميع ودعم ما يراه من حقائق أمام ما يعتقد أنه تزييف وأسطورية من الطرف الآخر، وهذا هو الخطأ بعينه الذي وقع فيه العرب الذين رأوا أنفسهم في معركة ضد قوة شريرة من وجهة نظرهم يعتمدون دائماً في مواجهتها على ردود الأفعال والدفاع عن النفس بدلاً من محاولة فهم وتشريح البنية الثقافية والمعرفية للكيان الصهيوني كيف نشأت وأين هي الآن وما هي الأهداف التي تسعى إليها ويحاولوا التفوق عليها أو على الأقل إيقاف تقدمها على مستوى الفكر والثقافة.

لن يسمح العالم للعرب أن ينتصروا في حرب ضد إسرائيل حتى لو كانت لديهم القدرة على ذلك وهم بالفعل ليس لديهم هذه القدرة، وأسباب عدم سماح الغرب جلها معروف كما أن المفاوضات

دون فهم لعقلية المفاوض الصهيوني لن تؤدي إلا إلى مزيد من الخسائر للفلسطينيين والمكاسب للصهاينة وازدياد الكره والحرب والشعور بالظلم، أو كما قال الصحافي الإسرائيلي يهو شفاط هركابي العام١٩٧٤م «إن اليوم الذي ستبدأ فيه المفاوضات سيكون في الحقيقة مناسبة عظيمة تستحق الاحتفال ولكن دعنا نتذكر الدروس التي يعلمها لنا علماء النفس والمتصلة بأن الإتصالات المباشرة بين الجماعات الإنسانية لا تقربهم دائماً من بعضهم البعض ولكن ربما تجعلهم يدركون إلى أي مدى كانوا بعيدين مما يقود إلى مزيد من النفور».

"جولدا مائير" أوضحت عقلية المفاوض الذي يمد يده إلى السلام حتى قبل طرح فكرة السلام بصورة حقيقية على الأرض في العام ١٩٦٦م بقولها «لم يكن هناك شيء اسمه فلسطين، متى كان هناك شعب فلسطين له دولة فلسطين؟! كان هناك إما جنوب سوريا قبل الحرب العالمية الأولى، ثم كانت بعد ذلك فلسطين المتضمنة الأردن، لم يكن هناك شعب في فلسطين يعتبر نفسه فلسطينياً قمنا بطرده عندما وصلنا وأخذنا بلادهم منهم لأنهم لم يكونوا موجودين» ؛ بعد ذلك بأعوام صك شارون تعبير التنازلات المؤلمة فيما يختص بمفاوضات السلام لأن العقل الجمعي الإسرائيلي ببساطة يفكر أنه عندما يعطي الفلسطينيين جزءاً من أرضهم وحقوقهم فإنه يتنازل عن جزء من أرضه ومن حقوقه لهم وهم في الأساس مجرد قومية مختلفة لا وجود لها، كذلك كانت الرؤية الغربية راعية المفاوضات الدائم تصادق على السيطرة اليهودية العرقية على الأرض في حكومة ديمقراطية، فالمنظور الثقافي الغربي المسيحي النظرة لفلسطين التاريخية يراها أرضاً مقدسة ليس فيها مكان لسيطرة إسلامية رغم أربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي فيها، عليه ومنذ بدايات القرن التاسع عشر كرست جهود المئات من المفكرين والباحثين والكتاب والشعراء والتشكيليين والسياسيين والجغرافيين والمؤرخين التابعين لعشرات الجامعات والكنائس ومراكز الأبحاث وأجهزة المخابرات الأوروبية والأميركية لإرساء فلسطين التاريخية في الأذهان على أنها الأرض المقدسة أرض المسيحية الأم، ويجعل من إسرائيل حاملة ميراث هذه الأرض وراعية التاريخ والجغرافيا الإنجيلية التي قامت عليها الخبرة المسيحية اليهودية الأولى مما جعل عودة اليهود (العاليا – Alia) هو بمثابة الدعم لإعادة الحقوق لأصحابها وبالتالي فإن إدانة أي شكل من أشكال العدوان أو التطهير العرقي والهيمنة على الأرض المقدسة هي بمثابة استهداف لحق المدافعين عن عودة الشعب لأرضه ودعم لهؤلاء المتخلفين الرجعيين الكفار العدوانيين والمتمتعين بامتيازات تزيد عن حاجاتهم (البترول –الموارد –الأرض) رغم عدم قدرتهم على استغلال هذه الموارد لفرط جهلهم وكسلهم وجشعهم وعدوانيتهم وبعدهم عن الحرية والديمقراطية وكرههم لهذه المصطلحات، هذا هو السبب الرئيسي الذي يجعلهم يرفضون حصول اليهود الديمقراطيين المتحضرين على ركن صغير من

أراضيهم الشاسعة ليقيموا عليها دولة حضارية متقدمة تساهم في نماء بقية العالم وليست بعبء عليه بنزعتها وحروبها بل وبدينها «العدواني» وثقافتها المتخلفة وربما أيضاً يأتي الرفض بدافع الخوف من أن تنظر شعوب هذه المنطقة المتأخرة من العالم لهذا الشعب المتحضر وتحاول الاقتداء به ومحاكاته، نظرة أشبه ما تكون بأفلام الغرب المتوحش وما كانت تروجه عندما يواجه الهنود الحمر المتوحشين المستوطنين البيض المسالمين ويسلخوا رؤوسهم لأنهم أقاموا مجتمعات نظيفة ومتحضرة ومتطورة على أراضيهم الغنية التي لا يفقهون كيفية استغلالها، فاليهودية الإسرائيلية القديمة وأيضاً الإسرائيلية الحديثة عنصر أساسي في المكون الثقافي الغربي كما أنها أيضاً من أهم روافده فكما كانت هي الجوهر الذي وضع أسس الفكر الغربي الحديث عبر المسيحية فاليوم يأتي (من وجهة نظر المسيحيين الألفيين المهيمنين حالياًعلى مفاصل السياسة الأميركية على الأقل) الفكر الصهيوني لمؤسسي إسرائيل الأوائل ليخلق علاقة الوصل بين الحضارة الغربية ومنبعها في الأرض المقدسة عبر تأسيس فكر عبري حديث قائم على المزج بين خبرات المهاجرين الجدد ومن سبقوهم في الاستيطان عبر عشرات السنين وعبر هذا المزج تنتج الأمة العبرية الحديثة.

هذه الرؤية الغربية هي نفسها على حد قول المؤرخ الصهيوني "ايلان بابن" هي الرؤية الصهيونية التقليدية التي تتبناها الدولة العبرية منذ قيامها وتدعم دلائلها بمئات من الدراسات والأبحاث التي وضعتها عشرات المؤسسات الثقافية التي جندت لهذا الغرض وتعرضها كما يلي:

"الصهيونية حركة قومية، إنسانية، ليبرالية، اشتراكية، جلبت التقدم لفلسطين البدائية وأعادت بناء المدن المهدمة وأدخلت الزراعة والصناعة لمنفعة المجتمع ككل عرباً ويهوداً، وقد تعرضت هذه الحركة التقدمية لمقاومة ناجمة عن الجذور الإسلامية الفاشية للمجتمع الفلسطيني ولمؤامرات الاستعمار البريطاني الموالي للعرب !! .. والتقاليد والثقافة المحلية ذات الطابع العنيف والمتخلف ورغم كل هذه المشاق ومقاومة (المحليين) الوحشية ظلت وستظل الصهيونية مخلصة للمفاهيم الإنسانية فيما يتعلق بالسلوك الفردي والجماعي يدها ممدودة بالسلام إلى جيرانها العرب المتوحشين الذين يرفضونها، وأسست رغم كل الصعاب دولة استوعبت رغم نقص المساحة والموارد والوسائل أكثر من مليون يهودي هربوا من الهولوكوست وطردوا من العالم العربي وأعطتهم سبلاً للتقدم والنجاح وفرصة للاندماج في الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، إسرائيل التي هي دوما في موقف دفاع عن نفسها وتسعى دائماً إلى احتواء عدوانية العرب المتزايدة وتقاعس العالم عنها في رحلتها لضم اليهود من الشتات في أكثر من مئة دولة في العالم لتحقيق حلم الأمة اليهودية في دولتها بعد أن كانت مجرد حركة أخلاقية للخلاص من الظلم ولكن للأسف وجدت هذه الأمة الشريدة حال عودتها لأرضها شعباً آخر على أرض الوطن ومع ذلك عرضت عليهم الشراكة في

مستقبل أفضل وقاموا هم برفض هذا العرض بحماقة «.

ولا يرى الفكر الغربي المدافع عن إسرائيل ولا أغلب الاسرائيليين العلمانيين القوميين الصهيونية التقليدية بشكلها هذا عنصرية على الإطلاق، فبنفس المنظور والفلسفة الإمبريالية التي تعاملت بها الشعوب الأوروبية مع بقية العالم، وبنفس المنطق الذي تبناه المستعمرون البيض في بناء أميركا على حساب الشعوب الأصلية يرى الجميع في الغرب وداخل إسرائيل الحركة الصهيونية على أنها بالفعل حركة تحرر وطنية لا يمكن وصفها بالعنصرية لأنها لا تعتبر نفسها فائقة على الأجناس الأخرى بل هي ديمقراطية تعددية، تسعى الأمة اليهودية المؤسسة لها للتمتع بالسيادة على أرضها ومقدراتها، هذه السيادة التي يجب ألا تكون محل شك أو نزاع كما هي ليست محل شك أو نزاع لدى الأمم الأخرى وأبلغ دليل على أن الصهيونية ليست حركة عنصرية هي أن المواطنين في دولة إسرائيل يأتون من جميع الأطياف والأعراق وأن هذه الدولة استوعبتهم جميعاً لذلك لا يمكن وصف الصهيونية المؤسسة لها بالعنصرية، هذا هو المفهوم الغربي للصهيونية، أما المفهوم الإسرائيلي الرسمي والشعبي لثقافة وشرعية الدولة فهو بطبيعة الحال اكثر عمقاً وتعقيداً من الرؤية الغربية للصهيونية، وقد تم الارتكاز على أداتين لصناعة المفهوم الثقافي للمجتمع الإسرائيلي، الأول هو التجنيد الإجباري في جيش الدفاع، والثاني هو هيكل النظام التعليمي العام واللذين صمما بالأساس لاستيعاب أعداد من البشر القادمين من أعراق وأجناس مختلفة ليشكلا معاً بوتقة لصهر الأفكار والحصول على سبيكة مجتمعية أكثر إنسجاماً وسميت هذه الآلية فعلياً "بآلية بوتقة الصهر" وتهدف إلى تحقق المجتمع روحانياً وسياسياً وثقافياً ولهذا فهي تتطلب إسترداد الخبرة الروحانية الصحيحة وإعادتها إلى اليهودي لتحويله إلى إسرائيلي تحقيقاً لخلاص الشعب ككل، ووفقاً لهذه الرؤية فإن الحياة القومية لابد وأن تحمل صبغة يهودية تصبغ المجتمع بالكامل وتشمل الحياة الإجتماعية والعملية وبالأخص الثقافية وهكذا فإن المجتمع الإسرائيلي لابد وأن يكون على درجة كبيرة من النقاء الديني كبديل للنقاء العرقي وأن يحتفظ دوماً بأغلبية يهودية مهيمنة (وهنا ينتفي حل الدولة الواحدة تماماً اللهم إلا إذا قبل الفلسطينيين وضعية مواطني الدرجة الثانية وقبلوا بإسقاط جزء من حقوق المواطنة)، ويترجم هذا إستراتيجياً على محورين:

الأول هو إدماج غير مستقر لشعب أصلي خاضع (الفلسطينيين) كالهنود الحمر في أميركا كأشخاص يقومون بالأعمال الشاقة ويعيشون على هامش المجتمع.

والثاني إزالتهم قسرياً كما حدث في حروب ١٩٤٨م و١٩٦٧م بالمعنى المادي المكاني ومن الممكن نقلهم إلى مناطق تشبه مستعمرات ومحميات قبائل الهنود في أميركا والأبوريجينال في استراليا بحيث لا يشكلون خطراً على أمن إسرائيل .

فالبوتقة أنتجت سبيكة تؤمن بأن اليهود كجماعة في علاقة عضوية دائمة مع أرضهم التي هي وطنهم الأصلي الذي شكل شخصيتهم القومية وذلك يمنح المجتمع الإسرائيلي شرعيتين الأولى هي شرعية العودة الى الأرض والثانية هي طرد الأعراق الأخرى غير ذات العلاقة الشبيهة بعلاقتهم بالأرض أو على الأقل معاملتها على انها في منزلة اقل ممن ينتمي للأمة اليهودية لأن الشعب اليهودي وحده من يمتلك تلك الصفة الروحانية العليا المسماة بروح الشعب أو الرابط الميتافيزيقي بين الفرد والأرض ليس من المنطلق الديني فقط بل من المنطلق القومي أيضاً بالمفهوم الهيجلي الذي ينص على (أن كل عرق أو شعب او أمه له وجود روحاني وهذا الوجود هو الذي يخلق الهوية والولاء وعلى الشعب واجب سام هو خدمة هذه الروح)، وقد كتب بن جوريون كثيرا حول هذا المفهوم ولخصه أريل شارون في خطبة بقوله «نحن لدينا سلاح سري ربما يكون هو السلاح الرئيسي الذي يحمل لنا الوعد بفرصة النصر ولابد لنا من أن نقويه وهذا السر بين يديكم، بين أيادي من هم هنا وأيادي من ليسوا هنا أيضاً – إنها الروح – وهذا ما سوف يكون حاسماً في الحرب التي وجدنا أنفسنا في غمارها فالروح ستكون حاسمة ولكنها لن تكون كذلك بمفردها فكل المدفعية والطائرات لن تسعفنا لو لم تعمل الروح فينا ولقد أعطتنا هذه الروح حتى الان قوة البقاء والاستمرار، وبها سنكون منتصرين»

وآلية روح العرق اليهودي كما أسماها "زئيف جابوتنسكي" آلية مختلفة عن غيرها فلكل عرق آلية روحانية مختلفة على حد قوله وهي نابعة من الثقافة اليهودية القائمة على مفهوم أن العاليا (العودة) إلى الأرض بعد ألفي عام جاءت إتماماً لوعد الرب ولينشئ اليهود مجتمعات جميلة محل الخرائب المهدمة ويعمروا الأرض البور والخراب ويقيموا أمة تحيي المثل اليهودية التي قام عليها المجتمع اليهودي على مدار التاريخ محل اضطهاد كبير، وأخيراً وبعد عذابات كبيرة وأهوال ووجهت هذه العودة بوجود عربي تتاري لبشر رحل بدو جالوا في أرض إسرائيل بعد إخراج اهلها منها وهم حتى يومنا هذا جهلة غير مؤهلين للإلمام بالصبغة القومية للشعب اليهودي يكنون له كراهية غير عقلانية بسبب عدم قدرتهم على الفهم لضيق افقهم وعدوانيتهم النابعة من دينهم الذي يحثهم على الهجوم العدواني ضد المتحضرين ومن يخالفونهم في الأفكار عموماً، وهذه الالية الروحانية الهدف منها على حد قول جابوتنسكي تحقيق هدف (الأمة الكاملة)، «لنرسم لأنفسنا النمط المثالي لأمة كاملة، فالأمة الكاملة تمتلك مظهراً عرقياً من شخصية فريدة مميزة، مظهراً مختلفاً عن جيرانها ومن شأن هذه الأمة أيضاً أن تشغل ومنذ زمن محفور في الذاكرة قطعة أرض معروفة بوضوح ولها صفة الدوام وسيكون من المرغوب جداً لو كانت هذه المنطقة تخلو من أي أقليات غريبة ممن يضعفون بوجودهم روابط الوحدة القومية ومن شأن الأمة أيضاً أن تحافظ على اللغة القومية

الأصيلة التي لا يمكن أن تنبثق عن أية أمة أخرى سواها»، وهذا البعد الروحاني لا يرتكز على مفهوم ديني حرفي بل على انجاز العمل على إنشاء الأمة التي حضر اليهود لإسرائيل لإنشائها في رسالة قومية مقدسة يختلط فيها العرق بالدين في بوتقة القومية لإنشاء الدولة.

هذه هي الروح التي شكلت ثقافة ورؤية المجتمع الإسرائيلي لدولته وهي نفسها الروح التي تشكل عقلية المواطن والسياسي والمفاوض الإسرائيلي فالحقيقة أن العوامل الثقافية هي دائماً السبب الذي يكمن وراء طبيعة الصراعات الدولية على مر العصور فعوامل مثل (القيم والأفكار والمعتقدات والآراء) هي ما يحكم ويشكل طبيعة العلاقات بين الأمم، وطبيعة العلاقات الدولية وشكلها يحددها الضمير الجمعي الذي تتحكم فيه عوامل اجتماعية وثقافية وتاريخية، والثقافة كمنظومة من المعايير والأفكار التي تحدد الهوية هي التي تشكل الأسس للهيكل الملموس للدولة أو الكيان السياسي وأية نخبة سياسية وعسكرية في لحظة اتخاذ القرار تنظر الى المحتوى الثقافي كأهم العوامل الاستراتيجية المحددة لكيفية وطبيعة وأسباب اتخاذ هذا القرار، واستراتيجية إسرائيل فرضتها عليها الطبيعة الجيوبوليتكية لأراضي فلسطين التي تحتلها وتقوم على أرضها نظرة واحدة للخريطة تكشف عن عزلة هذا الكيان عن دول الجوار التي تراه معادياً أو على الأقل مرفوضاً وغير مرغوب فيه مما عزز من الشعور بالحصار لدى الإسرائيليين ودفعهم للانخراط أكثر في علاقات وانشطة مع المجتمعات التي تقبل التعامل معهم خارج دائرة هذا الحصار كما نمت أكثر واكثر ذلك الإحساس القومي الواثق ثقة مطلقة في قوة ومقدرة الجيش والمؤسسة المركزية كدرع واق ضد هذا الوسط المعادي وأدى إلى نشأة شكل من أشكال شبكة التواصل بين المدنيين والمؤسسة العسكرية بشكل غير رسمي هذه الشبكة عملت بمثابة الضامن الأقوى للأمن القومي وجعلت من المواطن الاسرائيلي شخصاً أكثر عدوانية وثقة في الردع منه في الدبلوماسية الناعمة، أما الجزء الثاني من الاستراتيجية الثقافية الاسرائيلية فيقوم على تصوير العرب في الذهن الجمعي الاسرائيلي على أنهم الموجة الثانية من المعاداة للسامية ولذلك فإنه من المقنع أن أي اتفاقية سلام مقبول وعادل من وجهة النظر الصهيونية لا تتم بدون التفوق العسكري الساحق، ولذلك فإن الأمر الواضح أن حقوق المواطن هي الأمن والحماية وتوفير الرفاه والحياة الكريمة له من قبل الجيش والدولة وبالمقابل هو يقوم بالإضافة الى مجتمعه في مجاله ويطيع القوانين ويخدم في الجيش ويحارب عند الضرورة، هذا التفوق الساحق الذي هو هاجس دائم للضمير الجمعي الاسرائيلي يعبر عن جانب من القسوة العدوانية الذي غالباً ما تخفيه الثقافة الاسرائيلية وراء ستار الضحية الخائفة دوماً من التدمير والتي تلاحقها ذكريات عقود من الاضطهاد والمحارق في الشتات وهو ما انعكس دائماً على علاقات اسرائيل مع الآخرين كما اسلفنا، كما يقول الصحافي

عاموس ايلون «أن المحرقة استمرت في شرح المخاوف والأذى، العواطف الجياشة، الآلام، المفاخر التي نسجت خريطة الحياة العامة في إسرائيل وستستمر في التأثير على الأمة لمدة أطول مقبلة، فالذاكرة الباقية من المحرقة تجعل تهديد العرب بالإبادة يبدو ممكناً، ذكرى المحرقة هذه هي أحد أهم العوامل المؤثرة في توحيد المجتمع الإسرائيلي تحت نزعة قومية وهو ما يفسر موقف الاسرائيليين العلمانيين وتمسكهم بالروح القومية وهو أيضاً يفسر الحاجة الإسرائيلية الدائمة للاعتماد على الذات مهما كان الثمن في عالم لم يقف إلى جوارهم ويحميهم من الإبادة والتشريد والمذابح المرة تلو الأخرى، اليهود والاسرائيليون هم دائماً معتدى عليهم والحقيقة أنهم المعتدون لكن في ذهنيتهم دائماً قناعة أنهم المعتدى عليهم، لعل الحادثة الشهيرة عندما كتب الروائي الاسرائيلي الأشهر "عاموس عوز" المرشح لأكثر من مرة لجائزة نوبل للآداب معرباً عن صدمته الشديدة من مذبحة الخليل التي قتل فيها متطرف اسرائيلي المصلّين الفلسطينيين داخل الحرم الإبراهيمي معرباً عن صدمته من أن هذه المذبحة قد تكون دليلاً على وجود حركات داخل المجتمع الإسرائيلي المثالي تشبه حركة حماس خير تعبير عن وجهة النظر التقليدية الاسرائيلية في أن الآخر هو الشر المطلق أو على حد قول الشاعر الكبير محمود درويش في مقابلة أجراها مع صحيفة لوموند الفرنسية "عوز" يرى أن النموذج الأول للشر موجود في مجتمع آخر هو المجتمع الفلسطيني وما كان يفترض أن يقوم به "عاموس عوز" هو توجيه النقد إلى السياسة التي أدت إلى الاحتلال وأفرزت مجرمين داخل المجتمع الإسرائيلي، هذه المعطيات الثقافية لا تثبت إلا شيئاً واحداً أنه لا يمكن للعقلية الإسرائيلية أن تقبل الرؤية الفلسطينية في أن «الوطنية الفلسطينية هي تعبير أصيل لشعب محلي يسعى للسيطرة والسيادة على الأرض التي اعتبرها وطنه لقرون بالرغم من فرض الاستعمار عليه شعباً اجنبياً يدّعي حقوقاً على الأرض نفسها «، وهو النص الذي ورد في قسم حقوق الفلسطينيين في الأمم المتحدة فحق العودة لليهود ينفي في المطلق حق العودة للاجئين وسيطرة اليهود على أراضيهم وارتباط الشعب بالأرض ينفي تفكيك المستوطنات تماماً والجدوى الوحيدة من المفاوضات هي الاستراتيجية التي أرساها "زئيف جابوتنسكي" في رسالة الجدار الحديدي العام١٩٢٣م وتلخص فلسفة الصهيونية اتجاه العرب والفلسطينيين بالتالي «لا أريد الجزم بأنه لا يمكن إبرام أي اتفاق مع العرب الموجودين في أرض إسرائيل ولكن ثمة إتفاقاً طوعياً تحديداً يظل غير ممكن، فطالما احتفظ العرب ببصيص أمل في أنهم سينجحون في التخلص منا فلاشيء في العالم يمكنه أن يجعلهم يتنازلون عن هذا الأمل لأنهم ليسوا مجرد قطيع بل هم شعب حي، والشعب الحي سيكون على استعداد لحسن استغلال قضايا مصيرية، أما عندما يتخلى هذا الشعب عن كل أمل في التخلص من المستوطنين الغرباء فوقتئذ ووقتئذ فقط تفقد الجماعات

المتطرفة بشعارها لايوجد مستحيل نفوذها وتاثيرها، ووقتئذ فقط سيبدأون المفاوضة والفصال معاً على أمور سياسية مثل ضمانات تحميهم من طردهم خارج أرضهم والمساواة في الحقوق السياسية والقومية والطريقة الوحيدة لمثل هذا النوع من الاتفاق هو الجدار الحديدي أي أن تأسيس قوة في فلسطين بلاشك لن يكون بمعزل عن التأثر بالضغط العربي بمعنى آخر أن الطريقة الوحيدة لإنجاز الاستيطان في المستقبل هو التجنب الكامل لكل محاولات الوصول لمستوطنة في الوقت الحالي»، وهذا ما يحدث اليوم بحذافيره .

نأتي للشق الثاني من الاستراتيجية الثقافية الإسرائيلية وهو الشق الاجتماعي والذي يحققه التعليم الذي يحض دائماً على ربط المواطن بجذوره في التاريخ السحيق لتعزيز إدراكه بأهمية وجوده على أرض إسرائيل وهذا يعززه مائتا متحف تجعل من دولة الصهاينة الأكثر في تعداد المتاحف بالنسبة لعدد السكان في العالم، وعشرات من معاهد الدراسات الأركيولوجية وحفريات التنقيب عن الآثار والدراسات التي تحاول نقل العهد القديم من خانة الميثولوجيا والديانة لخانة الجغرافيا والحقائق التاريخية ' أضف إلى ذلك التذكير والاحتفاء الدائم بمذابح الهولوكوست وضحاياه وتاريخ الاضطهاد والمذابح والتشريد في القرن التاسع عشر، والصعوبات والمعوقات التي واجهتها الهجرات الأولى لفلسطين، عودة إلى عصر العبودية على ايدي المصريين والاضطهاد الروماني والسبي البابلي وصولاً إلى الفخر بالمواطن الإسرائيلي المولود على أرض الوطن السابرا (Sabra) حامل تراث الشتات ومحقق حلم العودة والسعي الدائم للتفوق في شتى المجالات على الأخص العلمية والتكنولوجية والطبية والهندسية والثقافية (مسرح – سينما – موسيقى – فن تشكيلي)، وتسويق ذلك عبر العالم مع السعي الدائم لعلاقات ديبلوماسية دافئة مع كل الشعوب والحفاظ على صورة ودية للمواطن الإسرائيلي القوي البنية الرياضي صاحب الأخلاقيات الرفيعة والراقية في كل المنتديات كل هذه المساعي تصب في اتجاه هدف واحد ألا وهو خلق شكل من أشكال العمق الإسرائيلي أساسه جودة المواطن والدعم والثقل الدولي للدولة تعويضاً عن العمق الاستراتيجي المفقود لدولة تفتقد للحدود الآمنة وللجوار الصديق، وأساسه إشعار المواطن دوماً بأنه هو الملاذ والعمق الاستراتيجي للدولة ويشكل دافعاً لديه دوماً لتحقيق المزيد على المستوى الاقتصادي والتكنولوجي ومستويات التطور الأخرى ليشعر بأمانه المفقود عبر الروح القومية للجماعة.

البعد الأخير للثقافة الاسرائيلية يكمن في نظرتها للإستيطان عموماً وللقدس على الأخص والذي يتلخص في وحدة المدينة المقدسه تحت راية دولة الشعب المختار لإعادة امجاد مملكة يهوذا وإقامة الهيكل الثالث ودون ذلك لن تتحقق هوية الأمة ولا قومية الدولة، والحقيقة أن علم الآثار

التوراتي ومئات من بعثات التنقيب التي قلبت كل حجر في المدينة وعلى الأخص المنطقة التي يزعم الاسرائيليون أنها جبل الهيكل وكافة أنحاء ما أسموه يهوذا والسامرة على مر عقود طويلةمنذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا لم تفلح في تأكيد وتوثيق أحداث سفر الخروج والفتح اليهودي، بالطبع هناك أدلة كثيرة على تواجد شعوب وقوميات أخرى عاشت في نفس المنطقة في حالة من التعايش السلمي المشترك وهذا يشكل خللاً خطيراً جداً على الثقافة الصهيونية التي تطرح النص التوراتي كحقيقة تاريخية دامغة لا لبس فيها تشكل الأرضية الأساسية التي يقوم عليها الحق اليهودي في استعادة أرضه وهي الرابط الأساسي في علاقة الشعب بالأرض هذا الخلل الذي من الممكن أن يشكل عائقاً في صناعة الأمة السيدة على أرضها في أرض يثبت التاريخ أنها لم تعرف منذ ماضيها السحيق سيادة مطلقة غير متنازع عليها ربما بفعل الجغرافيا أكثر منه بفعل الأسطورة بل كان التعايش المشترك هو الفيصل في أغلب الحقب التاريخية التي مرت بها، هذا الخلل الخطير هو أحد أهم العوامل التي تدفع إسرائيل لجعل قضية عدم تقسيم القدس ثابت من ثوابتها فهي مسألة وجود تفوق حتى في أهميتها المراجع التوراتية لأن له أسباباً هي أكثر اتصالاً بالواقع من السبب الذي ذكر سابقاً، وسبب آخر أيضاً هو أهمية المدينة كرسالة استراتيجية موجهة لمسيحي الغرب على الأخص المسيحيين الألفيين والمسيحيين الصهاينة الذين يرون في قيام دولة اسرائيل وعودة مملكة يهوذا العلامة الأولى لقيام مملكة الله على الأرض وهؤلاء بنقودهم ونفوذهم في دوائر صنع القرار والإعلام وصناعة الرأي العام لم يبخلوا يوماً بالدعم السخي لإسرائيل ولذلك ولضمان دعم هؤلاء تصر إسرائيل وتسعى دائماً على توسيع حدود القدس بصورة سريعة وكبيرة وممنهجة ذلك لإرساء قواعد جيواستراتيجية تجعل من حدود القدس مساحة كبيرة خارج أسوار المدينة القديمة وبذلك يكون من المستحيل تقسيم المدينة بأي شكل من الأشكال أو التفاوض عليها، ولذلك وعلى مدار الحكومات الاسرائيلية المختلفة وعلى اختلاف توجهاتها كان الحرص على احاطة المدينة بحزام من المستوطنات هو القاسم المشترك بينها جميعاً وربطتها بشبكة من الطرق السريعة لتلتحم تماماً بالمدينة مضيفة بذلك مئتي ألف نسمة كعنصر ديموجرافي واقع على الأرض، وبهذه الحقيقة الديموجرافية الجديدة المدعومة بالبعد الثقافي القومي تم الربط واقعياً بين الخطاب الأيديولجي والهندسة الديموجرافية للقدس خصوصاً وللضفة الغربية عموماً مع المزج مابين الاستراتيجية العسكرية الدفاعية بالجدران العازلة والتكثيف الحضري في المناطق الساخنة أصبح للتفاوض بعداً آخر.

فالضفة الغربية أيضاً بالنسبة لإسرائيل منطقة تحمل دلالات قومية خاصة، والقومية التي قامت في قاعدتها على رفض الاضطهاد بناء على ماهو يهودي تجعل من دلالة الأرض دلالة عميقة

في ذهن الصهيوني العلماني كما هي في ذهن المتشدد الديني الذي يؤمن بأن ممالك سليمان وداود قامت على مرتفعات يهوذا والسامرة، كما أن المستوطنات أيضاً تحمل منافع براجماتية حتى لمن هم أقل حلماً بالوطن القومي من الأجيال الجديدة فالمساكن فيها من الممكن تحمل تكلفتها (مدعومة دعماً كبيراً من الدولة والعديد من الهيئات الأجنبية) والمجتمعات أكثر تنظيماً من المدن وأفضل في البنية التحتية والمرافق بالإضافة لأن الخدمات والمدارس أعلى في المستوى، والحكومة الإسرائيلية لا تقصد بهذا الدعم المتطرفين الراغبين في الموت من أجل يهوذا والسامرة بل هي تريد خلق ثقل ديموجرافي يصنع أمراً واقعاً على الأرض مثل الذي تفعله في القدس تماماً، فمسألة اليهود المتشددين هي مجرد ستار دخاني للتمويه على أن الدولة تسير وفق خطط منهجية لتوسيع الاستيطان منذ نشأتها العام١٩٤٨م أو على الأصح منذ تأسيس المنظمة اليهودية الصهيونية العام١٨٩٧م ولا دخل لأي حكومة إسرائيلة في وضع السياسة الاستيطانية ولا حتى لألاعيب السياسة وتوازنات الحكومات الائتلافية التي تحسب حساب الأحزاب الدينية الصغيرة، فالمستوطنات وتنظيمها وطريقة عملها موجودة في جذور الدستور التأسيسي للدولة بل هي جزء من نسيجها الثقافي بإعمار أرض الأجداد وطرد الأغيار منها وتحكمها أسس وقواعد وقوانين وأولويات وضعت منذ الحلم بنشأة هذه الدولة، حيث يرى الفكر الجمعي الإسرائيلي أن هذه المستوطنات أقيمت من أجل الأمن والحق ؛فالهدف من القطاع الأكبر منها هو «تعزيز الأمن الداخلي والخارجي سواء بسواء»، وبوجودها تتعزز أحقية الشعب اليهودي في أرض إسرائيل وتحوله لأمر ملموس في الخارج والداخل، حولت الدولة اليهودية موقفها من القدس وأغلب مستوطنات الضفة إلى أمر واقع سياسياً ليس عبر الأسطورة والكلام عن الحق التاريخي فقط بل أيضاً عن طريق التخطيط والتوسع وبالطبع الاستيطان وعليه لم يعد يؤرق الصهاينة فيما يختص بالقدس إلا الكتل العربية الموجودة فيها وهي حائط الصد الوحيد أمام الضم كأمر واقع على الأخص بعد الاعتراف الأميركي.

"ما كان في السابق الحي اليهودي أصبح مكاناً يمثل إسرائيل الحديثة نظيفاً ونقياً ومحدثاً وسيصبح مركزاً لوحدتنا القومية والروحية « هكذا جاءت افتتاحية "الجيروزاليم بوست" بعد ما أسمته إسرائيل بتجديد الحي اليهودي في القدس لتلخص ببساطة ماهية إسرائيل الثقافية من وجهة نظر مواطنيها، ولم يعر الإسرائيليون التفاتاً كبيراً لما أطلق عليه تغيير وتدمير لتراث إنساني كما أسمته اليونسكو لأن المقصود كان فعلاً إحداث هذا التغييروالتشويه لصبغة المدينة لتصطبغ بصبغة صهيونية كما حدث مع كل جزء احتلته إسرائيل من أرض فلسطين قبل ذلك تحت دعوى الروح القومية .

(نحن نمد أيدينا بالسلام)!!!!!

أي سلام ؟؟!

السلام العادل والشامل !!!!

لسبعين عاماً ظل هذا الشعار مرفوعاً تلوح به ثقافة ترى أن السلام يتمثل بأبهى صوره في تحقيق أحلامها بالتوسع على حساب حقوق الآخرين، والقبول بهذا هو سلامها المعروض والمدعوم من قبل حلفائها الغربيين الذين هم أيضاً رعاة السلام.

هو السلام ذاته الذي تهلل له بقايا أنظمة ومزاعم ممالك تجبر الفلسطينيين اليوم على سماع شروطه تمهيداً للموافقة عليها رغم حظر الكنيست الرسمي للتفاوض على القدس منذ يناير٢٠١٨م، وموافقته وفقا لصحيفة «تايمز أوف إسرائيل» في أول مايو على مشروع قانون «يكرس مكانة إسرائيل كوطن قومي للشعب اليهودي، وأن حق الشعب اليهودي في تقرير المصير في وطنه هو حق حصري للشعب اليهودي، وأن القدس عاصمة إسرائيل، العبرية لغتها الرسمية»، أي أنه ليس أمام الفلسطينيين على طاولة المفاوضة إلا القبول بحلين إما البقاء في دولة واحدة كمواطنين من الدرجة الثانية أو الرضا بالمحميات الممزقة المحصورة في بقاع متفرقة تقضم منها المستوطنات الإسرائيلية قضمة كل يوم وكأن جابوتنسكي كان يقرأ الغيب عندما تحدث عن فقدان الأمل بعد فقدان الروح.

ويبقى الأمل الضئيل في عودة الأمل والروح إذا فهمنا كيف فُقدا.

المراجع:

١. فيرجينيا تيلي – حل الدولة الواحدة – ترجمة ربيع وهبة – المركز القومي للترجمة ط١-القاهرة ٢٠١٦

٢. نيل كابلان – الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تواريخ متضاربة – ترجمة محمد العشماوي ط١ – المركز القومي للترجمة – القاهرة٢٠١٤

٣. هنري لورنس – المسألة الفلسطينية "الكتاب العاشر مصائر عملية السلام"- ترجمة بشير السباعي المركز القومي للترجمة ط١ – القاهرة ٢٠١٧

4. James L. Gelvin – The Israel –Palestine Conflict –One hundred years of war – Cambridge University Press –London second edition2012

5. Simone Ricca – Reinventing Jerusalem –I. B. Tauris – London2007

6. Rafal Kopec – The Determination of the Israeli strategic culture – Review of nationalities magazine 62016-

7. Framing the Zionist Movement: The effects of Zionist discourse on the Arab –Israeli peace process – Strategic Insights, Volume IV, Issue5 (May2005)

8. "What makes one an Israeli?" –Negotiating identities in everyday representations of Israeliness, Tel Aviv, Israel University

9. Dalia Gvriely –Nuri – The Idiosyncratic language of Israeli (Peace): Cultural approach to critical discourse analysis (CCDA) – Hadassah College Jerusalem University

العلاقات الإسرائيلية الأميركية التزامات ومساعدات

عليان الهندي*

صرح الرئيس الإسرائيلي السابق، موشيه قصاب، أن اليهود مروا بثلاثة عصور ذهبية عَبر تاريخهم، حيث كان العيش في كنف الدولة الإسلامية بالأندلس ،التي حارب فيها اليهود إلى جانب المسلمين «الغوييم[1]» لأول مرة في تاريخهم، أول هذه العصور. بينما شكل وجود اليهود في الولايات المتحدة الأميركية، الذي نجح خلاله اليهود بالخروج من «الغيتو» الذي وضعوا أنفسهم به، خلال تواجدهم في أوروبا بالقرون الوسطى، ثاني هذه العصور. في حين كان العيش في دولة إسرائيل، المقامة على أرض فلسطين، وتتمتع بعلاقات استراتيجية مع الولايات المتحدة بعد يوم من نشأتها، ثالث هذه العصور.

العلاقة التي نشأت بين الدولتين، لم تقم على أسس أيديولوجية فقط، بل أقيمت على أسس استعمارية ومصالح مشتركة بين الطرفين، دفعت وزير الخارجية الأميركي الأسبق الكسندر هيغ يصف إسرائيل، بأنها «أكبر حاملة طائرات أميركية في العالم»، وهي المقولة التي يستخدمها غلاة اليمين الإسرائيلي المتطرف اليوم، من أجل المحافظة على هذه العلاقة وتعزيز التحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة. وهي علاقة وصفها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق ليفي أشكول بقوله «:أنك **تسير مع صديق في ليلة ظلماء، لا أنت خائف منه، ولا هو خائف منك، نحن أمام دولة قلقة من أجل ضمان بقائنا والمحافظة على حدودنا وأمننا وعلى رفاهية دولة إسرائيل.**

تمأسست العلاقة بين الطرفين (الأميركي والإسرائيلي) على مجموعة من الأسس الأيديولوجية المزورة، وعلى التزامات وتفاهمات وكتب ضمانات وقوانين أميركية موجهة لصالح إسرائيل، وعلى تقديم مساعدات مادية هائلة، لم تحظ بها أي دولة عبر التاريخ، ولا حتى بعض المناطق التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في أماكن مختلفة من العالم.

* باحث في الشؤون الإسرائيلية – فلسطين.

الالتزامات السياسية والمساعدات المالية، دفعت إسرائيل إلى التشبث بمواقفها السياسية، وسمحت لها بالتفوق عسكريا واقتصاديا، على الدول الدول العربية، خاصة المحيطة بها، وعلى الفلسطينيين الخاضعين لاحتلال ممول ومدعوم من قبل الولايات المتحدة الأميركية.

الالتزامات والتعهدات الأميركية لإسرائيل كثيرة ومتنوعة، والمقالة الحالية تركز على أهم وأخطر هذه الالتزامات على العرب بشكل عام، وعلى الفلسطينيين بشكل خاص، إثر اعتراف الرئيس الأميركي دونالد ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل، وأمر بنقل السفارة من تل أبيب إليها.

ايديولوجيا ومجموعات ضغط

في الولايات المتحدة مجموعات ضغط أميركية، تسمى بالصهيونية المسيحية، التي تؤمن بأن اليهود هم أبناء الله، وأن المسيحيين غرباء، عليهم الرضى بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل ما يسقط من فتات مائدة الأسياد، ويعتقدون أن عليهم مساعدة الرب في إنشاء وطن قومي لليهود في «أرض الميعاد»، الذي اعتبر بالنسبة لهم شرطا لـ «عودة المسيح" . وتضم هذه المجموعات في صفوفها ما يقارب من ٤٠ مليون نسمة في الولايات المتحدة وحدها[٢]، يدعمون إسرائيل دينيا وسياسيا وماديا، بواسطة ١٠٠ محطة تلفزيونية وأكثر من ١٠٠٠ محطة إذاعية و٨٠ ألف قسيس.

وآمن بأفكارههم، أكثر من رئيس في الولايات المتحدة مثل الرؤساء جيمي كارتر ورونالد ريغان وجورج بوش الابن وآخرهم دونالد ترامب. ومن أهم مؤسساتهم السفارة المسيحية الدولية والتحالف المسيحي الأميركي ومؤتمر المعمدانيين الجنوبيين وغيرهم، بينما يعتبر جيري فالويل وبات روبرتسون وهال ليندسي من أهم شخصيات مجموعات الصهيونية-المسيحية.

القوة السياسية والانتخابية التي يمثلها التيار المذكور في الولايات المتحدة، دفعت رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيغن للاتصال بأكبر زعماء اليمين المسيحي ،جيري فالويل، طالبا منه أن يشرح للمجتمع المسيحي الأميركي أسباب الضربة الإسرائيلية للعراق[٣].

لم يتوقف الأمر على مجموعات ضغط صهيونية-مسيحية، فهناك أقل من ٦ ملايين يهودي بقليل، يعيشون في الولايات المتحدة، ويشكلون أقل من ٢٪ من مجموع السكان، ويملكون أكثر من ١٥٪ من مدخراتها. وينتمون لأكثر من ١٠٠٠ جمعية ومؤسسة ومنظمة ولوبي يهودي وصهيوني، عاملة في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والأكاديمية والإعلامية من أهمها: الايباك التي تضم ١٠٠ ألف عضو، وهو لوبي صهيوني أنشئ عام ١٩٥٠ بهدف تعزيز علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل، وجمعية محاربة التحريض التي أسست عام ١٩١٣ لمحاربة الكراهية الموجهة ضد

اليهود، وغيرها الكثير. إضافة إلى الجمعيات المذكورة، تنضم مئات المؤسسات الإسرائيلية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلى القائمة المذكورة أعلاه، تملك هذه المؤسسات الإسرائيلية مقرا ثانيا لها في الولايات المتحدة لجمع التبرعات وتوفير الدعم السياسي والأمني لإسرائيل.

عمق العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، والتدخل اليهودي في الشؤون الأميركية الداخلية عبر عنه، في دعم الرئيس الأميركي الحالي دونالد ترامب، من خلال مرافقته، قبل انتخابه بستة أشهر بطاقم من المستوطنين القاطنين في الضفة الغربية، وفي مقدمتهم من يسمى بوزير خارجية المستوطنين داني ديان (رئيس مجلس المستوطنات السابق وقنصل إسرائيل العام في نيويورك) الذي نجح مع يهود آخرين في الولايات المتحدة مثل صهر ترامب جيرارد كوشنير (المنتمي لحركة حباد اليهودية الدينية المتطرفة ومسؤول ملف السلام مع الفلسطينيين) وجيسون غرينبلات (المبعوث الأميركي للسلام في الشرق الأوسط وخريج المدرسة الدينية اليهودية في مستعمرة غوش عتصيون) وديفيد فريدمان (السفير الأميركي في إسرائيل وأحد اتباع المدارس الدينية في مستعمرات الضفة الغربية)، بإقناع دونالد ترامب تبني برنامج سياسي شرق أوسطي، لا يؤيد حل دولتين لشعبين، ويدعو إلى تنفيذ قرار الكونغرس الأميركي الذي صدر عام ١٩٩٥، والقاضي بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل مقر سفارتها من تل أبيب للقدس –وهو ما حصل.

التزامات أميركية

التعبير عن العلاقات الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة ، جرى على مدار العقود السابقة، بسلسلة من الالتزامات الأميركية المقدمة لإسرائيل في مجالات مختلفة، تمت صياغتها بكتب رسمية موقعة من وزراء الخارجية أو من الرؤساء الأميركيين على شكل «مذكرات تفاهم» أو «مذكرات اتفاق»، أو على شكل قوانين سنها مجلسا النواب والكونغرس الأميركان. كما اتبعت سياسات أميركية لصالح إسرائيل في مناسبات مختلفة. وفي معظم الحالات قُدمت الالتزامات الأميركية لإسرائيل بعد اتخاذها قرارات سياسية-أمنية[٤].

وسبق أن وُقع، أول التزام أميركي بالمحافظة على وجود إسرائيل عام ١٩٥٠، عندما التزمت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بالمحافظة على الوضع القائم في الشرق الأوسط، بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة بين دولة إسرائيل والدول العربية. ومنذ لك الوقت، حرص رؤساء الولايات المتحدة على تأكيدهم الالتزام بوجود وسلامة دولة إسرائيل.

وكان الالتزام الأميركي، الموقع عام ١٩٥٧، الذي تتعهد فيه الولايات المتحدة، بأن تفتح بالقوة

مضائق تيران وصنافير في حال إغلاقها من قبل الجمهورية العربية المتحدة، ومد إسرائيل بالنفط، هو أول التزام أميركي منفرد لإسرائيل، وقعه وزير الخارجية حينها جون فوستر دالاس على شكل «مذكرة تعاون»، سلمت إلى السفير الإسرائيلي في واشنطن آبا إيبان، بهدف إقناع إسرائيل بالموافقة على طلب الأمم المتحدة سحب قواتها من شرم الشيخ وقطاع غزة، الذي تأخر عدة أشهر، لرغبتها في ضم هاتين المنطقتين لمناطق نفوذها.

ويبدو أن عدم قدرة الرئيس جونسون، على كسر الحصار، كان الأساس في إعطاء إسرائيل الضوء الأخضر لشن العدوان على الدول العربية والفلسطينيين عام ١٩٦٧. وعلى عكس السياسة الأميركية في حرب السويس، تمتعت إسرائيل بدعم قوي من جانب الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب[٥].

وعند تولي بيل كلينتون رئاسة الولايات المتحدة، قدم التزاما آخر، على قائمة الالتزامات الطويلة، تمثل بتعهد مكتوب إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود براك، بالمحافظة على أمن إسرائيل، وضمان وجودها في حدود آمنة والمحافظة وتعزيز قدرة إسرائيل في الردع والدفاع عن نفسها بنفسها من أيه هجمات أو تهديدات مجتمعة. وأعاد التأكيد على هذه الالتزامات، الرئيس جورج بوش الابن برسالته التي بعثها لرئيس الحكومة الإسرائيلية أريئيل شارون في شهر نيسان عام ٢٠٠٤.

وبعد حرب تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٧٣، وتبني منظمة التحرير الفلسطينية برنامج الحل المرحلي، طلبت إسرائيل وتلقت من الولايات المتحدة مجموعة من الالتزامات والتعهدات ضد المنظمة والشعب الفلسطيني، ما زال يعاني الفلسطينيون من نتائجها حتى هذا اليوم.

وكان أول التزام بهذا الخصوص هو تعهد الولايات المتحدة، بفرض «الفيتو» في مجلس الأمن على أية محاولة لتغيير قرارات ٢٤٢ و ٣٣٨ بصورة تتعارض مع النص الأصلي، وهو القرار الذي رفض الفلسطينيون الاعتراف به حتى عام ١٩٨٨[٦].

وبناء على قانون سنه الكونغرس، يعاد التصويت عليه كل عامين حتى اليوم، التزمت الولايات المتحدة بالامتناع، عن تقديم أية مبادرة لحل النزاع العربي الإسرائيلي من دون التشاور مع إسرائيل.

وكان أهم وأخطر هذه الالتزامات على القضية الفلسطينية، ما يسمى بالشروط الأميركية التي طلبها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحاق رابين، وتمت الموافقة عليها من قبل وزير الخارجية الأميركية حينها هنري كيسنجر، في الاجتماعات التي عقدت بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة من أجل التوصل لاتفاق على سحب القوات الإسرائيلية إلى خط ١٠١ (وهي المفاوضات التي عرفت بهذا الاسم)[٧]. وخلال أحد هذه الاجتماعات طلب وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر من رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك إسحاق رابين الموافقة على الاقتراح الأميركي بالانسحاب داخل شبه صحراء

سيناء، فرد عليه رابين بالرفض بالقول : «إذا انسحبنا، سيفسر العرب ذلك على أننا هزمنا في هذه الحرب وبالتالي لن ننسحب»[٨]. وأضاف: «إن إسرائيل جزء من المشروع الغربي في منطقة الشرق الأوسط وعليكم حمايته من المخاطر التي تهدده». وتحت الضغوط التي مارسها وزير الخارجية الأميركي، طلب رابين مقابل الانسحاب إلى خطوط جديدة داخل سيناء أن تعوض إسرائيل في الجبهة الفلسطينية. وعندما سأله كيسنجر: «ماذا تطلبون». رد عليه رابين: «نريد من الولايات المتحدة أن تقدم التزاما لإسرائيل بعدم الاعتراف بـ م.ت.ف، إلا إذا اعترفت بالشروط التالية وهي: نبذ الارهاب والاعتراف بحق إسرائيل بالوجود وبأن قرار ٢٤٢ هو أساس الحل في الشرق الأوسط[٩]». وبهذه الطريقة خرجت إلى العلن الشروط الأميركية المطلوب من م.ت.ف إقرارها، وبدأ الحصار الذي فرضته إسرائيل والغرب، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأميركية على تحرك الفلسطينيين السياسي الذي استمر حتى عام ١٩٩٢ عندما جرت مفاوضات سرية بين إسرائيل و م.ت.ف، أدت إلى توقيع اتفاق إعلان المبادئ والاتفاقات التي تلتها.

والغريب في الأمر، أن الشروط الأميركية، تحولت إلى شروط اللجنة الرباعية الدولية الراعية لعملية السلام بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل، وأصبحت سوطا مسلطا على رقاب الفلسطينيين في أي تحركات محلية أو إقليمية أو دولية.

وقدمت الولايات المتحدة التزامات أخرى لإسرائيل، تتعلق بالحل النهائي مع الفلسطينيين، عندما عرض بوش الإبن في رسالته موقف الولايات المتحدة من قضيتين جوهريتين في النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني هما اللاجئين والحدود. ففي مسألة اللاجئين، أوضحت الرسالة أن الولايات المتحدة ملتزمة بقوة بأمن إسرائيل ووجودها كـ «دولة يهودية». وفي مسألة اللاجئين ذكرت الرسالة، «سيكون واضحا ومتفقا عليه» أن أي حل معقول وطبيعي لمشكلة اللاجئين يجب أن يتم في حدود الدولة الفلسطينية. وأضافت الرسالة، أن الحل النهائي يتطلب الاعتراف بإسرائيل في حدود آمنة، ترسم في المفاوضات بين الجانبين حسب قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨. وأضافت الرسالة، لا يعقل أن تكون نتائج مفاوضات التسوية النهائية هي بالعودة المطلقة لحدود الهدنة عام ١٩٤٩، نتيجة الوقائع على الأرض ،خاصة وجود تجمعات سكانية يهودية بالمناطق.

وما فشلت إسرائيل في الحصول عليه من الإدارات الأميركية المختلفة، حصلت عليه من الكونغرس، الذي تتمتع فيه إسرائيل واللوبيات اليهودية والمسيحية الصهيونية المختلفة بقوة وتأثير، أكبر من ذلك التأثير الموجود في البيت الأبيض، حين صوت الكونغرس عام ١٩٩٥ على قانون الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس، وهو القانون الذي نفذه أخيرا الرئيس الأميركي الحالي دونالد ترامب[١٠]

، وقانون عدم طرح مبادرة سياسية لحل القضية الفلسطينية من دون التشاور مع إسرائيل، وقانون عدم فرض حل على إسرائيل بالقوة، وهما قانونان يتم تجيد التصويت عليها مرة كل عامين.

ولمنح بعض الالتزامات الأميركية لإسرائيل بعداً قانونيا ملزما، اتجهت الأخيرة بدعم من اللوبيات الصهيونية المختلفة إلى مجلسي النواب والكونغرس، لأخذ موافقة ثلثي أعضاء المجلسين على تحويل هذه الالتزامات، إلى قوانين ملزمة لأية إدارة أميركية، إن كانت سابقة أو لاحقة.

ولم يتوقف الأمر، على التزامات قدمتها الإدارات الأميركية المختلفة، فقد اتبعت سياسات أميركية، خطيرة بحق الشعب الفلسطيني، مثل الطلب الإسرائيلي، بمنع وصول المهاجرين اليهود من روسيا إلى الولايات المتحدة أو الغرب، بهدف إجبارهم على التوجه نحو دولة إسرائيل، ما أدى إلى هجرة مليون يهودي روسي (٣٠٠ ألف منهم غير يهود) إليها، بهدف مواجهة الخلل الديموغرافي المتنامي في فلسطين الانتدابية، ما أعطى هامشا كبيرا لإسرائيل في مد صراعها مع الفلسطينيين لفترة أطول من دون التوصل لحل[١١]. وقبل الخطوة الأميركية فضل ٩٠٪ من المهاجرين اليهود في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي السابق، الهجرة إلى الغرب، في حين فضل ١٠٪ منهم التوجه إلى إسرائيل.

المساعدات الأميركية

شكلت المساعدات الأميركية، رافدا حيويا لإسرائيل وملاذا آمنا من المشاكل الاقتصادية التي تعرضت لها الدول بعد الحرب العالمية الثانية. ولا تكاد تندلع أزمة اقتصادية في إسرائيل، إلا وتكون الولايات المتحدة حاضرة بشقيها –الرسمي والمدني. وتنقسم المساعدات الأميركية لإسرائيل إلى نوعين :الأول، مساعدات مباشرة وغير مباشرة من الحكومة الأميركية ومؤسساتها المختلفة. والثاني، مساعدات من يهود الولايات المتحدة.

وجاءت المساعدات المباشرة عبر:

المساعدات الرسمية، وهي مكونة من مساعدات مادية وعينية مباشرة في المجالات العسكرية والاقتصادية. وتنقسم المساعدات الأميركية إلى هِبات وقروض، حرصت الإدارات الأميركية المتعاقبة على تحويلها إلى هِبات فيما بعد.

مساعدات يقدمها يهود الولايات المتحدة لمختلف الجهات في إسرائيل.

حملات تبرعات تقوم بها المؤسسات الإسرائيلية المتنوعة في مختلف الولايات الأميركية.

أموال الصدقة (يقابلها الزكاة في الديانة الإسلامية) التي تجمع من اليهود وفق الشريعة اليهودية،

التي تبلغ نسبتها عُشر الأرباح التي يحققها اليهود خلال معاملاتهم التجارية، ولا تتوفر معلومات حول كميتها، لكن انتشار التجمعات السكانية للمتدينين ومدارسهم في دولة إسرائيل، يشير إلى الرقم الهائل للمساعدات التي تقدم لهم.

مساعدات يقدمها أنصار التيار المسيحي-الصهيوني الأميركي، ولا توجد أرقام محددة حولها.

أما المساعدات غير المباشرة، فقد جاءت عبر:

الاعفاءات الضريبية التي تتمتع بها البضائع والمنتوجات الإسرائيلية المختلفة.

تسليم المساعدات المالية مباشرة لحسابات إسرائيلية في الولايات المتحدة، على عكس المساعدات المقدمة لبقية دول العالم، ما مكن إسرائيل من تشغيل هذه الأموال في البنوك، والاستفادة من فوائدها التي وصلت لمئات ملايين الدولارات.

أموال يتم توفيرها، نتيجة سياسة المصانع الأميركية في التعامل مع إسرائيل، خاصة في مجال الأسلحة، حيث تعامل هذه المصانع إسرائيل، بنفس معاملة الولايات المتحدة، وهذا ما يفسر ارتفاع فاتورة السلاح الأميركية للعرب، مقارنة مع إسرائيل.

إعفاء الأموال التي يتم التبرع بها لإسرائيل من الضرائب، أسوة بما هو متبع مع التبرعات للمؤسسات والجمعيات الأميركية.

فيما يتعلق بالمساعدات الرسمية، فقد بدأت تتدفق على إسرائيل عام ١٩٤٩، قدم بعضها على شكل هِبات، والأخر على شكل قروض، حولتها الإدارات الأميركية المتعاقبة إلى هِبات. وبلغت قيمة أول مساعدة أميركية ١٠٠ مليون دولار، وكان هدفها إسكان المستعمرين اليهود القادمين من أوروبا مكان الفلسطينيين. وحتى عام ١٩٦٦ وصلت المساعدات الأميركية لإسرائيل ،في المجالين الإقتصادي والعسكري إلى ما يقارب ١,٥ مليار دولار[١٢].

ومقارنة مع دول أوروبا الغربية (١٧ دولة) التي حصلت على ١٣ مليار دولار في إطار خطة وزير الخارجية الأميركي جورج مارشال لإعادة بنائها، يتبين أن إسرائيل حصلت على ثالث أكبر مبلغ من المساعدات الأميركية، بعد بريطانيا وفرنسا اللتان حصلتا على ٤٩٪ من قيمة مشروع مارشال، وبذلك تفوقت إسرائيل على دول تلقت مساعدات أميركية مثل ألمانيا وإيطاليا، ومن حيث المقارنة مع عدد السكان تكون إسرائيل الدولة رقم واحد في تلقي المساعدات الأميركية حتى عام ١٩٦٦. يذكر أن مشروع مارشال توقف بعد أربعة سنوات (١٩٥٢) من العمل به، بينما استمرت إسرائيل بتلقي المساعدات حتى الان. واستثمرت الأموال التي حصلت عليها إسرائيل خلال تلك الفترة

في المجالين العسكري والمدني مثل توسيع حدود إسرائيل خارج سياق قرار التقسيم، وفي إسكان المهاجرين اليهود بدلا من الفلسطينيين الذين طردوا من مدنهم وبلداتهم وقراهم الأصلية.

وتشير المعطيات، أنه ومنذ نشأتها حتى عام ٢٠١٧، تلقت إسرائيل مساعدات عسكرية واقتصادية رسمية من الولايات المتحدة بقيمة ١٣٠ مليار دولار منها أكثر من ٩٠ مليار دولار مساعدات عسكرية، والبقية مساعدات مدنية تشمل المستوطنين المسيطرين بالقوة على أراضي الفلسطينيين ضمن حدود عام ١٩٦٧. وحسب الاتفاق الموقع بين الجانبين عام ٢٠١٦ (الأميركي والإسرائيلي) سيصل مجموع ما ستتلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة ١٧٠ مليار دولار عام ٢٠٢٨ [١٣]، منها ١٣٠ مليار دولار مساعدات عسكرية.

وحسب القيمة الشرائية للدولار عام ٢٠١٣، قدرت مصادر إسرائيلية، أن مجموع المساعدات الأميركية لإسرائيل حتى عام ٢٠٢٨، تساوي ٢٧٣ مليار دولار أميركي[١٤]، من دون حساب المساعدات غير المباشرة.

وتشكل المساعدات المذكورة من ٣٪-٤٪ من الانتاج القومي الإسرائيلي على مدار وجودها، أو أكثر من ١٨,٥٪ من موازنة وزارة الدفاع الإسرائيلية حتى عام ٢٠١٧، من دون احتساب نسبة المساعدات العسكرية الطارئة أو المتعلقة بتطوير الأسلحة[١٥].

إضافة لذلك، وحسب الاتفاق الموقع عام ٢٠١٦، الذي ستقدم فيه الولايات المتحدة ٣٨ مليار دولار حتى عام ٢٠٢٨، تنازلت إسرائيل عن بند المساعدات المدنية، لصالح المساعدات العسكرية، ما يرفع نسبة المساهمة الأميركية في ميزانية وزارة الدفاع الإسرائيلية إلى ٢٥٪ من ميزانيتها.

ولا تشمل المساعدات الأميركية المساعدات العسكرية الطارئة، كتلك التي قدمت لإسرائيل بعد حرب تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٧٣ التي وصلت قيمتها ٢,٣ مليار دولار، ولا الضمانات الأميركية التي تصل لعشرات مليارات الدولارت التي قدمتها الولايات المتحدة لإسرائيل، منذ بدء هجرة اليهود الروس، مرورا بالأزمات الاقتصادية المختلفة التي واجهتها إسرائيل خلال الانتفاضة الثانية، التي وفرت إسرائيل بفضلها مئات ملايين الدولارات.

كذلك الأمر، لا تشمل المساعدات العسكرية الأميركية لإسرائيل، مشاريع تطوير وبحث مشترك مثل، تطوير منظومة صواريخ حيتس»، أو القبة الحديدية، التي ساهمت الولايات المتحدة في ميزانيتها بـ ١,١ مليار دولار، لمشروع ميزانيته الكلية ١,٣ مليار دولار. بمعنى، أن تلك المشاريع ما كان لها ان تنجح وتستمر، لولا المساعدة الأميركية السخية لها[١٦].

ومن ضمن المساعدات التي تتلقاها إسرائيل من الولايات المتحدة، الذخيرة التي تُخزن في إسرائيل،

البالغ قيمتها ٦ مليار دولار، وسبق لإسرائيل أن استخدمتها في عدوانها على لبنان عام ٢٠٠٦ وقطاع غزة. وتطالب إسرائيل بزيادة مخزون الذخيرة الموجود على أراضيها بقيمة ١٢ مليار دولار[١٧].

وفيما يتعلق بالمساعدات التي يقدمها يهود أميركا لدولة إسرائيل، فقد صرح عضو الكنيست عن المعسكر الصهيوني ورئيس لوبي العلاقات الإسرائيلية الأميركية نحمان شاي، أن يهود العالم تبرعوا لإسرائيل بما نسبته ٤٠٪ (٢,١ مليار دولار) من حجم التبرعات التي تجمعها الحركة الصهيونية وأذرعها المختلفة في العالم، منها ٢ مليار تأتي من يهود الولايات المتحدة[١٨].

ونوه شاي أن المساعدات المالية من يهود الولايات المتحدة تضاعفت خلال الـ ٢٥ عاما الماضية لتصل إلى ٥٠ مليار دولار في الفترة الممتدة من عام ١٩٩١-٢٠١٦[١٩]. ويشير ذلك المعطى، أن يهود أميركا قدموا من عام ١٩٧٦-١٩٩٠ ما قيمته ٢٥ مليار دولار.

وإذا قدرنا أن مساعدات يهود أميركا لدولة إسرائيل منذ نشاتها حتى عام ١٩٧٦، بلغت نصف ما تلقته حتى ذلك العام -١٣ مليار دولار- ، تصل قيمة التبرعات التي قدمها يهود الولايات المتحدة حتى عام ٢٠١٧ إلى ٨٨ مليار دولار. وإذا استمر تدفق أموال يهود أميركا، بالشكل والطريقة المذكورة أعلاه (٢ مليار دولار سنويا)، سيضاف ٢٠ مليار دولار حتى عام ٢٠٢٨، ليصبح المبلغ الكلي حتى ذلك العام ١٠٨ مليار دولار.

وحسب التقديرات الإسرائيلية لعام ٢٠١٣، يساوي المبلغ المذكور أعلاه، أقل بقليل من ٢٠٠ مليار دولار أميركي.

ولم تحسب من أموال الدعم اليهودي، عمليات تمويل إحضار اليهود من الاتحاد السوفييتي ومن السودان واثيوبيا، والمساهمة في تغطية احتياجاتهم داخل إسرائيل نفسها، أو المساعدات الفردية التي يقدمها أغنياء اليهود في الولايات المتحدة التي تصل لعدة مئات من ملايين الدولارات سنويا، فعلى سبيل المثال تتلقى مؤسسة هداسا الطبية ١٠٠ مليون دولار سنويا، أو الأموال التي تجمعها المؤسسات والجمعيات والأحزاب الإسرائيلية في الولايات المتحدة، أو أموال الصدقة التي تقدم للمتدينين في إسرائيل والضفة الغربية.

وإجمالا يمكن القول، أن المساعدات الأميركية بشقيها الرسمي والشعبي (المقدمة من يهود أميركا) وصلت إلى أكثر من ٢٧٨ مليار دولار (١٧٠ مليار دولار من الحكومة الأميركية و ١٠٨ مليار دولار من يهود أميركا). ووفق القيمة الشرائية لعام ٢٠١٣ يصل المبلغ إلى ٤٧٣ مليار دولار حتى عام ٢٠٢٨. وتشكل المساعدات المذكورة من ٦-٧٪ من الناتج القومي الإسرائيلي سنويا.

صديق عدوي - عدوي

اتفق جميع المفكرين العسكريين والسياسيين في المنطقة وخارجها أن مصالح الولايات المتحدة الأميركية، التي لا تخفيها في المنطقة، هما دولة إسرائيل والطاقة. ومن أجل المحافظة على سلامتها وعدم المس بأمنها ،من خلال المحافظة على تفوقها العسكري على الدول العربية المحيطة بها، قدمت الولايات المتحدة لدولة إسرائيل التزامات ومساعدات عسكرية (رسمية وشعبية) هائلة جدا، تقدر بنصف تريليون دولار، بهدف فرض منطق ورواية مزورة قائمة على هرطقات وخزعبلات دينية وأسس تاريخية وجغرافية، تتعارض مع أبسط الحقائق، التي تثبت بأن إسرائيل ليست جزءا من هذه، وهي حقيقة وواقع فرض بالقوة العسكرية ليس أكثر.

وفي المجال الدولي شكلت، الالتزامات الأميركية لإسرائيل، حماية لها من الضغوط الأوروبية الناعمة، ومنحتها مظلة لمواجهة الضغوط والقرارات الصادرة عن مؤسسات الأمم المتحدة، مثل استخدام حق الاعتراض «الفيتو» ٣١ ضد إدانة ممارسات إسرائيل. ووصلت الوقاحة الأميركية بالدفاع عن إسرائيل، حدا دفعها لاستخدام البلطجة السياسية والتهديدات، ضد الدول التي تتعارض سياستها مع السياسات الأميركية في كل ما يتعلق بإسرائيل.

كما أوجدت الالتزامات السياسة والعسكرية والمساعدات الأميركية الهائلة لإسرائيل، تيارا في العالم العربي، يعتقد أن الولايات المتحدة، وفي كل الأحوال، لن تسمح بهزيمة إسرائيل وستمنع المس بأمنها، وستتدخل لحمايتها إذا تطلب الأمر ذلك. ما أوجد نظرية، تبين فيما بعد أنها خاطئة تماما، وهي أن ٩٩٪ من أوراق الحل في يد الولايات المتحدة.

وفي مجال المفاوضات العربية-الإسرائيلية والإسرائيلية-الفلسطينية، وقفت الولايات المتحدة خلف إسرائيل، وعملت كمروج وضاغط للموافقة على المقترحات الإسرائيلية، خاصة في المسار الفلسطيني، الذي عملت فيه الولايات المتحدة وسيطاً منفرداً على مدار المسيرة السلمية التي بدأت مع الفلسطينيين عام ١٩٩١ بعد مؤتمر مدريد.

التجربة العربية والفلسطينية العميقة، في التعامل مع الولايات المتحدة، أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الشريك والحليف والداعم لإسرائيل، لا يمكن أن يكون داعما أو وسيطا أو صديقا للعرب والفلسطينيين، أَنَسينا ما قاله المثل العربي الشهير «صديق عدوي –عدوي».

الهوامش

١ . الغوييم في اللغة العبرية هم الأغراب أو الكفار، وفي اللغة العامية استخدمت الكلمة للتعالي والتكبر على الأغيار.

٢ . عبد العاطي محمد، محرر، الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة، مجموعة تقارير، ص ٣ ، الجزيرة للبحث والنشر، ٢٠٠٦.

٣ . نفس المصدر، ص ١١.

٤ . يهودا بن مئير وليمور سمحوني، الالتزامات الأميركية اتجاه إسرائيل-الأبعاد السياسية والقانونية، ص ٣، مذكرة خاصة صادرة عن مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة تل أبيب، ٢٠١٠.

٥ . أرشيف جلسات الحكومة الإسرائيلية قبل حرب عام ١٩٦٧، جلسة المساء التي نوقشت فيها المواقف المختلفة من إغلاق مضائق تيران وصنافير.

٦ . مصدر سبق ذكره، الالتزامات الأميركية اتجاه إسرائيل-الأبعاد السياسية والقانونية، ص ١١.

٧ . غولد دوري، الحدود التي يمكن الدفاع عنها، رئيس مركز القدس لشؤون الجمهور والدولة، وسفير إسرائيل السابق في الأمم المتحدة. كلمة غولد في مؤتمر هيرتسليا السادس الذي عقد عام ٢٠٠٦ .

٨ . نفس المصدر

٩ . نفس المصدر

١٠ . محطة فرنسا ٢٤ نقلت مع غيرها من المحطات خطاب الرئيس الأميركي دونالد ترامب حول الاعتراف بمدينة القدس عاصمة لإسرائيل، ونقل السفارة من تل أبيب إلى القدس، ٢٠١٧/١٢/٦.

١١ . أندريا أربيل، فتح السدود، مراجعة كتاب حول هجرة يهود الاتحاد السوفييتي السابق، نشرة صادرة عن مركز تكنولوجيا التعليم، ٢٠٠٦.

١٢ . بيرت روني، المساعدات الأميركية لإسرائيل: تقييم من جديد، مجلة آخر التطورات الإستراتيجية، ص ٣٥، العدد العاشر، جامعة تل أبيب، مركز أبحاث الأمن القومي، ٢٠٠٧.

١٣. فيلدمان ندال وأورا كورت، المساعدات من الولايات المتحدة الأميركية منذ قيام دولة إسرائيل تساوي ٨٦٠ مليار شيكل، كلكليست، مجلة اقتصادية إسرائيلية، ٢٠١٣/٣/٢٠.

١٤ . نفس المصدر.

١٥ . إسفيلد فين، بيل، المساعدات العسكرية الأميركية لإسرائيل من منظور آخر، تقرير صادر عن منظمة حقوق الانسان الدولية حول تعذيب أطفال فلسطينيين بأموال أميركية، ٢٠١٧/١١/١٤.

١٦ . شئول أدستردمسكي وعمري ملمن، ١,١ مليار دولار من الولايات المتحدة و٢٠٠ مليون دولار من إسرائيل لتطوير منظمة مواجهة الصواريخ «كيبات برزيل»، كلكليست، مجلة اقتصادية إسرائيلية، ٢٠١٤/٤/١٧.

١٧ . مصدر سبق ذكره، مجلة أخر التطورات الإستراتيجية، ص ٣٩، العدد العاشر.

١٨ . في الـ ٢٥ عاما الماضية: ضوعفت تبرعات يهود الولايات المتحدة، تصريح لعضو الكنيست نحمان شاي في اجتماع لجنة الهجرة والاستيعاب بالكنيست، أيار/ مايو ٢٠١٦.

١٩ . نفس المصدر.

فلسطين في مرآة المستشرقين

عبد الحميد محمود ابو النصر*

كانت فلسطين وبلاد الشام ومازالت محط انظار الغرب بما تمثله من حضارة زاخرة، تجسد الحقب التاريخية التي مرت بها، بما انعكس على حياتها وسلوكها ومجتمعها ووصفها المعماري الاصيل، وإرثها الذي شكل مظهرها العام، لذلك ظلت قبلة المستشرقين، الذين ارتبطوا بالمكان واسرهم سحره، رغم ان الحملات الاستعمارية كانت تهدف لخدمة مشروعها في المنطقة، الا ان المستشرقين انقمسوا بين ان يكونوا جزءا من هذا المشروع، وآخرين ذوي رؤية موضوعية، شكلوا مجموع الكتاب والمؤرخين والرسامين والفنانين والجغرافيين وغيرهم الذين صاحبوا الحملات او البعثات الى بلاد الشام لاستكشافها وتسهيل مهمة فهم الآخر العربي.

واعتبر البعض ان الاستشراق ظهر بظهور الديانات ولكنه لم يكن معروفا كعلم او مصطلح بل كان ممارسة دون منهجية، وهناك نقوش اثرية تاريخية تبين ذلك، وبعدها تطورت حركة الاستشراق في القرون الوسطى لتؤكد ما سبق من خلال الوثائق التاريخية والنصوص الجغرافية وعملية التبادل المعرفي والتي ظهرت في كتب الاسفار، وهناك من يرى انه ظهر بظهور الاسلام، واراء اخرى تقول انه بدأ بقرار من مجمع فيينا الكنسي الذي دعا الى انشاء كرسي لدراسة اللغات العربية، والعبرية، والسريانية في عدد من المدن االأوروبية فيما اعتبر (هولت P.M HOLT) أن القرارات الرسمية لا يتم تنفيذها بالطريقة التي ارادها صاحب القرار لذلك فان القرار البابوي هناك يعد البداية الحقيقية للاستشراق، فيما ارجع البعض ظهوره لزمن الوجود الاسلامي في الاندلس.

وايا كانت الاراء السابقة فان حركات الاستشراق في فلسطين وبلاد الشام لم تظهر بصورة جلية الا في فترة التاريخ الحديث، وان الاستشراق الحقيقي جاء بعد ظهور النهضة الأوروبية فانطلقت

* كاتب ومؤرخ فلسطيني، رئيس مجلس بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية

بحوثها في القرن السادس عشر، وازداد النشاط الاستشراقي بعد تأسيس كراسي اللغة العربية وعدد من الجامعات الأوروبية مثل كرسي اكوسفورد عام ١٦٣٨م، وكامبريج عام ١٦٣٢م ومع تأسيس الجمعيات العلمية كانت انطلاقة كبرى للاستشراق واسهمت في استكشاف الشرق وكان اوجها خلال الحملة الفرنسية على بلاد الشام ١٧٩٩م بقيادة نابليون بونابرت.

وكانت رحلة الحجاج إلى الأراضي المقدسة تعني، في نظر الغرب، فلسطين، مقر الديانات الثلاث، ونظراً إلى أهمية أريحا تاريخياً كبقعة سمّيت»مدينة النخيل»، وهي أقدم مدن العالم القديم التي تعود إلى تسعة ملايين سنة، وارتبطت بمرور الأنبياء والغزاة والفاتحين. وشكلت يافا موئلاً للحجاج الآتين من الغرب، الذين كانوا يصلون إليها في تشرين الثاني نوفمبر، ومنها ينتقلون إلى القدس. وقد شجعت حرية الملاحة في مرفأ بيروت، منذ مطلع ثلاثينات القرن الـتاسع عشر، الأجانب على زيارة الأراضي المقدسة.

وقد يكون التجاذب في حالة الاستشراق بدأ منذ القدم في محاولة جدلية بين المستشرقين والاسلام وهذا جعل هناك حكماً مسبقاً سلبا او ايجابا انعكس على اهم المنجزات للمستشرقين من كتابات وفنون ورسومات وركزوا في كثير من مخرجاتهم على هذا البعد في الشرق وخاصة بلاد الشام وفلسطين .

أشكال الاستشراق في فلسطين

حملت حركة الاستشراق في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة عدداً من الاوجه والاشكال، وقد يكون اهمها وابرزها شكلين حملا الدور الابرز:

***اولاـ الشكل الفكري الكتابي:**

فقد برز كُتاب مستشرقون اهتموا مبكرا بالعرب ولغتهم وثقافتهم والادب والشعر والسياسة والتاريخ وغيرها من المواضيع التي عالجوها، رغم ان هناك حذراً من تناول بعضها لما تحمله من افكار مغلوطة اتجاه العرب وحكم ظاهري مطلق، الا انه لايمكن تجاوز كتاباتهم والتي تعد مرجعا في زوايا التاريخ المفقود، وقد ظهرت عدة اسماء لكتاب مستشرقين ارتبطوا بفلسطين اهمهم :

١ ـ (اشتينشنيدر ١٨٠٧ – ١٩٠٧م) مستشرق نمساوي تخصص في الدراسات العبرية والمناظرات بين المسلمين واليهود وقد انضم للصهيونية ليخدم تحركهم في فلسطين.

٢ ـ (اوبتشيني) راهب فرنشسكاني ومستشرق ايطالي كان حارس كنيسة المخلص في القدس وعاد

الى روما متخصصا في لغات الشرق.

٣ ـ (بالمر ١٨٤٠–١٨٨٢م) مستشرق انجليزي وذكر انه من عملاء الاستعمار وكان من ضمن البعثة الاستكشافية بعد انشاء صندوق استكشاف فلسطين وربطها بالتاريخ المقدس لدعم الرؤى الاستعمارية وزار مناطق الشرق منها القدس ولبنان ودمشق ومن كتبه اورشليم مدينة هيرود وصلاح الدين.

٤ ـ ولد (بانت١٨٩٣م) في كروتوشين وكان يدرس اللغة العربية والفلسفة الاسلامية وادابها في الجامعة العبرية في القدس وتخصص في اللغات الآرامية والكنعانية.

٥ ـ (بيلياندر ١٥٠٤- ١٥٦٤م) عالم سويسري في اللغات السامية والعبرية.

٦ ـ (برجشتر يسر ١٨٨٦ – ١٩٣٣) مستشرق الماني مسيحي بروستنتي (لوثري) برز في نحو العبرية واللغات السامية عامة واللهجات العربية وقراءات القرآن ، وكلفته وزارة الحربية الالمانية بالقيام برحلة استكشافية لسوريا وفلسطين عام ١٩١٨م .

٧ـ (برشم ١٨٦٣- ١٩٢١م) مستشرق سويسري تخصص في النقوش الاسلامية والعربية ، ونشر وحقق مجلدات حول النقوش الاسلامية في القدس وشمال سوريا وغيرها من المناطق.

٨ـ (بلسنر ١٩٠٠ – ١٩٧٣م) مستشرق يهودي الماني اهتم بالكمياء العضوية عند العرب هاجر الى فلسطين وعمل مدرسا في حيفا ودرس في مدرسة القدس ثم عمل امين المكتبة التابعة لمدرسة الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية بالقدس.

٩ـ (بيترمن ١٨٠١ -١٨٧٦م) مستشرق الماني حصل على الكثير من المخطوطات كان استاذ اللغات الشرقية في جامعة برلين ، وقنصلا لشمال المانيا في فلسطين حصل خلالها على مخطوطات ومعلومات عن السامريين والموارنة واليزيدية في فلسطين وسوريا وتخصص في اللغة الارمينية.

١٠ ـ (جرمانوس الدي من سيليزيا ١٥٨٨-١٦٧٠م) راهب مبشر الماني، ودرس اللغة العربية في فلسطين التي تخصص بها.

١١ ـ (جواشون ١٨٩٤-١٩٧٧م) مستشرقة فرنسية تخصصت في الفلسفة الاسلامية ومن مؤلفاتها المملكة الاردنية في واقعها الحقيقي ، الماء هو المشكلة الحقيقية لمنطقة نهر الاردن، اورشليم نهاية المدينة العالمية.

١٢ ـ (جويتاين ١٩٠٠م) مستشرق مجري يهودي اهتم بالمجتمع اليهودي في الشام ومصر في العصور الوسطى ، كان يعطي دروساً في حيفا ثم عين في معهد الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية بالقدس.

١٣ـ (جيجر ابراهام ١٨١٠– ١٨٧٤م) حبر يهودي الماني تناول التشابه فيما تناوله القران والكتب المقدسة ، وكان ضد الصهيونية وضد العودة لجبل صهيون (فلسطين).

١٤ـ (دارنبور جوزيف ١٨١١ – ١٨٩٥م) مستشرق فرنسي من مؤلفاته بحث في تاريخ وجغرافيا فلسطين بحسب التلموديات وسائر المصادر الربانية.

١٥ ـ (ديسو ١٨٦٨– ١٩٥٨م) مستشرق فرنسي دارت أبحاثه حول سوريا من اقدم العصور حتى العصر الاسلامي ، من اهم مؤلفاته العرب في سوريا قبل الاسلام ، الآثار الفلسطينية واليهودية في متحف اللوفر ، طبغرافيا تاريخية لسوريا في العصرين القديم والوسيط ، تعليقات عن الاساطير السورية ، تقديم الاضاحي عند بني اسرائيل وعند الفنيقيين.

١٦ ـ (ريلند ١٧١٨م) مستشرق هولندي الف كتاب فلسطين، واهتم بالنقوش والنقود المكتشفة في فلسطين موضحة بحسب الاثار القديمة.

١٧ ـ (زيتسن ١٧٦٧-١٨١١م) مستشرق ورحالة الماني ، زار سوريا وفلسطين وشرق الاردن والتقى بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي واهم مؤلفاته (اشعار سوريا وفلسطين) و(بلاد ما وراء الاردن وبلاد العرب ومصر السفلى).

١٨ ـ (شولتهس ١٨٦٨-١٩٢٢م) مستشرق سويسري اختص باللغات والاداب الشرقية من انجازاته كتاب (معجم السريانية الفلسطينية) ، (شذرات فلسطينية مسيحية من المسجد الاموي في دمشق).

١٩ ـ (كاله ١٨٧٥-١٩٦٤م) مستشرق الماني اختص بتحقيق النص العبري للكتاب المقدس ، وسافر الى نابلس لدراسة احوال السامريين.

٢٠ ـ (كمفماير ١٨٦٤-١٩٣٦م) مستشرق الماني عمل استاذا للهجات المصرية والسورية ، من أبحاثه (الاسماء القديمة في فلسطين وسوريا الحاليتين) ، (خمسة الاف مثل من فلسطين) ، (دمشق وثائق عن كفاح العرب في سبيل الاستقلال).

٢١ ـ (لتمن ١٨٧٥-١٩٥٨م)مستشرق الماني اهتم بالنقوش العربية القديمة، تخصص في اللاهوت ودعته جامعة برنستون ليشترك في بعثة اثرية للتنقيب عن الاثار السامية في سوريا وفلسطين ، ومن اعماله قراءات في النقوش التدمرية والثمودية والنبطية واصدر مؤلفاً حول النقوش السامية.

٢٢ ـ (ماير ليو ادي ١٨٩٥–١٩٥٩م) عالم اثار اسلامية يهودي، هاجر لفلسطين واصبح مدرسا في معهد الدراسات الشرقية التابع للجامعة العبرية ، حتى اصبح مديراً للجامعة العبرية ، ورئيساً لجمعية الاستكشاف الاسرائيلية ، ورئيسا للجمعية الشرقية الاسرائيلية، وقام بحفائر مع سوكنك

في السور الثالث لاورشليم حسب ما يقولون ودراسات في الرنوك الاسلامية والملابس في عصر المماليك، وكتاب المنهدسين المعماريين المسلمين واعمالهم.

٢٣ ـ (نو ميشيل ١٦٣١-١٦٨٣م) مبشر يسوعي ورحالة فرنسي اختير ليقوم بالتبشير في البلاد العربية سوريا وفلسطين من مؤلفاته رحلة جديدة الى الاراضي المقدسة.

٢٤ ـ (يونبول ١٨٠٢-١٨٦١م) مستشرق هولندي من مؤلفاته شروح عن القبيلة السامرية.

***ثانيا ـ الشكل الفني الرسوماتي الفوتوغرافي :**

مع اختلاف الكتاب والنقاد في تعريف المستشرقين إلا أن هناك عاملا ثابتا وهو تأثر الغرب بالحضارات الشرقية مما دفعهم للتعرف عليها عن قرب، ومزج قصص وحكايات الشرق بلوحاتهم وفنهم العريق، رغم عمليات التشويه والمحاولات الفاشلة في إظهارها كحضارة غير قابلة للتطور والتجدد بل تعكس الرجعية والسلبية، إلا أنها أخذت المساحة الأكبر لدى المستشرقين وتجلى ذلك في رحلات الاستكشاف المسيَّرة نحو الشرق.

وكانت من النماذج المشرقة والهامة الفنانين المستشرقين الرسامين والفتوغراف حيث شكلت لوحاتهم مخطوطات فنية ابرزت الحياة العربية اجتماعيا وثقافيا ومعماريا، بكل تفاصيلها ورغم ان بعض اعمالهم كانت ذات طابع امبريالي استعماري الا انها اغنت المكتبة العربية العالمية وشكلت شاهداً مهماً على تلك الحقب التي مرت على بلاد الشام وهي محفوظة الآن في متاحف اوروبا والغرب، بل والرجوع لتلك اللوحات حدد معالمها في كتابة التاريخ وبينت مدى التداخل في الحياة الثقافية والمعمارية لبلاد الشام، فمن يشهد لوحة المسجد الاموي في دمشق ولوحة المسجد الاقصى في القدس يشك انهما نفس المكان لتشابه التفاصيل التي تؤكد عدم القدرة على تغيير ذلك واخفائه في تلك اللوحات.

وبرز كثير من الرسامين المستشرقين اهمهم روبرت ديفدس، الذي ترك اهم اللوحات التاريخية عن مدن بلاد الشام واصبحت فيما بعد مرجعا هاما، حيث كشفت الحياة الطبيعية للمدن والقرى المركزية خاصة ما قبل الاستعمار الحديث حتى تاريخنا المعاصر، ودحضت الادعاءات الاستعمارية بأننا شعوب لم تكن لنا حضارة بالاصل وان الاستعمار جاء ليعمرها ويبنيها.

فن الرسم: اللوحات الفنية في منطقة الشرق الأوسط، وخصوصاً فلسطين والشام ومصر ، تعود للفنانين المستشرقين، أو ما يطلق عليهم (فنانو القرن التاسع عشر الأوروبيون)، باعتبارهم المؤسسين للفنون الاستشراقية التي كانوا يعكسون فيها واقع الشرق. وقد شهد الجزء الأخير من القرن التاسع عشر الاهتمام الأكبر من قبل الغربيين لمعرفة الحياة العربية وطبيعة تلك الحياة وتعقيداتها. وكان

الفنانون عادة أشبه بالموثقين عبر الصورة (اللوحة) بما يوازي الصورة الفوتوغرافية، أو الأفلام الوثائقية في عصرنا الحديث للحياة السائدة في عهدهم، فقد حقق فنانو القرن التاسع وبقدرات عالية كل مظاهر الحياة العربية في ذلك القرن، التي برزت فيها الموضوعات التي تميزت بالألوان وشمس الشرق؛ إذ صوروا المشاهد في الطبيعة أو الحياة الاجتماعية أو مظاهر الآثار.

ومن شدة الاهتمام من هؤلاء الفنانين بهذا الواقع أنشأوا ورشاتهم واستوديوهاتهم الخاصة التي يمارسون فيها الرسوم واستكمال اللوحات التي رسموها. وإذا كان الرسامون المستشرقون قد غطوا بلوحاتهم مظاهر الحياة اليومية في الأزقة والبيوت والأسواق، فلم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل شملت اللوحات الحياة البدوية والقرى والأرياف ومشاهد الفروسية العربية في الصحراء التي تزدان بلونها الذهبي عند الغروب، وصور النساء في الواحات يحصدن الذرة، أو يجلبن الماء.

ان فنون الاستشراق تضم في الواقع عدداً كبيراً من الفنانين وقد تعددت جنسياتهم في تلك الفترة، منهم الإيطاليون والمجريون واليونانيون والبريطانيون والإسبان والألمان. ويمكن القول إن الفنانين الفرنسيين هم الأبرز لهذا الفن، وفي مقدمتهم (جيرومي)، ويأتي تميز الفرنسيين لتعمقهم في الرسم باستخدام الألوان المناسبة والغنية وتناولهم التفاصيل الدقيقة، أما النمساويون فأعمالهم تتميز بالإحساس المرهف والاهتمام بتفاصيل المناظر الداخلية.

ومن أهم الفنانين الرسامين المستشرقين: جاين بابتيس (١٦٧١-١٧٣١)، جين إتيان (١٧٠٢-١٧٨٩)، جان أوغست (١٨٦٧-١٧٨٠) ، ديفيد روبرتس (١٨٦٤-١٧٩٦)، ديلاكروا (١٧٩٨-١٨٦٣)، جون فردريك (١٨٧٦-١٨٠٥)، إدوارد لير (١٨٨٨-١٨١٢)، غوستاف بوولنجر (١٨٢٤-١٨٨٨)، البرتو باسيني (١٨٢٦-١٨٩٩)، ادولف شراير (١٨٢٨-١٨٩٩)، فريدريك ليتون(١٨٣٠-١٨٩٦)، جايمس تايسوت (١٨٣٦-١٩٠٢)، غوستاف اشيل (١٨٤٠-١٨٨٧)، ادوين لورد (١٨٤٩-١٩٠٣)، ثيودور راللي (١٨٥٢-١٩٠٩)، جوليو روزاتي (١٩١٧-١٨٥٨)، بول ليروي(١٨٦٠-١٩٤٢)، ناصر الدين دينيه (١٩٢٩ -١٨٦١))، إدموند دولاك (١٨٨٢ -١٩٥٣)، الكسندر روبتزوف (١٨٨٤-١٩٤٩)، ايسيم كافادار (١٨٨٥-١٩٤٠)، هانز فير (١٩٨١-١٩٠٩)وقد شملوا بفنهم كل مناطق الاستشراق بما فيها فلسطين.

وقد وجدت فنون العمارة اهتماماً كبيراً من الفنانين المستشرقين، وخصوصاً بيوت العبادة، وخاصة المساجد التي اشتُهر برسمها (باسكال سكوت، ألويشس أو كيلي) وما تم رصده من لوحات كبار الفنانين في فلسطين والشام، تشكل مطبوعات المستشرقين الإنكليز الحصة الكبرى منها وأهم المقتنيات، لا سيما أنها تحمل تواقيع كبار الفنانين، وفي طليعتهم (ديفيد روبرتس ١٧٩٦- ١٨٦٤م ووليم هنري بارتليت ١٨٠٩- ١٨٥٤م ووليام جيمس مولر ١٨١٢- ١٨٤٥م)، متوّجة ببعض القطع

للفنان الشهير (جوزف مالورد وليم ترنر ١٧٧٥- ١٨٥١م)، الملقّب بـ»رسام النور»وعبقري الرومانسية الانكليزية، إلى جانب فنانين فرنسيين من أمثال (ساباتييه، وأوجين سيسيري، وجاكوتيه).

واحتلت فلسطين المساحة الكبرى من حيث عدد اللوحات، التي صوروا فيها أغوار الأراضي المقدسة وآثار القدس وبيت لحم والناصرة وأريحا وبيت جبرين، وتبرز من بينها مطبوعة للرسام (براوت S.Prout) مأخوذة من مخطوط (كاثروود) في العام ١٨٣٥م، ويظهر فيها محراب المسجد العمري في القدس.

الرسام الانجليزى (ديفيد روبرتس ١٧٩٦- ١٨٩٤م)، الذى اشتهر كرسام معمارى ومصمم ديكور للمسرح، قبل ان يبدأ رحلته مع الشرق بالذهاب لجنوب اسبانيا والمغرب والتي فتحت شهيته لهذا العالم. حيث توجه بعد ذلك الى مصر وانفعل بالآثار المختلفة هناك ورسم رسومات رائعة عن النوبة وعن السويس عام ١٨٣٨م،ثم ذهب ليافا والقدس والناصرة، وقد وقّع اهم لوحاته خلال رحلته إلى الشرق، وشملت مصر وفلسطين (الأراضي المقدسة) وسورية وشكلت أجمل اللوحات بتناغم الريشة مع إحساس الرسام بروعة المكان وعبق التاريخ، فخلق وجها آخر، وأخرج أجمل الإبداعات، لكن الصورة الوردية لم تكتمل حين وقع ديفيد على إحدى لوحاته للسور الغربي للقدس عبارة (سور الهيكل) في محاولة يائسة لإثبات ما لم تثبته الآثار المكتشفة، وتأكيدا للمحاولات اليهودية لإثبات وجود هيكل سيلمان وتجلى ذلك في بعض لوحاتهم ، ولكن بالمجمل فانه أبدع في رسم الأراضي المقدسة من الناصرة وعكا ونهر الأردن وكنائس بيت لحم والقدس ونابلس، مما يؤكد أن المستشرقين تأثروا وأحبوا فلسطين ولكن لم يخفوا انتماء بعضهم للامبريالية، ورحلتهم جاءت لمهمات معينة، إلا أن الشرق أسرهم ولم يأسروه.

وقد عاد (ديفيد) إلى انكلترا بعد ١٢سنة وفي جعبته مئات الدراسات بالألوان المائية ورسومات الزيت والاعمال الطبوغرافية ، فنشرها بين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٩م فى ستة أجزاء، أثارت الجماهير كثيرا لكونها رسوما تفصيلية عن الأراضي المقدسة في العهدين القديم والجديد تحتوي ٢٤٧ ليتوغرافيا مناظر من الأراضي المقدسة وسورية وفلسطين والجزيرة العربية ومصر والنوبة.

فيما أعمال الانكليزي (وليم بارتليت) تغنت بالشرق وسجلت رحلته إليها للمرة الأولى عام ١٨٣٤م، حين زار يافا وعكا لينتقل بعدها إلى باقي مدن الشام، قبل أن ينهي جولته في دمشق، فرسم مئات المناظر بمحلول أحبار (اللافي lavis) الشفافة القريبة من المائيات، التي نشرها عام ١٨٣٥م في كتاب بعنوان»سورية الأرض المقدسة»، تضمن ١٠٧ لوحات غرافور مع مقدمة كتبها (جون كارن).

كما رسم الألماني (باورنفيند غوستاف ١٨٤٨ ـ ١٩٠٤م) أجمل لوحاته المقدسية، خلال زيارة يافا

والقدس وتمثلت بلوحة زيتية على الخشب كأنها صورة فوتوغرافية مأخوذة من احد أبواب القدس، تصور مدخلا خشبيا بزخرفه الإسلامي يفتح أبوابه على قبة الصخرة بلونها الفضي آنذاك وفسيفسائها الأزرق والأبيض، وبلاطها الرخامي، وحجارة مقدسية تدل على عتق المكان، ويظهر فيها شيوخ بالزي العثماني يتسامرون ويتكئون على عكاكيز الزمن، إلا أن الرسم وُثِق بجملة مدخل هيكل سليمان في القدس رغم عدم وجود أي شيء في اللوحة يدل على الهيكل سوى هذه الجملة التي لن تغير حقيقة التاريخ بالتأكيد، لكن درجة تأثره بفلسطين جعلته يقيم عام ١٩٨٩م في القدس حتى موته، ليبقى فيها إلى الأبد.

وإن المتمعن في تسلسل اللوحات الزيتية والمائية والفوتوغرافية يوضح لنا اختفاء معالم وظهور معالم أخرى والتحول الكبير الذي شمل مدن بلاد الشام وخاصة في القدس وهنا تكمن أهمية هذه اللوحات لأرشفتها التاريخية للتسلسل المكاني والزماني ، والأكيد أن هذه اللوحات أصبحت جزءا من توثيق فلسطين وبلاد الشام العريق.

ورغم تأثير الحضارات الغربية في النهضة العالمية بمختلف المجالات الاجتماعية، والفكرية، والعلمية، والثقافية، إلا أن هذه اللوحات شكلت مفخرة للحياة في فلسطين وعكست تأثر الغرب بجوانبها المختلفة وظهور تفاصيلها وانعكاس ألوان الريشة على أجمل صورها، بل وجعلت من المستشرقين أداة للتواصل عبر الزمن وتوثيق صور الحياة اليومية في ذلك العصر، لكن اهم حقيقة تركها المستشرقون في كل ما قدموه ان بلاد الشام بما فيها فلسطين كانت منطقة تاريخية، سياسية، اجتماعية، واحدة وهذا عكس ما اراد الاستعمار اثباته من خلال التقسيمات التي برزت في اتفاقية (سايكس-بيكو) ولمحاولة تفتيت هذا الوطن بكل ابعاده، بل اثبتت اعمال المستشرقين ان هذا المجتمع متجانس تماما وتطوره شكلا ومضمونا كان طبيعياً لترابطه سواء في فلسطين او باقي بلاد الشام .

وقد وصل الاستشراق لأبلغ صوره فى الفن التشكيلي نحو منتصف القرن التاسع عشر، لكن لا يمكن اعتباره مدرسة فنية بعينها لوجود اختلافات جوهرية فى أساليب الاعمال الفنية وطرق تقديمها للضوء وتعاملها مع الالوان، لكن التشابه هنا فى الموضوعات والايقونات والتوجه الفني.

وساهمت الغزوات الغربية في ان يكتشف الفنان الاوروبي عظمة العمارة الاسلامية وروعة تصميمات الديكور الداخلى بها، فنقلها لأعماله ليراها جمهور بلاده من الفنانين والجمهور لتتسع دائرة التأثر. ونحو عام ١٨٧٠م لم يعد الرسامون الفرنسيون والانجليز هم من يرسمون أغلب رسومات الاستشراق كما كان في السابق، لكن أبناء جنسيات أوروبية وأميركية أخرى قدموا لباريس بعد حرب بروسيا ليلتحقوا باكاديمية جوليان وكلية الفنون الجميلة، ومنهم النمساوى (ليوبوليد

مارك مولر) الذى أدمن السفر للشرق وشجع أبناء بلده على تقليده. وبشكل عام كان الرسامون المستشرقون لا يتمّون لوحاتهم فى بلاد الشرق الا اذا بقوا بها فترة طويلة، كانوا فقط ينجزون (اسكتشات) بالقلم او الحبر او الاكواريل لما يريدون رسمه ويكملون الباقى فى بلادهم، وهناك لوحات تمهيدية بالاكواريل انجزها (ديلاكروا وروبرتس ولير)، ومنهم من كان يصطحب معه اكسسورات مميزة أو ملابس شرقية كمصدر الهام أثناء الرسم.

الفوتوغراف : تكشف مقتنيات فلسطين وبلاد الشام سجلاً بانورامياً حافلاً بوقائع مشاهدات الرحّالة المستشرقين، التي تعود إلى النصف الأول من القرن الـ١٩ في المرحلة التي سبقت اكتشاف الصورة الضوئية، يمتزج فيها المنظر الشرقي بفطرته وبهائه الطبيعي، بالنزعة التوثيقية المعمارية والرؤية الطوبوغرافية للأمكنة والمواقع الأثرية: من مشاهد الأوابد والخرائب والقلاع، إلى مناظر العمائر مع الطبيعة الخلوية pittoresque، كما عبّرت في جانب منها عن العادات والتقاليد العربية التي انعكست في المظاهر الاجتماعية وطراز الملابس الشرقية ورحلات القوافل في البادية والفروسية، ما يعكس المشهد الشرقي، بعيداً من»الجغرافيا التخييلية»وفق تعبير إدوارد سعيد لأنها عن التجربة المعاشة.

ولعل المبتغى الديني كان دافعاً أساسياً للحج إلى الشرق، لذا سعى الفنانون إلى اقتفاء آثار الأنبياء، فالتنقيب عن الماضي ليس سوى بحث عن ذاكرة مفقودة في الرمال، كما يقول (أرنست رينان):"ذاكرة البشر مجرد مثل طفيف يحفره كل منّا في حقل اللانهاية».

وقد لجأ المستشرقون للصور الفوتوغرافية بمجرد ظهورها، كذاكرة بصرية لهم فى رسومهم المستقبلية عن الشرق، وظهر المصورون الجدد ليكملوا المسيرة بعد عام ١٨٩٠م بظهور التصوير الفوتوغرافي، حيث رحلت مجموعة من المستشرقين الشغوفين بالأراضي المقدسة منهم (انتونان جوسين) في سن التاسعة عشرة، (ورافائيل سافينياك) في سن الثامنة عشرة وقضيا حياتهما في فلسطين وشكّلا ٨٠٪ من مجموع الصور القديمة لفلسطين والقدس وتركا أجمل اللوحات الفوتوغرافية النادرة وركزا عملهما على أسوار القدس والحرم الشريف وساحته وصور داخلية لقبة الصخرة في عام ١٩٠٤م و١٩٠٥م حتى ١٩١٧م أي حقبة الدخول والتغلغل البريطاني.

***ثالثا : قراءات في بعض كتب الاستشراق:**

وكان من اهم الكتب التي تناولت فن الاستشراق كتاب: المستشرقون لـــــ(كريستيان دافيس) وهو باحث مستقل تلقى تكوينه في الولايات المتحدة وفرنسا في اختصاص تاريخ الفن، وله علاقة وطيدة بمجال مزادات القطع الفنية، وهو يكتب في عدد من الدوريات المختصة في هذا الشأن.

ويتعلق الكِتاب تحديدا باختصاص تاريخ الرسم وبفنانين غربيين ويتلقى الكثير من التهليل من قبل مؤرخين

ومختصين في مجالات أخرى، خاصة من الباحثين في الدراسات الشرق أوسطية وفي التاريخ الإسلامي.

وإذا اختلفت أسباب التهليل بين قارئ وآخر حيث يركز البعض على الجوانب الشكلية مثل حسن توضيب الكتاب والعدد الكبير من الصور الملونة التي حواها، فإن البعض الآخر - خاصة أولئك الذين يولي المؤلف اهتماما خاصا بآرائهم- يروجون للكتاب بوصفه ردا حاسما على الآراء الناقدة للاستشراق وخاصة أفكار الباحث الفلسطيني الأصل الراحل إدوارد سعيد.

ومن هنا يستحوذ الكتاب على اهتمام الكثير من القراء لما يعنيه الجدال حول مسألة الاستشراق من جاذبية خاصة في الولايات المتحدة والغرب في المرحلة الراهنة، خاصة إذا اقترن الترويج بتشجيع من قبل باحثين مشهورين بعدائهم لفكر «نقد الاستشراق» مثل (برنارد لويس) الذي كتب تعليقا احتفائيا للغاية عند نشر الكتاب ونصح بقراءته بوصفه «يصحح» الكثير من الأفكار حول الظاهرة الاستشراقية.

إن كتاب (دافيس) ليس مؤلفا في الرسوم الاستشراقية إلا لأنه يوفر مدخلا لمحاولة تقويض اطروحة «ادوارد سعيد" التي تعتبر أن أي عمل استشراقي - سواء كان تاريخيا، أو أثريا، أو فنيا، أو موسيقيا- ليس سوى أداة في مشروع كولونيالي ثم إمبريالي.

وقد تميز كتاب دافيس عن المؤلفات السابقة في نفس الموضوع بالتعرض لأسماء غير مألوفة، فعوضا عن التركيز على الرسامين الفرنسيين الاستشراقيين الأوائل أمثال (أنقري) و(دي لاكروا) ولو أنه تعرض لأحدهم أي (جون ليون جيروم)، فعمل على التعريف في عدد من فصول الكتاب بأعمال من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تآكلها النسيان من إنجاز أسماء غير مألوفة خاصة من أوروبا الشرقية وروسيا.

وفي الحقيقة يقدم الكاتب هنا مساهمة جدية تركز على إحدى نقاط الضعف المعروفة في أطروحات إدوارد سعيد، إذ إن الأخير ولإحداث الانسجام في أطروحة أن الاستشراق خطاب كولونيالي إمبريالي اضطر للدفاع عن فكرة أن الاستشراق حصرا خطاب الأطراف الغربية التي كان يمكن أن تكون إمبريالية أي تحديدا فرنسا وبريطانيا. كما يتعرض دافيس من خلال استعراضه المكثف لأكثر من ٣٠٠ صورة إلى أهمية «الدوافع الذاتية المحضة» لدى الرسامين الاستشراقيين الذين كانوا حسب رأيه يبحثون عن جمالية مشهدية لا غير، صادف أن وجدوها في المجال العربي الإسلامي.

في الواقع يتجنب خطاب ما بعد الاستشراق حقيقة الدوافع الذاتية للوهم وهي دوافع عابرة للثقافات والمجالات الجغراسياسية، فلا يمكن التغافل مثلا عن أن من بين أكثر المظاهر وضوحا لحضور الدوافع الذاتية في الظاهرة الاستشراقية التشكيلية تحديدا، كان الارتباط الوثيق بين الظاهرة الرومانسية الأوروبية (المحلية) ووحدة فلسفتها الذاتية من جهة ورواد الرسم الاستشراقي خاصة

في المجال الفرنسي خلال القرن التاسع عشر من جهة أخرى.

وهكذا فإن الدوافع الذاتية لإنتاج الوهم بالنسبة للفاعل الغربي ممكنة في الحالتين: في تمثل الذات (الرومانسية) أو في تمثل الآخر (الاستشراق)، وهي الخلفية التي يمكن أن تفسر مشاريع فنية تعرض لها (دافيس) لرسامين استشراقيين من أقطار كولونيالية (فرنسا) أو غير كولونيالية (تشيكيا) مثلا، على حد سواء.

ورغم اختلاف المستشرقين في اعمالهم على كيفية عكس مرآة فلسطين (قلب الشرق) الا ان جزءاً كبيرا صورها بإعتبارها جماعات بدوية، فلاحية زراعية، أو مدنية متخلفة، وبمجملها ذات فكرة رجعية، وهذا ما كان يتنافى مع الحقيقة وقد ابرزه كُتاب في التاريخ المعاصر وحاولوا تصحيح وكشف هذا الزيف ومنهم الدكتور ادوارد سعيد، وبالمجمل فإننا نجد ان مجموع الكتاب والفنانين المستشرقين تأثروا بحضارة الشرق وبلاد الشام، التي غيرت مجرى حياة الكثير منهم، وهذا الشغف جعلهم يصابون بمرض حب المكان وشوق اكتشافه اللامتناهي، على فترات طويلة، من خلال ما ظهر لنا من تسلسل تاريخي لرواد الاستشراق في بلاد الشام خاصة، لتكون هذه الاعمال حاضرة اليوم في قلب العواصم االأوروبية والغربية ومتاحفها من مخطوطات ولوحات كشاهد رئيسي على جمال وعمق تاريخ فلسطين وبلاد الشام، رغم المآرب الاستعمارية انذاك، الا انها شكلت ايقونة لحفظ ذاك التاريخ بكافة جوانبه.

قائمة المراجع :

١) احمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق واثرها في الادب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢) احمد عاطف، الرسامون الرحالة المستشرقون، صحيفة الاهرام، القاهرة، العدد ٤٧٥١٤، ٢٠١٧/١/٧م.

٣) حسام ابو النصر ، فن الاستشراق في الشرق ، الحوار المتمدن،العدد ٥٦٦٦، ٢٠١٧/١٠/١١م.

٤) طارق الكحلاوي، المستشرقون، الجزيرة، الدوحة، ٢٠١٦/٦/١٥م

٥) كريستيان دافيس، المستشرقون، دار لاينفاروه، نيويورك، ٢٠٠٥م

٦) مهى سلطان، بلاد الشام التي تدفقت نوراً في عيون المستشرقين ... لوحات في متحف الشارقة، صحيفة الحياة، الشارقة، العدد١٨٠٨٣، ٢٠١٢/١٠/٧م.

٧) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ط٤، ٢٠٠٣م.

٨) عبد الحميد ابو النصر، القدس وفلسطين في عيون المستشرقين ، القدس العربي،العدد ٦٨٦٣ ،٢٠١١/٧/٦م.

٩) فنانون مستشرقون وثقوا في القرن الـ(١٩) جمال الدين الإسلامي، صحيفة الجزيرة، الرياض، العدد ١٥٦٢٥، ٢٠١٥/٧/١٠م.

أوراق ثقافية

في حوار مع محمود شقير

تتداخل سيرتي الشخصية مع سيرة القدس، وبدونها تبدو حياتي ناقصة الجوائز تحرض على الإبداع ولا استبعد نزعة التسييس

أجرت الحوار: بديعة زيدان

يستكمل محمود شقير التجارب الكبيرة في السرد الفلسطيني، ويجد مكانه بقوة الى جانب غسان كنفاني وجبرا ابراهيم جبرا واميل حبيبي، وعبر اضاءة هادئة، لا تخلو من السخرية الذكية، يتجول متأبطا ذراع قارئه في الحارة المقدسية حيث يمكن أن تلتقي بأشخاص لا يتمتعون ببلاغة السياسي او المحلل او ضيف الفضائية، مشهد القدس في أعمال شقير لا يذهب الى البلاغة او الزخرفة الكلامية والاتكاء على لغة أفقية متوفرة في الغالب لدى المتلقي، يذهب ببساطة الى حياة الناس ومشاغلهم ومخيلة فردية، حيث الأخطاء البسيطة والعواطف بعفويتها وادوات الحياة العادية، حيث يغضب الناس ويضعفون ويحلمون بالقوة. هناك بالضبط تكمن قوة محمود شقير واضافته في نفس الوقت.

يصعب فصل التجربة الشخصية عن المسيرة الابداعية للكاتب الفلسطيني محمود شقير، وسيبدو الحديث عن مشروعه الابداعي المتعدد بمعزل عن نشاطه السياسي والنقابي ناقصا وغير مكتمل، منذ سنوات جماعة «الأفق الجديد» في ستينيات القدس من القرن الماضي الى «مديح لنساء العائلة» في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين مرورا بإبعاده عن مدينته، القدس، التي شكلت المكان المركزي في معظم أعماله. وهو ما يحاول هذا الحوار أن يضيء عليه.

المحرر

*** عند إجراء حوار مع كاتب كمحمود شقير أول ما يتبادر إلى الذهن الحديث عن القدس، خاصة أن كثيرين يرون فيك رمزاً من رموزها .. ماذا تعني لك القدس؟ وماذا تعتقد أنك تعني لها ولأهلها؟**

- القدس هي المدينة الأولى التي تفتّحت عليها عيناي، وما زالت تلك الدهشة التي أصابتني حين دخلتها أوّل مرّة برفقة أبي وأنا طفل؛ تسكنني وتجعلني تواقًا إلى امتلاك المدينة عبر الكتابة. ولهذا السبب؛ برزت القدس في عدد غير قليل من كتبي التي كتبتها للكبار وللأطفال وللفتيات والفتيان. وكنت كلما أنجزت كتابًا عنها شعرت بأنني ما زلت مقصرًا تجاهها. فهي أكبر من أن يحيط بها كتاب أو العديد من الكتب. مع ذلك؛ أشعر باستمرار أن القدس جزء من حياتي ومن تجربتي في الحياة، وأشعر في الوقت نفسه بأنني جزء منها ومن وجودها العريق الضارب في عمق التاريخ.

من دونها ستكون حياتي ناقصة، ومن دون وجودي فيها أنا ومئات الألوف من أبنائها المقدسيين، مسلمين ومسيحيين، ستكون المدينة ناقصة ولا تحيا حياتها الطبيعية التي كانت لها منذ بناها اليبوسيون الكنعانيون، أجدادنا نحن الفلسطينيين، قبل آلاف السنين.

*** حضرت القدس ولا تزال في إبداعاتك الأدبية قصة وقصة قصيرة جداً وروايات وغيرها .. هل هذا انعكاس المكان فحسب؟**

- هو في جزء منه انعكاس لعلاقتي بالمكان وبإقامتي فيه منذ الطفولة حتى الآن، وهو في تجليات أخرى تعبير عمّا تشتمل عليه المدينة من قيم دينية ومعمارية وثقافية؛ وعمّا لها من عراقة وقداسة وتاريخ. هو كذلك استجابة لواجب الدفاع عنها ضد من يحاولون اختلاق تاريخ مزوّر لها لتبرير ضمهم لها وتهويدها، رغم الحقائق الدامغة التي تقول إنها مدينة يبوسية كنعانية عربية فلسطينية، ولأهلها؛ من مسلمين ومسيحيين جذور راسخة فيها وعادات وتقاليد وتراث متجذر على مرّ العصور؛ منها، ومن تراثها استوحيت وأستوحي قصصي ورواياتي، وعبر الكتابة عنها تتداخل سيرتي الشخصية مع سيرتها الممتدة التي تنطوي على هزائم وانكسارات حينًا؛ وعلى أمجاد وصحوات حينًا آخر.

*** اتجهت إلى الرواية في وقت متأخر نسبياً .. هل ضاقت عليك القصة القصيرة أم ماذا؟**

- لم تضق عليّ القصة القصيرة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ إنما كان لها تجليات مختلفة في تجربتي، ففي الوقت الذي كانت تتأبى القصة القصيرة عليّ، كنت أكتب القصة القصيرة جدًّا، ثم إنني لم أتجه إلى الرواية إلا لأن هاجسها لم يفارقني منذ ابتدأت الكتابة.

وأعترف؛ أنني حين كنت منفيًّا خارج الوطن على أيدي المحتلين الإسرائيليين، فإنني لم أعد قادرًا على كتابة القصة القصيرة التي اعتدت كتابتها أثناء إقامتي في الوطن، تلك التي ظهرت في كتابي الأول: خبز الآخرين؛ ربّما بسبب ابتعادي عن المكان الأول الذي شهد ولادة قصصي الأولى؛ فاستعضت عن

ذلك بكتابة القصة القصيرة جدًا، التي لا تحتاج إلى مكان مكتمل، إذ تكفي طاولة في مقهى، ويكفي مقعد في قطار ليكون مكانًا في قصة قصيرة جدًّا.

الجدير ذكره؛ أنني كتبت أثناء إقامتي في المنفى؛ ستة مسلسلات طويلة للتلفاز، مكونة في أساسها من مشاهد قصيرة متلاحقة، لا تعتمد السرد كما هو معروف في هذا اللون من الإبداع، وإنما الحوار.

ومن أجل الاقتراب من عالم الرواية؛ قمت بتطويع القصة القصيرة جدًّا في عدد من كتبي القصصية الأخيرة، بحيث تتموضع هذه القصص ضمن سياقات روائية تريح المتلقي ولا ترهقه، وتحقق له متعة القراءة. حدث هذا في كتابي «احتمالات طفيفة» الذي اعتبره الناقد حسن خضر رواية، وكذلك في كتابي «القدس وحدها هناك» الذي اعتبره الناقد والروائي إلياس خوري رواية. وقد تجلى هذا السياق الروائي في كتابين قصصين آخرين لي هما: مدينة الخسارة والرغبة، وسقوف الرغبة.

وحين أصدرت في العام ١٩٩٨ كتابي «ظل آخر للمدينة»، المكرّس لمدينة القدس، فقد حرّضني محمود درويش على ضرورة كتابة الرواية؛ بعد قراءته للكتاب وإدراكه إلى أي حد استفدت من تقنيات السرد الروائي.

ورغم ما كنت أشعر به من تهيّب كلّما فكرت بكتابة رواية، إلا أن هاجس الرواية ظلّ ملازمًا لي منذ السنوات الأولى لممارستي كتابة القصة. فقد أنجزت رواية في العام ١٩٧٥ اسمها: «قلنا ذلك لكلّ الطارئين»؛ وكنت سلّمت نسخة منها للشاعر محمود درويش حين كان رئيس تحرير مجلة شؤون فلسطينية التي كانت تصدر عن مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت. وكان محمود على وشك أن ينشرها في المجلة، لولا أنني أرسلت إليه رسالة من عمَّان أطلب منه فيها عدم نشرها؛ بعد أن انتبهت إلى طغيان المباشرة السياسية عليها.

وكنت ابتدأت كتابة روايتي «فرس العائلة» منذ العام ١٩٨٠ ونشرت فصولاً منها في مجلة «أفكار» الأردنية آنذاك، ثم تركتها مخبأة في درج مكتبي سنوات طويلة إلى أن عدت إليها في العام ٢٠١١ وواظبت طوال سنتين على الاشتغال عليها إلى أن صدرت في العام ٢٠١٣ .

ولا تنسَيْ أنّني أنجزت كتابة سبع روايات للفتيات والفتيان خلال السنوات الخمس عشرة الماضية.

*** تتنقل بين أجناس إبداعية ما بين قصة ورواية وكتابة للأطفال واليافعين ومسرح ودراما تلفزيونية وسيرة المكان، وغيرها .. أين يجد شقير نفسه أكثر، ولماذا؟**

- أجد شيئًا من نفسي في كل ما أكتب من قصص وروايات للكبار والصغار ومن سير وأدب رحلات. ولست أعتدّ بما كتبته من نصوص مسرحية ومن بعض مسلسلات للتلفاز. وكنت جربت كتابة

سيناريو فيلم عن القدس، ولم أنجح. كتبت نصًّا أقرب ما يكون إلى الدراما التلفزيونية، ولم أكرّر التجربة.

أجد نفسي في كتابة القصة الساخرة، التي انتجت ضمن سياقها مجموعتين هما: صورة شاكيرا، وابنة خالتي كوندوليزا. نحن بحاجة إلى الكتابة الساخرة بسبب الظروف التي نعيشها تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، ومنذ أن انتهيت من إصدار هاتين المجموعتين وأنا أفكر بإنجاز مجموعة قصصية ثالثة؛ دوّنت من أجلها ملاحظات كثيرة ومقترحات حول كيفية كتابتها، لكنني حتى الآن لم أعثر على اللحظة المناسبة التي تستدعي السخرية وتظهرها من دون تكلف أو افتعال، وهنا لا بد من الإشارة إلى صعوبة هذا اللون من الكتابة القصصية الساخرة، بالنظر إلى ما تتطلبه من مزاج خاص ودربة ودراية ومراس.

وأجد نفسي في كتابة القصة القصيرة جدًّا، فقد أنجزت حتى الآن إصدار سبعة كتب، كان آخرها كتابي «سقوف الرغبة». حين تستبدّ بي الرغبة في الإيجاز، وفي مراعاة إيقاع عصرنا السريع، وفي التعبير عن قضايا كبرى باقتصاد لغوي لافت للانتباه؛ فإنني أجد متعتي في كتابة القصة القصيرة جدًّا.

ولكي أستثمر إمكانات هذا اللون من الإبداع إلى الحد الأقصى، فقد اعتمدت أسلوب القطع والوصل في كتابة القصص، بمعنى أن تكون كل قصة قصيرة جدًّا مستقلة بذاتها عن غيرها، بحيث تبدو مكتملة الشروط الفنية، وبالإمكان قراءتها بمعزل عن غيرها، وتكون مرتبطة على نحو ما بما قبلها وبما بعدها في سياق روائي يضع المتلقي أمام كتاب قصصي وفي الوقت نفسه أمام ما يشبه الكتابة الروائية.

*** لقد شغلت لأكثر من مرة عضو لجان تحكيم جوائز أدبية محلية وعربية، وتأهلت روايتك «مديح لنساء العائلة» إلى قصيرة البوكر ٢٠١٦ .. هل تعتقد أن الجوائز رافعة للرواية العربية أم العكس؟ وكيف تنظر لمن يبرمجون اختتام أعمالهم على مواعيد التقديم لهذه الجوائز؟ وهل توافق على من يقول إن الجوائز مسيّسة، ولها حسابات تبتعد عن الإبداع الأدبي أحياناً؟**

- لا أستطيع أن أعطي إجابة قطعيّة على هذا السؤال، ولا أستطيع أن أعمّم. إنما يمكن الاحتكام إلى بعض الشواهد الملموسة. وحين أتذكر لجان التحكيم التي كنت على صلة بها، فإن أبرزها كانت لجنة جوائز فلسطين في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية المنبثقة عن وزارة الثقافة، حيث كنت أمين السر في هذه اللجنة ثم منسقًّا بين اللجنة والوزارة، ثم عضوًا فيها حين أعيد تنشيطها بعد انقطاع. وكذلك لجنة جائزة محمود درويش للحرية والإبداع التي كنت منسقًا فيها بين اللجنة ومجلس أمناء الجائزة مرة؛ وعضوًا له حق التصويت مرّة أخرى، وكذلك أيضًا لجنة جائزة القدس المنبثقة عن

المؤتمر الوطني الشعبي للقدس، وكنت رئيسها في دورتها الأولى، وأخيرًا لجنة الجائزة العالمية للرواية العربية؛ البوكر في دورتها الحادية عشرة للعام ٢٠١٨ .

ومن وحي اشتغالي في هذه اللجان، يمكن الخروج باستنتاجين؛ أولهما أنّه، وبالرغم من المعايير التي تضعها اللجان لضبط عملها، فإن لذائقة أعضاء أي لجنة دورًا اساسيًّا في اختيار الفائز أو الفائزين بالجائزة، وثانيهما أنه حينما تكون أمام اللجنة مئة وأربع وعشرون رواية، كما حدث في الدورة الأخيرة لجائزة البوكر، فإن وصول ست من هذه الروايات إلى القائمة القصيرة للجائزة؛ لا يعني التقليل من قيمة روايات أخرى لم تصل إلى هذه القائمة، إنما لا بد في نهاية الأمر من الاختيار رغم التقارب الشديد في المستوى الفني بين العديد من هذه الروايات.

وأعتقد أن وجود جوائز للرواية كفيل بأن يحفز على مزيد من الإبداع، وعلى خلق حالة من التنافس الشريف. أعتقد كذلك أن النقد الذي يشتدّ مع كل إعلان عن جائزة ما، هو نقد متوقّع ومشروع، لأنه من المستحيل إرضاء كل الأذواق وكل القناعات الفكرية والفنية مرّة واحدة، ومن حق كل ناقد أو قارئ أو متابع أن يبدي رأيه في نتائج أية جائزة، وكذلك من حق كل روائي أن يتقدم للبوكر ولغيرها من الجوائز المعروفة لدينا في هذا القطر العربي أو ذاك، ما دامت لا تنطوي على مخالفة للمنطق السويّ، ولما نتمناه للثقافة العربية من رفعة وازدهار.

ولست أستبعد نزعة التسييس التي تظهر هنا وهناك في بعض الأحيان؛ وحين تكون هذه النزعة على حساب الإبداع فتلك مشكلة، وفي كل الأحوال فإن الجوائز بشكل عام؛ تعتبر من عناصر القوة الناعمة التي تستخدمها الدول لتعزيز مكانتها في أوساط المثقفين والكتاب والفنانين، ولعلنا نذكر كيف رفض الروائي المصري صنع الله ابراهيم قبول جائزة الرواية في زمن حسني مبارك، وكيف رفض الكاتب الإسباني خوان غويتيسيلو قبول جائزة الدولة الليبية في زمن معمر القذافي.

لكن هذا الرفض المبرّر والمفهوم لا يعني التعميم؛ والامتناع عن قبول الجوائز بشكل مطلق، إلا إذا كانت هناك أسباب واضحة لعدم قبولها، كأن يتعارض الهدف منها مع حرّيّة المثقف وحقّه في التعبير عن قناعاته من دون اشتراطات أو قيود، ومع نضالات شعوبنا من أجل الحرية والعدالة والديموقراطية والمساواة.

*** كيف كانت حكاية البدايات مع الكتابة؟ ولمن كان يقرأ شقير آنذاك؟ .. إن أمكن ذكر بعض الحكايات هنا.**

- كان ذلك في أواخر خمسينات القرن العشرين وأوائل الستينات، حين لفتت انتباهي المقالات التي كنت أقرأها في الصحف المحلية. كانت تصدر في القدس أربع صحف يومية. كتبت مقالات سياسية

وأرسلتها إلى اثنتين من هذه الصحف هما الجهاد وفلسطين، ولم تنشرا مقالاتي ربما بسبب ضعف المستوى.

وحين ظهرت مجلة الأفق الجديد المقدسية في العام ١٩٦١ تابعت ما يُنشر فيها من قصص وقصائد ومقالات باهتمام وشغف، ثم تشجعت لكتابة قصص قصيرة، وكتبت عددًا غير قليل من القصص التي لم تكن في المستوى الذي يؤهّلها للنشر، وبقيت أكتب إلى أن اقتنع رئيس التحرير الشاعر أمين شنار بإحدى قصصي ونشرها في أحد أعداد المجلة في العام ١٩٦٢.

كان لهذا النشر أثر مدهش عليّ؛ بحيث اندفعت إلى كتابة قصص واقعية مستوحاة من علاقتي بمدينة المقدس وبقرى الريف الفلسطيني؛ تحدثت في هذه القصص عن العمال والتجار في المدينة، وعن الفلاحين في الريف، وجعلت للمرأة حيزًا ملموسًا فيها، وكذلك للأطفال.

كنت قبل ذلك وأنا طالب في المرحلة الثانوية في المدرسة الرشيدية في القدس أقرأ لمحمد عبد الحليم عبد الله، كانت تعجبني نزعته الرومانسية في رواياته، وكذلك إحسان عبد القدوس، وأمين يوسف غراب ويوسف السباعي .

بعد ذلك؛ اتجهت إلى قراءة الأدب الواقعي، قرأت لنجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي

ويوسف إدريس؛ وكنت معنيًّا بمتابعة ما ينشره زكريا تامر في المجلات وفي الكتب من قصص تعبيرية مدهشة؛ وكذلك ما ينشره حنا مينا من روايات، وما تنشره غادة السمّان من قصص. وعلى الصعيد العالمي قرأت لأنطون تشيكوف وجي دي موبسان وإدغار آلان بو، وهم رواد القصة القصيرة الذين تركوا أثرًا بارزًا في نفسي، وقرأت لإرنست هيمنغواي روايات كثيرة وقصصًا قصيرة، وكذلك لجون شتاينبك وأرسكين كالدويل؛ وقمت بترجمة قصص لهيمنغواي وشتاينبك ونشرتها في مجلة «الأفق الجديد». وقرأت لجان بول سارتر وألبير كامو وسيمون دو بوفوار وفرانسواز ساغان، وتأثرت إلى حد ما بفلسفة سارتر الوجودية. وكان لكولن ولسون مؤلف كتاب اللامنتمي وغيره من الكتب بريق خاص، وقد تابعت بعض كتبه باهتمام.

وأعترف أن رواية «الأم» لمكسيم جوركي وكذلك «العقب الحديدية» لجاك لندن؛ وكتابات سلامة موسى الفكرية تركت فيّ أثرًا ملموسًا وأسهمت في انحيازي لاحقًا إلى الفكر الماركسي؛ وكان للمثقف الموسوعي محمد البطراوي فضل كبير عليّ حين دلّني بعد نقاشات كثيرة وكتب أكثر على الطريق إلى الإنتماء السياسي.

*** نشرت كغيرك في «مجلة الأفق الجديد»، حدثنا عن هذه التجربة بالنسبة لك، وكيف شكلت منصّة لاكتشاف وإطلاق أسماء كبيرة، وإنطلاقا من القدس؟**

- كان لمجلة «الأفق الجديد» فضل كبير علي وعلى عدد غير قليل من الكتاب الشباب آنذاك؛ الذين أطلق عليهم في ما بعد جيل الأفق الجديد، وقد ضمّ هذا الجيل شعراء وقاصّين ونقادًا؛ بعضهم توقف عن مواصلة الكتابة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، وبعضهم الآخر ممن كانوا يكتبون القصة أو الشعر اتجهوا إلى النشاط السياسي (ماجد أبو شرار) أو إلى الرواية (يحيى يخلف) أو إلى الكتابة في التراث الشعبي ثم إلى الرواية (نمر سرحان) أو إلى الترجمة (فايز صياغ) أو إلى النقد الأدبي (صبحي شحروري).

ويعود الفضل في ظهور هذه المجلة إلى مؤسسي صحيفة «المنار» اليومية، وهما الأستاذان جمعة حمّاد ومحمود الشريف، إضافة إلى الشاعر أمين شنّار الذي تم اعتماده رئيسًا لتحرير المجلة، التي ابتدأت نصف شهرية ثم أصبحت مجلة شهرية، واستمرت من العام ١٩٦١ إلى أن توقفت عن الصدور في العام ١٩٦٦ لأسباب مالية.

كان أمين شنار ذا نزعة إسلامية مستنيرة، وقد تجمّع من حول المجلة كتاب من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، وكان أمين شنار ديمقراطيًّا في تعامله مع الأفكار المختلفة، ولم يكن يضيق بالرأي الآخر، ولذلك تفتّحت مواهب كثيرة على صفحات المجلة، وأنجبت كتّابًا على صفحاتها واصلوا الكتابة حتى اليوم، وكنت وما زلت واحدًا من هؤلاء الكتاب.

الجدير ذكره أن حضور النساء الكاتبات لم يكن ملموسًا على صفحات المجلة.كانت الشاعرة فدوى طوقان تواصل كتابة الشعر ونشره في مجلة «الآداب» اللبنانية وغيرها من المجلات العربية، ولم تكن على تواصل مع مجلة «الأفق الجديد»، ربما لأنها كانت آنذاك، مقيمة في بريطانيا للدراسة، وكانت سميرة عزّام وسحر خليفة وليلى الأطرش ينشرن نتاجاتهنّ الأدبية في منابر ثقافية وإعلامية أخرى.

*** لماذا كنت تكتب تحت اسم مستعار هو ربحي حافظ؟ .. حدثنا بإسهاب عن هذه الحكاية، ومتى بدأت الكتابة باسمك؟**

- ابتدأت الكتابة باسمي الصريح منذ نشرت أولى قصصي في العام ١٩٦٢في مجلة «الأفق الجديد». وفي العام ١٩٦٥ حين كنت محررًا ثقافيًّا في صحيفة «الجهاد» المقدسية، كتبت مقالات باسمي الصريح، وكانت لي زاوية يومية ساخرة تحت العنوان «ثرثرة أدبية» كنت أوقعها ب»أديب فاشل» ؛ وقد جاء اختياري لهذا التوقيع من اجتهاد كان رائجاً في ذلك الزمن مفاده أن الاشتغال في الصحافة يتمّ على حساب الإبداع الأدبي، وأن الصحافي هو أديب فاشل، ثم اقترح عليّ رئيس التحرير آنذاك سليم الشريف أن أوقّعها ب»ثرثار» فأعجبني اقتراحه لأنه جاء منسجمًا مع عنوان الزاوية.

وحين وقعت هزيمة حزيران ١٩٦٧ نشرتُ قصصًا باسم ربحي حافظ في صحيفة «الاتحاد» ومجلة

«الجديد» الحيفاويتين، ونشرت مقالات سياسية باسم فارس أبو بكر في صحيفة «القدس» التي كانت الوريث الشرعي لصحيفة «الجهاد».

جاء هذا اللجوء إلى الأسماء المستعارة لأسباب أمنية؛ حيث كانت سلطات الاحتلال تعدّ على الناس أنفاسهم في سنوات الاحتلال الأولى، وكانت الصحف الصادرة في الأرض المحتلة تخضع لرقابة صارمة، وكثيرًا ما كانت تظهر فيها فراغات بيضاء، تعني أن الرقيب العسكري حذف مقالة لم ترقه، أو خبرًا لم يتوافق مع مزاجه.

*** عملت في الصحافة الثقافية منذ عقود، وفي أكثر من منصة إعلامية .. ماذا عن هذه التجربة إيجابياتها وسلبياتها، ولماذا برأيك تتراجع الصحافة الثقافية في فلسطين هذه الأيام؟**

- ابتدأت علاقتي بالصحافة الثقافية منذ العام ١٩٦٥ حين كنت محررًا ثقافيًّا في صحيفة «الجهاد» المقدسية كما ذكرت آنفًا. كنت آنذاك أتلقى موادَّ ثقافية مختلفة عبر البريد من هواة الكتابة الشباب والشابات. أقرأ هذه المواد، وهي في الأساس قصص قصيرة وقصائد ومقالات أدبية وخواطر وجدانية، أختار ما هو صالح منها للنشر، واقوم بالردّ على الكتابات غير المؤهلة للنشر في زاوية مخصّصة لذلك، وفيها ملاحظات نقدية على هذه الكتابات. وقد برز عدد من بين اللواتي والذين كنت أنشر موادهم الأدبية على صفحات «الجهاد»، واصبحوا كتابًا بارزين.

ثم عملت محررًا ثقافيًّا في مجلة «صوت الوطن» التي كان يرأس تحريرها المؤرخ الدكتور ماهر الشريف، وكنت أنشر فيها قصصًا وقصائد ومقالات نقدية لكاتبات وكتاب فلسطينيين وأردنيين وعرب آخرين، ومن بينهم أؤلئك الذين كنت أنشر موادهم الأولى وهم شباب على صفحات «الجهاد». وفيما بعد كنت مشرفًا عامًّا ثم رئيس التحرير لمجلة «دفاتر ثقافية» التي كانت تصدرها وزارة الثقافة الفلسطينية، وكانت هذه تجربة لافتة للانتباه في الصحافة الثقافية، من خلال الجهود التي كنا نبذلها فيها أنا وزكريا محمد وليانة بدر ومنذر عامر ومريم الشروف وحسني رضوان.

اليوم؛ تتراجع الصحافة الثقافية والمجلات الثقافية عمومًا ليس في فلسطين وحدها وإنما في أقطار عربية عديدة، وحتى في العالم، حيث يتم إغلاق الصحف الورقية وتحويلها إلى صحف إلكترونية. لقد أسهم الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، في إضعاف حضور الصحف الورقية والمجلات على نحو ملموس؛ وانعكس ذلك على حضور الثقافة فيها بطبيعة الحال، وتحوّل قطاع كبير من القراء والمعنيين بالثقافة إلى تصفّح الصحف والمجلات على الانترنت.

*** قدمت أعمالاً للمسرح والتلفزيون، ما المختلف في الكتابة بين المسرح والتلفزيون وبين الكتابة الأدبية، ولماذا تغيب من ثلاثين سنة عن التلفزيون وعشر سنوات عن المسرح؟ وهل نتوقع عودة**

ما إلى أي منهما؟

- لا أعتقد أنني سأعود إلى الكتابة للمسرح أو للتلفزيون. والسبب ماثل في الحالة الراهنة؛ حيث الاهتمام بالمسرح لم يعد في المستوى المطلوب، والحركة المسرحية التي كانت ناشطة وفعّالة في سنوات سابقة لم تعد كذلك الآن إلا في بعض الحالات، والذنب ليس ذنب المسرحيين؛ وإنما ذنب الحالة العامة التي لا تحفل كثيرًا بالثقافة ولا تبذل جهودًا كافية لإنعاش المسرح. هذا وحده كفيل بأن يجعلني بعيدًا من هذا الميدان. ذلك أنني حين كتبت للمسرح فقد كان هناك من عرض عليّ القيام بالكتابة، والأمر نفسه ينطبق على شروط الكتابة للتلفزيون. الآن لا أعرف عن وجود شركات إنتاج تلفزيوني في فلسطين.

حتى لو وجدت هذه الشركات، وحتى لو ظهر من يفكر بإنتاج عمل مسرحي، فلم تعد بي رغبة في الكتابة للمسرح أو للتلفزيون. لدي رغبة في تخصيص ما تبقى لي من عمر في كتابة القصص والروايات للأطفال وللفتيات والفتيان.

*** عايشت نكبة العام ١٩٤٨ طفلاً وهزيمة العام ١٩٦٧، وحرب العام ١٩٧٣، وغيرها من الأحداث .. كيف أثرت هذه التواريخ على الأدب الفلسطيني، وما هي التحولات التي واكبت هذه الأحداث المفصلية؟**

- بعد النكبة مباشرة؛ طغت على الأدب الفلسطيني في خمسينات القرن العشرين نزعة التفجع الرومانسية على الوطن السليب، أو الفردوس المفقود؛ والحنين إلى هذا الفردوس وإلى مدنه وقراه الراسخة في الذاكرة وفي الوجدان، وظلت الحال كذلك إلى أن ظهرت الكتابات التي تحاكم الواقع وتحلل أسباب النكبة وتدعو إلى التصدي لها وتجاوزها؛ تختصرها دعوة غسان كنفاني إلى دقّ جدران الخزان، ويعززها قول محمود درويش لمن يمثل سلطة الاحتلال: «سجِّلْ أنا عربي»، ويزيدها تعزيزًا قول توفيق زياد ابن الناصرة لحكام إسرائيل «باقون فوق صدوركم باقون».

وقد تعزز هذا الاتجاه النقدي في الكتابة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ التي جاءت امتدادًا للنكبة واستكمالاً لها، وحين كان رد الفعل على هذه الهزيمة انطلاق المقاومة الفلسطينية في فلسطين المحتلة وفي مخيمات الشتات في الأردن وسوريا ولبنان، فقد واكبه انطلاق مماثل في الشعر بالدرجة الأولى ثم في باقي أنواع الأدب والفنون.

في سبعينات وثمانينات القرن العشرين، وحتى أثناء الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ وما بعدها بقليل، سادت نزعة انتصارية تحريضية في الشعر، ولم تخل الكتابات القصصية والروائية من الدعوة الصريحة إلى مقاومة المحتلين وتحرير الأرض من رجس احتلالهم؛ بحيث طغت المباشرة والحماسة والإيديولوجيا

على الشروط الفنية في كثير من النتاجات الأدبية التي تناولت الانتفاضة وحاولت التعبير عنها.

بعد ذلك؛ خفّت النزعة الانتصارية في الشعر، وذهبت القصة والرواية إلى آفاق أوسع، كان من نتيجتها بوجه الإجمال توسيع آفاق الأدب الفلسطيني؛ شعرًا ونثرًا.

*** هل توافق على أن هناك ما يمكن تسميته أدب ما قبل أوسلو، وأدب ما بعد أوسلو، وما سمة كل منهما برأيك؟**

- بما أن اتفاق أوسلو وما نتج عنه من وقائع وتطورات؛ كان مرحلة فاصلة في تاريخ القضية الفلسطينية والصراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي، فلا بد من أن تترك التطورات التي نتجت عنه، ومسّت حياة قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، أثرها على النتاجات الأدبية، وإذا كنت تحدثت عن بعض سمات أدب ما بعد هزيمة حزيران والانتفاضة الأولى إلى ما قبل أوسلو، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن بعد أوسلو تلك النصوص السردية التي أطلق عليها بعض النقاد اصطلاح «أدب العودة»، والمقصود هنا النصوص التي ظهرت على صفحات مجلة الكرمل تحت الباب الذي أفرده لها محمود درويش: ذاكرة المكان.. مكان الذاكرة، حيث ظهرت نصوص سيريّة، ثم توسعت وتحولت إلى كتب، أضيفت إليها كتب أخرى، أقصد هنا: «منازل القلب» لفاروق وادي، «رأيت رام الله» لمريد البرغوثي، «أرض الغزالة» لحسن خضر، «العائد.. حكاية عودة لفيصل حوراني، «ملك الغائبين» لإلياس صنبر، و «ظل آخر للمدينة» لمحمود شقير. في هذه النصوص التي استفاد مؤلفوها من تقنيات السرد الروائي ثمة تثبيت لهوية المكان الفلسطيني؛ الذي يتعرض للنهب وللمصادرة والاستيطان والتهويد؛ عبر الوقائع والذكريات والتفاصيل الصغيرة الدالّة، والعلاقات الحميمة بهذا المكان.

من جهة أخرى، يمكن القول إن ثيمة الانتصار للمقاومة المسلحة التي كانت سائدة في كثير من النتاجات الأدبية في مرحلة ما قبل أوسلو، خفتت إلى حدّ ما في أدب ما بعد أوسلو، ليس بسبب التراجع عن نصرة الحقوق الفلسطينية الثابتة ورفض الاحتلال، وإنما بسبب تغيّر شروط المرحلة، وبسبب الحاجة إلى توسيع أفق المفهوم، مفهوم المقاومة، بحيث لا يقتصر على المقاومة المسلحة وحدها. ولربما أسهمت المقاومة السلمية أثناء الانتفاضة الأولى، وما تلاها من نضالات جماهيرية متعددة في قرية بلعين وفي غيرها من مواقع النضال الجماهيري ضد الاحتلال، في الالتفات إلى ضرورة توسيع دائرة المفهوم، ليشمل الأرض وضرورة حمايتها والتضحية في سبيلها، والإنسان وضرورة الانتباه إلى همومه وقضاياه التي من شأن تحقيقها حفظ كرامته وتثبيته في الأرض، وتحفيزه على الصمود وعلى التضحية من أجل الوطن. ربما كان التداخل بين النضال الوطني والنضال الاجتماعي في ظل وجود سلطة وطنية فلسطينية واستطالة أمد الصراع مع المحتلين سببًا آخر لذلك، وربما كان

لعسكرة الانتفاضة الثانية وتهميش دور الجماهير فيها سبب آخر أيضًا.

في كل الأحوال، لا أعتقد أن الأدب الفلسطيني بعد أوسلو قد تراجع أو تسلل إليه العطب؛ ربما ظهرت بعض اجتهادات أدبية مغرقة في الفردية والانعزال في هذا الميدان، فهي مختلفة من وجهة نظري عن الاجتهادات الجمالية ذات النزوع نحو التجريد العالي والابتعاد عن التبسيط والتمسح بأذيال القضية الوطنية، وهي، أي تلك الاجتهادات الأدبية؛ لا تمثل التيار الرئيس في الأدب الفلسطيني الذي تم إنجازه بعد أوسلو، وفي اعتقادي أن توسيع مفهوم المقاومة ليشمل الوطني والاجتماعي والإنساني والجمالي لا يضير الأدب الفلسطيني بل يعززه ويقوّيه، ولعل في قولة محمود درويش التالية كثيرًا مما أقصد إليه: «كل شعر جميل مقاومة».

*** الانقسام محطة سوداء في تاريخ الشعب الفلسطيني لا تزال مستمرة، هل تعتقد أن الانقسام سينعكس على الأدب الفلسطيني لاحقاً، أم أن ملامحه بدأت تطل برأسها في بعض الأعمال الروائية أو الشعرية بعد مرور أكثر من ١١ عاماً على هذا الانقسام؟**

- هذا موضوع مخجل ومثير للأسى، خصوصًا ونحن نواجه احتلالا استيطانيًّا يهدف إلى اقتلاعنا من أرض وطننا والحلول في مكاننا. يمكن للأدب أن يتخذ من هذا الموضوع سببًا لكتابة نصوص ساخرة، بحيث تسخر ممن يطيلون أمد الانقسام خدمة لمآرب ضيقة خاصة. ويمكن للأدب أن يستخرج العبرة من هذا الانقسام الذي يشير إلى أن بعض أو أكثر تنظيماتنا السياسية ما زالت تتصرف تحت وطأة التعصب الفئوي والتنظيمي في حالات غير قليلة بوصفها قبائل وعشائر قادمة من عصر ما قبل الدولة الحديثة. ويمكن للأدب أن يستخرج العبرة التي تحث على عدم استخدام الدين في الصراعات السياسية، وفي خلق أجيال ضيقة الأفق متزمّتة؛ لا ترى إلا بعين واحدة.

*** لك العديد من المجموعات القصصية التي حققت شهرة واسعة، وكان بارزاً منها «صورة شاكيرا»، و«ابنة خالتي كونداليزا» .. هل السخرية سرّ شهرتهما أم ماذا؟**

- أعتقد أن السخرية لعبت دورًا كبيرًا في شهرة المجموعتين، ونحن؛ بالمناسبة بحاجة إلى الكتابة الساخرة ليس فقط في القصة القصيرة أو في المقالة، وإنما كذلك في الرواية وفي أي ميدان إبداعي تجد السخرية فيه مكانها الصحيح. ولعلّ المسرح من أكثر الفنون احتفاء بالسخرية، فقد سبق للمسرح الفلسطيني أن قدم وما زال يقدم عروضًا مسرحية حافلة بالسخرية، أقصد السخرية ذات المضمون وليس السخرية المبتذلة التي تنحط بالذوق العام.

ولعلّ استحضاري لشخصيات معروفة أو لأسماء هذه الشخصيات من عالم كرة القدم (رونالدو البرازيلي) والغناء (مايكل جاكسون وشاكيرا) وعرض الأزياء (نعومي كامبل) والسياسة (رونالد

رامسفيلد، وكوندوليزا رايس) هو الذي أضفى على أسلوب السرد الساخر متعة مضاعفة.

*** بالفعل؛ وظّفت في المجموعتين السابقتين أسماء نجوم فن ورياضة وسياسة ببراعة وبطريقة مغايرة، كما تحدث نقاد عن طريقتك في الكتابة، حتى إن حسن حميد وصف هذه الطريقة بأنها عالم آخر من الدهشة .. هل هي طريقة مبتكرة لاصطياد القراء الشباب في فلسطين، والقراء عامة خارج فلسطين ولذلك ترجمتا لأكثر من لغة؟**

- ما ذكره الروائي حسن حميد وصف جدير بالانتباه؛ وقد جاءت هذه القصص جرّاء عملية ملاحظة وتأمّل واختمار استمرت سنوات طويلة. ابتدأت هذه العملية حين لاحظت المفارقة المؤلمة إبّان حصار بيروت في العام ١٩٨٢ على أيدي الغزاة الإسرائيليين، حيث لم تخرج تظاهرة واحدة في العواصم العربية ضد الغزو والحصار، فيما خرجت تظاهرة مليونيّة ضدّ المؤامرة التي تعرض لها فريق كرة القدم الجزائري أثناء مباريات المونديال آنذاك. يومها؛ فكرت بكتابة قصص قصيرة ساخرة مستوحاة من عالم كرة القدم ومن هذا التعلّق المذهل بها، بحيث يكون بعض نجوم الكرة هم أبطال هذه القصص. لكنني لم أتمكن من كتابة قصة واحدة، وظل هذا الهاجس يعيش في داخلي لسنوات.

وحين عدت من المنفى إلى القدس؛ المكان الأول الذي شهد ولادة قصصي القصيرة الأولى، بدا ذلك الهاجس يلح عليّ من جديد، وقد حفّزه على التجسّد في شكل قصص ساخرة تلك المفارقات التي وجدت الناس في وطني يعيشونها تحت وطأة الاحتلال. وهكذا قمت باستحضار شخصيات من عالم كرة القدم ومن عالم السياسة والغناء وعرض الأزياء وغير ذلك، لكي تتفاعل هذه الشخصيات مع ابناء الحي الفلسطيني الذي أعيش فيه، مسلطًا النقد عبر السخرية لعنجهية الاحتلال وعسفه، وفي الوقت نفسه ضد ما لدينا من تخلف وسلبيات.

كنت معنيًّا بكتابة قصصية جديدة، وفيها قدر من متعة التلقي، ولم أكن أفكر بالقراء بقدر ما كنت معنيًّا بتجاوز كتاباتي السابقة، وبالتعبير عمّا أشاهده وألاحظه من ظواهر وقضايا تستحق أن أكتبها.

*** ما هي الخلطة الناجحة للخروج بأدب ساخر ناجح؟**

- في تقديري؛ أن الكتابة الساخرة تتكوّن من خلطة مركّبة لا يمكن أن يمتلكها الكاتب بسهولة ويسر. ربما كان توافر قدر عال من القدرة على نقد الذات قبل نقد الآخرين عنصرًا أساسيًّا من عناصر هذه الخلطة. كذلك؛ لا بد من اطلاع واسع على الكتابات الأدبية الساخرة، في التراث وفي الآداب العربية المعاصرة وآداب الشعوب الأخرى؛ وعلى ما تبثه بعض محطات التلفزة من برامج ساخرة، وما تنشره الصحف من مقالات ساخرة يبدع كاتبوها في تصوير الأوضاع العامة بأسلوب جاذب للقراء؛ وكذلك ما يتم عرضه من مسرحيات كوميدية بعيدة من الابتذال. وأعتقد أن الإحساس بالمرارة من

الأوضاع العامة حين تكون مزرية هو سبب من أسباب الكتابة الساخرة، أو كما قال الناقد وليد أبو بكر عن السخرية في مجموعتي القصصية «صورة شاكيرا»: إنه البكاء على شكل الضحك؛ أو كما ورد في القول المأثور: شر البلية ما يضحك.

ولا بدّ من إحساس مرهف قادر على رؤية عدم التوازن في الواقع، قادر في الوقت نفسه على تضخيم بعض الجزئيات للوصول إلى الجوهري في الحياة وفي الواقع؛ على طريقة رسّام الكاريكاتير الذي يبرز على نحو ملموس بعض تفاصيل وجه الشخص المعني، كأن يرسم له أنفًا طويلاً أو شفتين غليظتين أو عينين جاحظتين.

*** قلّة يعلمون أنك اعتقلت العام ١٩٦٩ لدى سلطات الاحتلال، بعد أن فصلت من عملك كمدرس وتعرضت لقسوة السجن والسجان .. حدثنا عن هذه التجربة وكيف أثرت فيك، وانعكست على كتابتك؟**

- كنت ليلة السابع والعشرين من تموز ١٩٦٩ أقرأ في الكتاب الأبيض الذي وضعته لجنة إنجلو-أميركية لتقصي الحقائق بعد ثورة ١٩٣٦ . فجأة؛ سمعت هدير سيارات بالقرب من ساحة بئرنا الغربية. توقعت أن ثمة مداهمة لبيتنا. حملت بطاقة هويتي وخرجت من البيت بهدف الإفلات من الاعتقال؛ غير أنني وجدت جنود الاحتلال بطوقون البيت. وضعوا القيود في يدي؛ وبعد أن فتشوا البيت اقتادوني إلى سجن المسكوبية في الجزء الغربي من القدس. طلبوا مني الوقوف ووجهي إلى الحائط في ساحة مكشوفة أمام مكاتب التحقيق فترة غير قصيرة، ثم خضعت لتحقيق استمرّ حتى الساعات الأولى من الفجر.

ثم وضعوني في زنزانة مضاءة ليلاً نهاراً بضوء ساطع، وبعد ليلتين نقلوني وأنا معصوب العينين إلى سجن صرفند العسكري الذي يجري التكتم عليه. وُضعت في زنزانة طولها ٩٠ سم وعرضها ٨٠ سم، ومن دون فراش أو غطاء، كان النوم فيها بالغ الصعوبة بسبب ضيقها، ومن حسن حظي أننا كنّا في فصل الصيف؛ فلم أشعر بالبرد. بقيت فيها تسعة أيام تعرّضت خلالها للضرب وللشبح وللإهانات ولتحقيقات عن نشاطي السياسي ضد الاحتلال.

أعادوني إلى سجن المسكوبية، وبقيت فيه ثلاثة أسابيع ثم نقلت إلى سجن الرملة لليلة واحدة، نقلت بعدها إلى سجن الدامون قريبًا من حيفا، وبقيت فيه معتقلاً إداريًّا مدة تسعة أشهر، وغادرته إلى البيت في جبل المكبر بتاريخ ٠٧ / ٠٥ / ١٩٧٠ . ثم جاءوا إلى بيتي لاعتقالي أثناء حرب تشرين ١٩٧٣ ، ولم أكن في البيت؛ اختفيت مدة شهرين، ثم جرى اعتقالي مرة أخرى بتاريخ ١٩ / ٠٤ / ١٩٧٤ بتهمة الانتماء إلى الجبهة الوطنية الفلسطينية التي تشكلت بعد حرب تشرين، وتنقّلت في سجون

المسكوبية، ورام الله، والجلمة، وبيت ليد، ومكثت معتقلاً إداريًّا مدة عشرة أشهر، ثم أبعدت إلى لبنان بتاريخ ٢٨ / ٠٢ / ١٩٧٥، وكنت آنذاك مضربًا عن الطعام مع عدد كبير من الزملاء لخمسة أيام، احتجاجًا على سياسة الاعتقال الإدراي.

بقيت في بيروت مدّة ثمانية أشهر، أقمتُ بعدها في عمّان مدّة أربع عشرة سنة، وفي براغ مدة ثلاث سنوات، وعدت من الإبعاد الذي دام ثماني عشرة سنة إلى القدس بتاريخ ٣٠ / ٠٤ / ١٩٩٣ .

حينما كنت في السجن، لم أتمكن من الكتابة. كنت أشعر بأن المساحات الضيقة والأسوار الصفراء الكالحة تجعل ممارسة الكتابة من الصعوبة بمكان، لكنني كنت أقرأ كل ما يقع تحت يدي من كتب، وكنت أفكر في كتابة رواية، لكنني لم أشرع في كتابتها إلا بعد خروجي من السجن في العام ١٩٧٥ .

في وقت لاحق؛ في العام ١٩٩٨ على وجه التحديد، نشرت كتابي «ظل آخر للمدينة» وقد تطرقت فيه إلى تجربة السجن وكذلك لتجربة الإبعاد والعيش في المنفى.

*** وماذا عن الإبعاد والمنفى، والاحتكاك بجغرافيات وأدباء مغايرين، وتأثيرها على ما كتبه شقير؟**

- كان المنفى تجربة حياتية وثقافية وسياسية متعددة الأبعاد. من جهة؛ أتيحت لي فرص للاطلاع على ثقافات شعوب عدة من خلال القراءة؛ ومن خلال الاحتكاك المباشر بأنماط من المثقفين والكتاب والسياسيين، عبر المشاركة في مؤتمرات وندوات سياسية وثقافية. ومن جهة أخرى؛ فقد جرّبت على نحو مباشر ألم الفراق، فراق الأمكنة الحميمة والأهل والأصدقاء، هذا الألم الناتج عن الاقتلاع القسري من تربة الوطن. وتهيأت لي في الوقت نفسه فرصة لرؤية الوطن وقضاياه ورؤية قواه السياسية ومنظماته وتنظيماته وأحزابه من مسافة بعيدة، وتقييم كل ذلك بموضوعية وتجرّد، بعيدًا من العاطفة والانحياز، ومحاكمة الأمور بعقل بارد، ومحاولة التعرّف إلى أخطاء التجربة وإلى ما فيها من صواب، والخروج باستنتاجات لا أثر فيها للتعصب الحزبي أو الولاء للإيديولوجيا على حساب الحقيقة وطبيعة الأشياء.

*** كتبت مجموعة «خبز الآخرين» ما بين ١٩٦١ و١٩٦٦، وقدم لها توفيق زياد .. كيف تنظر إلى هذه المجموعة اليوم بعد مرور أكثر من نصف قرن .. وما يربطك بزياد؟**

- توفيق زياد من أكثر الناس الذين عرفتهم نبلاً وصدقًا ووفاء لشعبه ولقضيته وللناس الذين أحبهم وأحبوه. كتب مقدمة المجموعة وأنا في السجن الإسرائيلي. وحين عدت من المنفى مع عدد آخر من المبعدين كان توفيق زياد في استقبالنا مع حشود كبيرة من الناس عند استراحة أريحا. ومن المفارقات المؤلمة أنه كان في مكتبي في صحيفة «الطليعة» المقدسية الأسبوعية، قبل يوم واحد من وفاته بحادث سير في العام ١٩٩٥ ، وهو عائد من زيارة للرئيس ياسر عرفات في أريحا.

أما «خبز الآخرين» فهي تتكوّن من تسع قصص قصيرة مكتوبة ضمن سياقات القصة الكلاسيكية، وهي في مجملها تصور واقع الفلاحين الفقراء والنساء في الريف الفلسطيني، وتصور كذلك كدح العمّال في ورش البناء في القدس، وكذلك النساء الساعيات إلى رزقهنّ الشريف في أسواقها، بائعات للعنب ولغيره من منتجات الأرض.

هذه المجموعة القصصية هي التي مهّدت دخولي إلى عالم الكتابة الإبداعية على نحو لافت لانتباه النقاد والقراء سواء بسواء. وأنا أنظر إليها باعتبارها جزءًا من تراثي الإبداعي، وقد تجاوزتها منذ زمن طويل، شكلاً ومضمونًا، لكنها كانت وما زالت علامة دالة على بداياتي في الكتابة، وقريبًا ستصدر طبعتها الرابعة عن منشورات جمعية الزيزفونة في رام الله.

*** الكتابة للأطفال من أصعب أنواع الكتابة، ولكن كتبت ولا تزال .. هل هي المغامرة أم الشغف؟ وما خصوصية نصك الأخير لليافعين حول فدوى طوقان؟ وما الذي شجعك على الكتابة عن فدوى؟**

- منذ شرعت في كتابة القصة القصيرة أوائل ستينات القرن العشرين وأنا معني بالكتابة عن الأطفال؛ وعن نظرتهم البريئة البكر إلى الحياة. ظهر الأطفال في قصصي التي كتبتها في ستينات القرن العشرين، مثلاً في قصص: متى يعود إسماعيل، اليوم الأخير، والفتى الريفي.

وحين أبعدت من الوطن إلى لبنان، لفتت انتباهي منشورات دار الفتى العربي التي كانت تصدر آنذاك في بيروت، قرأت قسمًا غير قليل من هذه المنشورات، وقرأت في الوقت نفسه كتبًا كتبها كتاب صهاينة للأطفال، وفيها إساءات للعرب وللفلسطينيين، ومحاولات تشويه لهم، بحيث يظهر العربي في هذه القصص بوصفه غادرًا وقاتلاً ولصًّا وقذرًا وليس له أمان. وترافق كل ذلك مع الانتفاضات الجزئية التي كانت تقوم بها الجماهير في بعض المدن الفلسطينية المحتلة، حيث قتل الجنود الصهاينة آنذاك رجالاً وأطفالاً من بينهم؛ الطفل علي عفانة في القدس، والطفل جمال الزين في رام الله؛ أثناء التظاهرات ضد الاحتلال الإسرائيلي.

وكان أول رد فعل لي على صعيد الكتابة للأطفال أن كتبت قصة عن معاناة حقيقية على الجسر لطفلتي أمينة، حين مزق جندي إسرائيلي لعبتها التي حملتها معها من عمان وهي عائدة مع أمها إلى القدس؛ بعد زيارة لي في المنفى، فكتبتُ قصة اسمها: الجندي واللعبة.

وبسبب ما تشكله المنابر الخاصة بأدب الأطفال من تحفيز على الكتابة، فقد تجمعت كل العناصر المذكورة أعلاه في نفسي، وشرعت في الكتابة للأطفال، وقمت بنشر قصصي هذه في مجلة أسامة السورية، وسامر الأردنية؛ علاوة على ملحق صحيفة الرأي المخصص للأطفال.

وحين عدت إلى الوطن، واصلت الكتابة للأطفال وللفتيات والفتيان، كتبت قصصًا ونصوصًا مسرحية

وروايات. وكان للمؤسسات التالية فضل كبير عليّ إذ نشرت لي العديد من الكتب للأطفال ولليافعين: اتحاد الكتاب الفلسطينيين (عزت الغزاوي)، مركز أوغاريت للنشر والترجمة (وليد أبو بكر)، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي (جيهان الحلو ورناد القبج)، منشورات البحيرة (يحيى يخلف)، الدار الأهلية في عمان (أحمد أبو طوق)، منشورات نون (ناهد الشوا)، مكتبة كل شيء في حيفا (صالح عباسي) جمعية الزيزفونة ومجلتيها (شريف سمحان)؛ علمًا بأنني داومت على الكتابة المنتظمة لمجلتي الزيزفونة الكبيرة والصغيرة ما يقارب العشر سنوات، وحين توقّفت الزيزفونة الكبيرة عن الصدور، فقد واصلت كتابة قصة كل شهر للزيزفونة الصغيرة التي ما زالت تصدر عن الجمعية في مدينة رام الله حتى الآن.

وبالطبع؛ فإن الكتابة للأطفال ليست سهلة، وأنا أعترف أن بعض قصصي شابها شيء من المباشرة ومن نزعة الوعظ التربوية، لكنني مع طول المراس ومراكمة الخبرة في الكتابة؛ رحت أتخلص من هذه السلبيات والنواقص إلى حد كبير.

وأما الكتاب الذي أعددته عن فدوى؛ فقد جاء في سياق الاحتفال بمئويات رواد الثقافة والتنوير؛ هذه المئويات التي بادرت إليها وزارة الثقافة، وكانت فدوى طوقان هي الأولى التي تم الاحتفال، طوال العام، بمرور مئة عام على ولادتها، وقد قمت بإعداد هذا الكتاب «فدوى طوقان.. الرحلة الأبهى» للفتيات والفتيان استنادًا إلى كتابَيّ السيرة اللذين كتبتهما فدوى، مستفيدًا في ذلك من تقنيات السرد الروائي؛ على نحو يسهّل على الفتيات والفتيان استيعاب أهم ما ورد في هذين الكتابين.

الجدير ذكره أن الكتاب صدر بالتعاون ما بين وزارة الثقافة ومؤسسة تامر للتعليم المجتمعي في رام الله.

*** عندما نتحدث عن الرواية الفلسطينية يجري الحديث عن كنفاني وإميل حبيبي وجبرا .. كيف ينظر شقير إلى ريادة هؤلاء وهل من رواد آخرين برأيك؟ ومتى سنخرج من عباءاتهم، أم أن هناك من خرج بالفعل؟**

- حين نظمت وزارة الثقافة الفلسطينية مؤتمر فلسطين الأول للرواية العربية في رام الله في شهر أيار ٢٠١٧؛ كانت لي مشاركة في هذا المؤتمر، وقد أحصيت يومها في مداخلة مطوّلة عدد الروائيات والروائيين الذين ظهروا على ساحة الرواية منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ إلى العام ١٩٩٣ فكانوا على وجه التقريب ٨٩ روائيًّا وروائية، وكان عدد الذين ظهروا من العام ١٩٩٣ إلى العام ٢٠١٧ ما يقارب ١٧٤ روائيًّا وروائيّة.

وبالطبع؛ ليست كل الروايات التي أنجزت منذ ذلك التاريخ، تاريخ الهزيمة في المستوى الفني

المطلوب، لكن مجرد الإقبال على كتابة الرواية بمثل هذا العدد يدلّل على حالة إيجابية بغضّ النظر عما رافقها من تسرّع ومن نواقص وسلبيات، وثمة من دون شك تأثير أكيد على عدد غير قليل من هؤلاء الكتاب لروّاد الرواية الفلسطينية، أو للعلامات الثلاث في الرواية الفلسطينية؛ بتعبير القاص والروائي فاروق وادي، علمًا بأن توفيق فياض نشر روايته «المشوهون» في العام ١٩٦٣ ، وهو العام نفسه الذي نشر فيه غسان كنفاني روايته «رجال في الشمس»، كما نشر نبيل خوري روايته (حارة النصارى) وهي الجزء الأول من ثلاثية روائية في العام ١٩٦٧ .

ولو توقفنا عند الروايات التي ظهرت بعد استشهاد غسان كنفاني بسنوات قليلة، لأدركنا أن ثمة ما يوحي بإمكانات واعدة للرواية الفلسطينية. أقصد هنا سحر خليفة في روايتها الأولى « لسنا جواري لكم» التي فضحت فيها المجتمع الذكوري، وروايتها الثانية «الصبار» التي رصدت فيها حياة شرائح اجتماعية معيّنة في مدينة نابلس بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، وثلاثة روائيين ابتدأوا كتابة الرواية انطلاقًا من رصد معايشتهم لمجتمع شبه الجزيرة العربية: يحيى يخلف في «نجران تحت الصفر» و إبراهيم نصر الله في «براري الحمى» و جمال ناجي في «الطريق إلى بلحارث» ثم واصل هؤلاء الأربعة كتابة روايات أخرى عديدة فيما بعد؛ فيها تجريب واجتهادات جمالية مختلفة، وطرائق جديدة في السرد وفي وصف الأماكن وخلق الشخوص.

وجاء بعد ذلك من كتبن وكتبوا عن المكان الفلسطيني وغيره من الأمكنة، وعن الأرض والقضية ومآسي النكبة والتشريد، وعن المقاومة؛ وما يتضمنه كل ذلك من حمولات فكرية وعاطفية وإنسانية، ومن أساليب متنوعة في السرد: رشاد أبو شاور (العشاق)، غريب عسقلاني (الطوق)، عبد الله تايه (الذين يبحثون عن الشمس)، وليد أبو بكر (الخيوط)، فاروق وادي (طريق إلى البحر) ،أحمد حرب («إسماعيل)، حسن حميد (السواد أو الخروج من البقارة)، ليلى الأطرش (وتشرق غربًا)، ليانة بدر (بوصلة من أجل عباد الشمس)، عيسى بلاطة (عائد إلى القدس)، أحمد رفيق عوض (العذراء والقرية)، غسان زقطان (وصف الماضي)، صبحي فحماوي (سروال بلقيس)، أكرم مسلم (سيرة العقرب الذي يتصبب عرقًا)، سلوى الجراح (أرق على أرق)، وليد الشيخ (العجوز يفكر بأشياء صغيرة)، محمد علي طه (سيرة بني بلوط). ديمة السمان (برج اللقلق)، عزت الغزاوي (عبد الله التلالي)، ربعي المدهون (مصائر)، وليد الشرفا (وارث الشواهد)، خضر محجز (عين اسفينة)، عاطف أبو سيف (حياة معلقة)، أنور حامد (يافا تعد قهوة الصباح) زكريا محمد (عصا الراعي) حزامة حبايب (مخمل)، صبحي فحماوي (سروال بلقيس) محمود الريماوي (من يؤنس السيدة) جهاد أبو حشيش (ذئب الله)، حسام زهدي شاهين (زغرودة الفنجان) نافذ الرفاعي (الخنفشاري)، رجاء بكرية (امرأة الرسالة)، محمد هيبي (نجمة النمر الأبيض) حسين ياسين (ضحى) جميل

السلحوت (نسيم الشوق)، وداد البرغوثي (ذاكرة لا تخون) عبّاد يحيى (رام الله الشقراء)، عزام أبو السعود (سبيريتزما) عيسى القواسمي (عازفة الناي) علاء حليحل (أورفوار عكا) مايا أبو الحيات (لا أحد يعرف فصيلة دمه)، عارف الحسيني (كافر سبت)، ماجد أبو غوش (عسل الملكات) إبراهيم جوهر (أهل الجبل)، عبد الله دعيس (لفح الغربة) إياد شماسنة (امرأة اسمها العاصمة)، أسعد الأسعد (هناك في سمرقند) قاسم توفيق (فرودمال)، سمير الجندي (خلود)، موسى برهومة (حتى مطلع الشغف)، علاوة على الروائيات والروائيين: توفيق أبو شومر، مروان عبد العال، سامية عيسى، سناء أبو شرار، بشرى أبو شرار، محمد نفاع، يوسف ضمرة، عصمت منصور، صالح أبو لبن، د.راضي شحادة، إلياس أنيس خوري، أماني الجنيدي، ابتسام عازم، محمود أبو هشهش، سلمان ناطور، سامح خضر، صافي صافي، خالد درويش، وليد الهودلي، هشام نفاع، حافظ البرغوثي، صونيا خضر، خالدة غوشة، مزيّن برقان، نزهة أبو غوش، ربحي الشويكي، مهند الصباح، بهاء رحال، ميسون أسدي وآخرون.

ولا بد من التنويه بأن ثمة روايات فلسطينية باللغة الانكليزية لكلّ من: رولا جبريل، سوزان أبو الهوى، ابتسام بركات، هالة عليان، وأحمد مسعود.

لا بدّ من التنويه كذلك بحضور الرواية المكرّسة للفتيات والفتيان، ومن كاتباتها وكتابها: تغريد النجار، أحلام بشارات، سونيا نمر، خالد جمعة، جميل السلحوت، هدى الشوا، أنس أبو رحمة، ابتسام أبو ميالة، نزهة أبو غوش، وشيراز عنّاب.

وحين تجلّت السخرية بأبهى صورها في متشائل إميل حبيبي؛ فإننا لم نظفر إلا بقليل من الروايات الساخرة، وتحضرني الآن رواية ابراهيم نصر الله «حارس المدينة الضائعة» وروايتا عادل الأسطة «خربشات ضمير الغائب، وليل الضفّة الطويل»، وكذلك رواية أسامة العيسة «مجانين بيت لحم».

ويكاد ينفرد الروائي والفنان التشكيلي محمود شاهين بكتابة الرواية ذات الأبعاد الفكرية والفلسفية، وأقصد هنا روايته «أديب في الجنّ».

وثمة من كتبوا روايات كابوسية لافتة للانتباه، أشير هنا إلى رواية «الخليل بن جلجل» التي استفاد كاتبها جمال ضاهر مما في تراثنا من مذابح ودماء، ورواية « رامبير.. حفلة تنكرية» التي استفاد كاتبها المتوكل طه مما في واقعنا الراهن من ترهّل وفساد. ثمة من كتب رواية مستندة إلى مادة التاريخ، واستحضر شخصية إشكالية هي الخيزران؛ أم هارون الرشيد، وأشير هنا إلى رواية «مسك الكفاية» للأسير لباسم خندقجي.

وفي اعتقادي أنّ ثمة قلة من الروائيات والروائيين الفلسطينيين الذين أضافوا إلى رصيد الرواية

الفلسطينية إضافات بارزة على صعيدي الشكل والمضمون، تتجاوز على هذا النحو أو ذاك؛ أو تضاهي بشكل أو بآخر المكانة المرموقة التي ما زالت تحتفظ بها روايات جبرا وغسان وإميل حبيبي.

*** في «مديح لنساء العائلة» رصد لحكايات وحيوات وعوالم ما قبل النكبة وبعدها، بل والتنقل في جغرافيات عدة، عبر نساء العائلة والحارة، وعن البادية التي كانت محور روايتك الأولى «فرس العائلة» .. هل هي المراوحة ما بين الرواية والسيرة الذاتية، أو سيرة ذاتية بأسلوب روائي؟ وهل تعتبر الثانية جزءا متمماً للأولى؟**

- في كل كتاب قصصي لي أو رواية من رواياتي ثمة شيء من حياتي الشخصية ومن سيرتي وسيرة الناس المحيطين بي، إلا أنني لا أميل إلى تصنيف «مديح لنساء العائلة» على أنها رواية سيرة. ذلك لأنني أستعرض فيها طيفًا واسعًا من العلاقات الاجتماعية ومن التشظي الذي أصاب العائلة الفلسطينية جراء نكبة العام ١٩٤٨ وما نتج عنها من انهيار للمجتمع الفلسطيني ومن انهيار للحداثة التي كانت ناشئة فيه آنذاك، ولعل التنقل في جغرافيات عدة، في الأردن ولبنان والبرازيل والكويت وهولندا، التي تشتّت فيها أبناء العائلة، عائلة العبد اللات؛ يعكس هذا الشتات الذي وقع للشعب الفلسطيني بعد النكبة.

في الرواية؛ ثمة مكان مركزي تنطلق منه الأحداث وتعود إليه، وينطلق منه الشخوص، وقد يعودون إليه وقد لا يعودون، هذا المكان هو قرية راس النبع المجاورة للقدس، التي أصبحت فيما بعد حيًّا من أحياء القدس.

*** أخيراً .. ماذا يعد محمود شقير في الأيام القادمة من أعمال أدبية؟**

- انتهيت من كتابة رواية اسمها «ظل آخر للعائلة» وهي الجزء الثالث المتمّم لروايتَيَّ السابقتين: فرس العائلة، ومديح لنساء العائلة. في الرواية الثالثة؛ أتحدث من خلال شخوص الرواية: قيس وليلى ورهوان ومحمد الأصغر عن زماننا الراهن؛ وما فيه من انهيار للقيم النبيلة، ومن انحطاط وبؤس وشقاء. أتحدث كذلك عن عسف المحتلين الإسرائيليين ضد الفلسطينيين وإجراءاتهم االمستمرة في الاستيلاء على الأرض وفي محاولات تهويد القدس.

وأنا الآن بصدد نشر روايتي السابعة للفتيات والفتيان واسمها: «حمَام السطح». وفيها؛ من خلال غياب مؤقّت لست حمامات يملكها فرج الغلبان، كشف لطبيعة العلاقات الاجتماعية في الحي الذي يعيش فيه فرج، فيها في الوقت نفسه إبراز لدور اليافعين وجيل الشباب في أداء دور إيجابي في المجتمع، وفي سدّ الفراغ الناتج عن الالتباس في العلاقات، من خلال أبطال الرواية: أدهم وأشرف وجورجيت وأحمد.

جدارية القرن الماضي .. عندما تكتب الإبنة بلسان الأم

محمود الورداني

هذا الكتاب يتجاوز السيرة الذاتية والتاريخ والسياسة والبورتريهات الشخصية لنجوم الثقافة والفن والنضال السياسي.. إنه كل هذا وغيره، فهو أطول جدارية(٥٥١ صفحة) عن مصر وناسها وأيامها وعناصرها وتكونها والذوبان فيها وعشقها والتضحية من أجلها .

وعلى كثرة السير الذاتية وكتب التاريخ والسياسة عن الماركسيين في مصر، فإن هذا الكتاب تحديدا ربما كان الأكثر تميزا ونفاذا إلى الجوهر، فهو حديث شخصي طويل مكتوب بالعامية المصرية، مباشر وغير متحذلق ولايدعي امتلاك الحقيقة، وحسبما أشارت المؤلفة،فإن فكرة الكتاب بدأت في مارس عام ٢٠٠١، عندما كانت نائلة كامل صاحبة السيرة في السبعين من عمرها، وابنتها في سن الأربعين ..تقول نادية في مقدمتها عن أمها :" كانت تتسند على عيني برفق لتطل على هوة ذاكرتها. زحفت القصص عليها، تنزح منها وتكسح عليّ، غمرتني، أشرب ماأشرب وأعب ماأعب" وتضيف" بعد موتها وجدت نفسي وحدي أمام مهمة الكتابة، كان عليّ أن أستلهم سر السرد من صوتها في كياني، وميض الخيوط الحريرية، الأحداث في حوار قلق مربك مع الزمن، صوت ماما» .

تضم السيرة ثلاثة أجيال تحكي عنها نائلة كامل وتكتبها ابنتها نادية، وتعتمد الأم على ذاكرتها الحادة اللاقطة وحدها ، ولاتحتاج للرجوع إلى وثائق أو مراجع من أي نوع، بالرغم من أنها تؤرخ لقرن كامل.

ولدت نائلة في القاهرة عام ١٩٣١ لأب يهودي مصري ولد أيضا في القاهرة عام ١٩٠٩، ومن جد من رعايا الدولة العثمانية نزح من أوديسا، بينما الأم ولدت لأسرة مسيحية في إحدى

قرى إيطاليا عام ١٩٠٢، ونزحت إلى مصروحدها، والتقت بالأب وربط الحب بينهما وأصرا على الزواج رغم معارضة الأهل.

لابد من الإشارة هنا إلى أمرين تلفت السيرة النظر إليهما. الأول هو هذا القدْر المذهل من السماحة والتعايش والاحترام الكامل لكل الأجناس والأعراق والأديان، فمثلا كان سكان الدولة العثمانية يتحركون في كل أرجائها بلا أوراق أو جوازات، كما أنه كان سهلا وبلا أي تعقيدات أن يهاجر أبناء الدول الأوروبية المحيطة بالبحر المتوسط إلى الدول الأخرى الواقعة على الجانب الآخر من المتوسط.

أما الأمر الثاني الذي تلفت السيرة النظر إليه فهو ثراء مصر الفاحش ومواردها الغنية واقتصادها المتين ، مما جعلها حلما لليونانيين والايطاليين والأرمن والفرنسيين ورعايا الدولة العثمانية، فضلا عن حُسن استقبال أبنائها للأغراب والمهاجرين مهما كانوا مختلفين في الدين أو الجنسية أو العرق.

تبدأ نائلة كامل المولدة باسم ماري روزنتال روايتها منذ تفتح وعيها، طفلة من أم إيطالية مسيحية وأب يهودي مولود في مصر لأب مصري. كان عدد الأوروبيين في مصر كبيرا، ولم يعيشوا في القاهرة والإسكندرية فقط، بل في سائر محافظات الوجه البحري. كانت أسرتها بالغة الفقر، وتعيش وسط الأسر الفقيرة المصرية والأوروبية بكل ود ومحبة. تحكي عن الأسواق والشقق المزدحمة التي تسكن كل منها عدة أسر والذهاب إلى السينما واللعب مع أولاد الجيران. مسلمون ومسيحيون ويهود وجدوا الصيغة المناسبة للعيش المشترك مع الاحتفاظ بقدر محدود من الخصوصية. الأوروبيون يتحدثون بلغاتهم مع مواطنيهم ومع المصريين بالعربية، ولم يشكّل ذلك أي معضلة، حتى عندما يصل الأولاد إلى سن المدرسة، ويلتحق الأوروبيين بمدارس جالياتهم.

أما صاحبة السيرة فقد التحقت بالحركة الشيوعية منذ وقت مبكر وهي في الخامسة عشرة من عمرها، لهذا فإن سيرتها تعد واحدة من أهم الوثائق السياسية – إن لم تكن أهمها جميعا وأكثرها شمولا - التي تلقي الضوء على الدور الذي لعبه المصريون ذووا الأصول الأوروبية في الحركة السياسية المصرية عموما منذ أوائل القرن الماضي، وتعرضت للسجن عدة مرات منذ سن السابعة عشرة بسبب نشاطها السياسي، وانخرطت في الكفاح السياسي ، عندما تعرفت على الماركسية في نوادي ومقرات الجاليات الأجنبية، على مدى عدة عقود متواصلة.

على أي حال تعتبر نائلة كامل عام ١٩٤٨ عاما فاصلا في الحركة الشيوعية في مصر. فبعد هزيمة الجيوش العربية شنّت الحكومة حملة اعتقالات ضد الأجانب ومن أسمتهم بالصهاينة، وكانت مناسبة لاعتقال كثير من الشيوعيين الناشطين في مصر، وازداد الشعور بالعداء ضد الأجانب بسبب ما حدث في فلسطين وقيام الدولة العبرية. ووصل الأمر إلى أن يعقد الشيوعيون الإيطاليون في مصر مؤتمرا قرروا فيه أنه لايمكن، في ظل تلك الأجواء أن يلعب الأجانب دورا حقيقيا، خصوصا بعد الاستيلاء الصهيوني على فلسطين وطرد الفلسطينيين، وأن على كل أجنبي أن يعود إلى بلده ويواصل الكفاح هناك.

أما صاحبة السيرة فاختارت أسرتها البقاء في مصر التي اعتبروها وطنهم، وواصلت هي العمل السري في منظمة «حدتو»، وكانت مهمتها استلام المنشورات من المطبعة، وتسليمها لمن يقوموا بتوزيعها، واستغل رفاقها ملامحها الأوروبية لخداع أجهزة الأمن، وأمضت عامين تقريبا حتى قُبض عليها متلبسة. وفي السجن تعرفت على الكثيرات من رفيقاتها الشيوعيات، وبعضهن متزوجات من الكوادر الكبرى، ويلفت النظر مثلا أن عددا منهم كانوا يهودا مثل هليل شوارتز ومارسيل إسرائيل. وهنا تؤكد أن موقف الجميع كان ضد الدولة العبرية،أما هي فلم تكن مسألة ديانة أبيها اليهودي تشغلها ولم تكن مطروحة أصلا في أسرتها أو بين الجيران.

مثلما في سائر صفحات السيرة، تهتم نائلة بالتفاصيل ، بل هي مولعة بالتفاصيل، فتحكي عن قصص الحب والهجر بين رفاقها الذين تفصل بينهم السجون، وعن كثير من اليهوديات الشيوعيات اللائي زاملنها في السجن ولهن نفس موقفها السياسي برفض إسرائيل واعتبارها استعمارا استيطانيا. وبعد عام ونصف العام خرجت من السجن، على الرغم من أن الحكم عليها كان بالسجن عاماً واحداً.

وهكذا فلم تكن حياتها نزهة، وكان الكفاح السياسي للماركسيين في مصر محفوفا بالمخاطر طوال الوقت، كما أن حملات الاعتقال الموسمية لم تكن تتوقف ،وكثيرا ماتعرض نجوم السينما مثل الفنانتين تحية كاريوكا ولولا صدقي مثلا للاعتقال، بسبب النشاط السياسي ل» حركة أنصار السلام» وهي حركة شعبية دولية أسست لعدم الانحياز والوقوف ضد الحرب في خمسينات القرن الماضي.

تلفت السيرة النظر أيضا إلى ماكانت تتمتع به مصر من تسامح مذهل، ولم تشعر صاحبة السيرة باختلافها لحظة بسبب أن ديانة أبيها يهودية وأمها مسيحية وزوجها مسلم.. كان

الدين لله فعلا، وشعرت أنها مصرية فقط مثلما شعر أبوها أنه مصري مولود في مصر، حتى تم ترحيله قسرا إبان موجة العداء للأجانب في ستينات القرن الماضي ، واستقر في إيطاليا مع أهل زوجته.

أعود إلى رواية نائلة المولودة باسم ماري روزنتال، إبنة اليهودي المصري المولود في مصر إيلي روزنتال، والتي تتمتع بذاكرة مذهلة، وبعد مرور عدة عقود على الأحداث التي عاشتها، لا تتذكر شهور وسنوات السجن بوجه عام، بل تتذكر ورفيقاتها ورفاقها في السجن وملامحهم وأصولهم، كما تتذكر السجانات والضباط وشكل الزنازين وتفاصيل الحياة داخل السجن، وتتذكر أيضا حركة السلام التي أسسها الكاتب والصحفي سعد كامل، وكيف تعرفت عليه في خضم هذه الحركة وربط الحب بينهما، وتزوجته مرتين، الأولى زواجاً إسلامياً بعد أن نطقت بالشهادتين، ولإرضاء أمها الإيطالية المسيحية، استصدرت من الفاتيكان موافقة على أن تتزوج مرة ثانية في الكنيسة!. أما حركة السلام فهي حركة يسارية شعبية في أوائل الخمسينات وقفت ضد الولايات المتحدة ودول أوروبا الاستعمارية في زمن الحرب الباردة، وضمت في صفوفها كل ألوان الطيف السياسي، وامتد نفوذها وتأثيرها حتى أن عديدا من الفنانين والفنانات والمثقفين وقادة النقابات كانوا من أعضائها، وظلت علاقة تلك الحركة بالضباط الأحرار جيدة حتى انقلب النظام عليها وزج بأعضائها في السجون بعد انقلاب عبد الكريم قاسم في العراق.

ولم يكن قد مضى على زواج نائلة كامل إلا شهورحتى ألقي القبض عليها هي وزوجها وحُكم على كل منهما بالسجن خمس سنوات، إلى جانب خمس سنوات أخرى تخضع فيها للمراقبة التي تقضي بمرور مسؤول من قسم الشرطة يوميا قبل الغروب ويوقّع لكل منهما في دفتر مخصوص.

من المثير للدهشة أن تتذكر صاحبة السيرة مثلا، كيف تعرفت في السجن على فنانة تشكيلية من أصول فلسطينية هي آمال عبد النور، وكانت قد انخرطت في الحركة الشيوعية وتعرضت للسجن، و حكت لها كيف طرد اليهود أسرتها بعد ١٩٤٨، وكيف استقبل السكان الفلسطينيون، اليهود الأوروبيين الذين كانوا على ظهر البواخر تجول بهم في عرض البحر دون أن يُسمح لهم بدخول أي بلد، فيستقبلهم الفلسطينيون ويساعدونهم، وسرعان ماتحول هؤلاء اللاجئون اليهود إلى مسلحين شكلوا عصابات مثل الأرجون وشتيرن وغيرهما، وانتهى

الأمر بالفنانة آمال عبد النور وأسرتها بإجبارها على الفرار من المذابح التي ينفذها اليهود، واضطروا للإقامة عند أقارب لهم في القاهرة.

كذلك لاتنسى أقسى ماتعرضت له بعد الإفراج عنها بعشرة أيام، عندما ألقي القبض عليها مرة أخرى لترحيلها خارج البلاد لأنها لاتحمل الجنسية المصرية. كان ذلك الأمر بالغ القسوة والفظاظة بل والإجرام من جانب النظام الحاكم.. وبالفعل جاء ممثلون من الصليب الأحمر لاستلامها وترحيلها ، وهو أمر تكرر عدة مرات خصوصا بعد العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ ، عندما كان يُقبض على أوروبيين لايحملون أوراقا تثبت حصولهم على الجنسية المصرية. لكن نائلة مصرية مولودة في مصر ووالدها مصري مولود في مصر وفي حوزتها شهادة ميلاد تثبت ذلك ولاتحمل أي جنسية أخرى ولم تخرج قط من مصر وزوجها مصري.. هكذا كانت نائلة تصرخ غاضبة أمام ممثلي الصليب الأحمر، مما اضطرهم للاعتذار عن استلامها لأن شروط الترحيل لاتنطبق عليها .. لم يُحلّ هذا الأمر إلا بعد مرور عدة شهور أمضتها رهن الاعتقال، وفي أثنائها أمكن الوصول لجمال عبد الناصر شخصيا من خلال احد الوزراء الذين نالوا ثقة نظام مابعد يوليو ١٩٥٢ وهو الوزير والكاتب والسياسي فتحي رضوان، وهو في الوقت نفسه خال سعد كامل زوجها. مع كل ذلك لم تحصل على حقها في الجنسية المصرية إلا بعد سنوات بوصفها زوجة مصري!!

أما شخصيات السيرة، الذين يتحركون طوال الوقت ويراهم القارئ بوصفهم شخصيات حية بسبب دقة صاحبة السيرة وذاكرتها المذهلة، فهم نجوم من طراز يوسف إدريس وعلي الراعي الذي كان متزوجا من شقيقة سعد كامل وصلاح حافظ وعبد الرحمن الشرقاوي وحسن فؤاد وبهجت عثمان وأمينة السعيد وأمينة شفيق وثروت عكاشة والسادات ومبارك .. وغيرهم وغيرهن على مدى عقود تمتد من الخمسينات وحتى الألفية الجديدة.

تتوالى صفحات السيرة الحافلة بالتفاصيل الغنية المدهشة، من بينها مثلا كيف تم الاستعانة بالكاتب والصحافي سعد كامل لـتأسيس واحد من أهم الأجهزة الثقافية في مصر منذ كان رهن الاعتقال في سجن الواحات عام ١٩٦٤، عندما تعرف على طبيب شاب كان يمر على السجون في نطاق عمله في وزارة الصحة المصرية، وهو أحمد عكاشة شقيق وزير الثقافة المقّرب من عبد الناصر، ومن هنا بدأ أول الخيط حتى شيّد سعد كامل أضخم جهاز ثقافي يعمل في خدمة الدعاية للنظام الجديد، الذي كان يرفع آنذاك الشعارات الديماجوجية حول

بناء الاشتراكية العربية والوحدة والقومية العربية وتحرير فلسطين.. إلخ.الجهاز إسمه هيئة الثقافة الجماهيرية التي قامت ببناء قصور ثقافية في قلب القرى والنجوع في أغلب المدن المصرية، ويضم كل قصر مسرح وسينما ومكتبة وفرقة موسيقية ويمثل مركز إشعاع ثقافي ينشط بين الجماهير.

كل هذا ترويه نائلة كامل لابنتها المخرجة السينمائية نادية كامل بالعامية المصرية البسيطة، وبحيوية شابة في الثلاثين، انخرطت الحياة السياسية والنضالية لجيلها، وتتذكر فجأة وبعد مرور مايقرب من نصف عدد صفحات سيرتها الذاتية أنها لم تهتم مطلقا بالسؤال عن مصير أقربائها اليهود. وهنا تضافرت عدة عوامل، أدت في النهاية إلى زيارة قريبتها الوحيدة الباقية من بين أقارب كثيرين هاجر بعضهم إلى إسرائيل، وهاجرالبعض الآخر إلى دول أوروبية، لكن الزيارة كانت بعد أن جرت في النهرمياه كثيرة، من أهمها توقيع اتفاق أوسلو.

وكانت المخرجة السينمائية نادية كامل التي كتبت السيرة بلسان أمها قد صنعت واحدا من أهم الأفلام القصيرة وأكثرها حساسية، عندما رافقت أمها وأباها إلى إسرائيل لزيارة قريبتها الوحيدة الباقية وهي في السبعين من عمرها . الفيلم هو" سلاطة بلدي" .وقبل الفيلم، كانت نادية قد تعرفت على المصورة الفلسطينية راندا شعث أثناء اشتراكهما في فعاليات معرض الكتاب في القاهرة عام ١٩٨٢ احتجاجا على حصار الفلسطينيين وطرد المقاومة من بيروت، ثم توثقت العلاقة بين أسرة نبيل شعث السياسي المعروف والمقيمة في القاهرة، وبين أسرة كامل، والتقى كل من دينا إبنة سعد كامل والشاب علي شعث إبن نبيل، وربط الحب بينهما وتزوجا بالفعل ، وإن كان علي للأسف قد قضى نحبه شابا.

وهكذا أحبت وتزوجت دينا ذات الأصول اليهودية بعلي الفلسطيني وأنجبا طفلا أسموه نبيل على إسم جده، وعندما سافر علي ودينا إلى غزة وأقاما هناك بعد توقيع اتفاق أوسلو وتعيين نبيل شعث وزيرا في الحكومة، سافرت نائلة وسعد كامل أكثر من مرة لزيارة ابنتهما، وفي إحدى المرات قررت أن تقطع عدة كيلومترات في اتجاه الضفة الأخرى للقاء قريبتها الإسرائيلية، وهو الحدث الذي سجّلت وقائعه نادية كامل في فيلمها السابقة الإشارة إليه.

وأخيرا تخصص صاحبة السيرة عدة صفحات تخاطب فيها حفيدها نبيل الذي لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره وقت كتابة المذكرات، بكلمات تقطر شجنا ، وتتمنى أن يقرأ سيرتها عندما يكبر، ليعلم أن جدته ذات الأصول اليهودية كانت مع الحقوق الفلسطينية، وأمضت

عمرها تدافع عن الحرية وعن الاشتراكية وليست نادمة على شيء، بل على العكس تتمنى أن ترحل بهدوء .

لايمكن إيفاء هذه السيرة الضخمة حقها ولايمكن بطبيعة الحال عرض كل ماتضمه من أحداث ووقائع، خصوصا وأنها تلامس قرب النهاية القضية الفلسطينية بسبب زواج ابنتها دينا من علي شعث الفلسطيني، ولقائها الأخير بإحدى قريباتها المواطنة «الإسرائيلية» وهما معا تجاوزتا السبعين من عمرهما.

أكرم زعيتر: فاتح الحفير ومغلق الصرفند وتجربته في جمعية العناية بالمساجين*

جهاد أحمد صالح

ولد أكرم زعيتر في مدينة نابلس عام ١٩٠٩م، وأكمل دراسته الثانوية في كلية النجاح فيها، وانتسب إلى الجامعة الأميركية ببيروت، فكلية الحقوق بالقدس ونال شهادة الحقوق منها.

عمل في التدريس ثم استقال عام ١٩٢٩م، وألقى بنفسه في خضم النضال الوطني والقومي متفرغاً كاملاً، واتخذ الصحافة طريقاً له، فتولى رئاسة تحرير جريدة «مرآة الشرق» لكنه اعتقل بعد ثلاثة أشهر نتيجة إحدى مقالاته وأودع السجن، وحكم عليه بالإقامة الجبرية في نابلس لمدة عام.

عاد إلى القدس ليتولى تحرير جريدة «الحياة»، ومرة أخرى، اعتقل وجرت محاكمته وتقرر إبعاده إلى نابلس، وأُغلقت جريدة «الحياة».

وقد مارس التدريس في كلية النجاح في نابلس وأسهم في تأليف «جمعية العناية بالمعتقلين العرب» وأسهم في تأليف حزب ينادي باستقلال فلسطين، أطلق عليه «حزب الاستقلال» لعب دوراً مهماً في الحياة الفلسطينية.

في عام ١٩٣٣م، شارك في المؤتمر التأسيسي لعصبة «العمل القومي في سوريا» الذي عقد في بلدة «قرنايل» في لبنان، وانتخب نائباً لرئيس المؤتمر، وفي السنة نفسها أوفد إلى العراق لتشييع الملك فيصل، فاستبقي هناك، فساهم في تأسيس «نادي المثنى» و «الجوال القومي».

عاد إلى نابلس إثر تطوّر الأحداث، فدعا إلى تأسيس اللجنة القومية في عموم فلسطين، وتولى أمانة

*جزء من كتاب «السجون والمعتقلات في عهد الانتداب البريطاني لفلسطين»

سر لجنة نابلس، ولعب دوراً مميزاً في تشييع الشيخ عز الدين القسام والإضراب العام الكبير، فاعتقل وكان أول معتقل في ثورة ١٩٣٦م، ثم نقل إلى معتقل صرفند، وكان آخر من خرج منه، فلقّب للدعاية «فاتح الحفير ومغلق الصرفند» لعب دوراً مهماً في سوريا والعراق وتركيا.

عاد إلى فلسطين وتولى أمانة سر الندوة الاسلامية في دوراتها الثلاث في بيت المقدس (١٩٥٩ – ١٩٦٢م) ومثّل الأردن في الدورة السادسة عشرة للأمم المتحدة، ثم عيّن سفيراً للأردن في سوريا، وفي عام ١٩٦٦م، عيّن وزيراً للخارجية الأردنية لمدة عام واحد، ثم عيّن عضواً في مجلس الأعيان، ثم وزيراً للبلاط الهاشمي في عام ١٩٧١م، عيّن سفيراً للأردن لدى لبنان واليونان حتى عام ١٩٧٥م، ثم تولّى رئاسة اللجنة الملكية لشؤون القدس، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية الأردني، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارات الاسلامية في مؤسسة آل البيت.

توفي في ١٩٩٦/٤/١١م، ودفن في عمان.

أما مؤلفاته فهي: تاريخنا – بالاشتراك مع درويش المقدادي. المطالعة العربية مع محمد ناصر. التاريخ للصفوف الابتدائية مع علي الشريفي وصدقي حمدي. التاريخ الحديث مع ساطع الحصري وكامل مروّة. مهمة في قارة. القضية الفلسطينية. وثائق الحركة الوطنية (١٩٣٩-١٩١٨م). الحكم أمانة. بدوي الجبل وإخاء أربعين عاماً. يوميات أكرم زعيتر (١٩٣٥ -١٩٣٩م). بواكير النضال (من مذكرات أكرم زعيتر) ١٩٠٩ – ١٩٣٩م). من أجل أمتي (من مذكرات أكرم زعيتر (١٩٣٩ – ١٩٤٦م).

أكرم زعيتر: تجربته في الاعتقال

في الوقت الذي كان يجري الاستعداد لاحتفالات «النبي موسى» في القدس، حاولت سلطات الانتداب البريطاني ودوائره المعنية، الحدّ من اندفاعة الطرفين العربي الفلسطيني من ناحية، والطرف الصهيوني من ناحية أخرى، ومحاولة التخفيف من المقالات المثيرة للعنف، خاصة من الجانب الفلسطيني، وتأكيداً على ذلك، يقول أكرم زعيتر إنه بتاريخ ١٩٣٠/٤/٩م، جاءني اليوم إلى دائرة مرآة الشرق، أحد أفراد البوليس وقال إن المستر «كويكلي» مدير المباحث الجنائية يريد أن يراك فوراً. فبادرت إلى مقابلته، فرحب بي، ثم قال لي: «لقد استدعيتك لأطلب اليك مساعدتي على تهدئة الحال والدعوة إلى السكينة». فقلت له: عجيب هذا الاستدعاء، وما علاقتي أنا بالأمن العام، وبأية صفة تطلب مني هذا؟ فأجاب إنك تترأس تحرير مرآة الشرق. ومقالاتك عنيفة فأرجو أن تخفف من لهجتها، فوعدته بذلك وانصرفت. ولكني لم أكد أصل إلى الإدارة حتى رأيت شرطياً

آخر ينتظرني، فقال: إن المستر «ريكز» رئيس قسم التحري يرجو أن يراك، فاستصحبت البوليس إلى مكتب المذكور وإذا به يكرر النغمة، ولكني لم أسكت على مطالبته إياي بتخفيف مقالاتي في مرآة الشرق وقلت له: إذا كان يرجوني بصفة شخصية فكان في إمكانه أن يزورني في المرآة بدلاً من دعوتي إلى مقابلته بواسطة نفر بوليس. فابتسم ابتسامة (صفراوية) تنم عن الخبث».

لكن هذا الإنذار لم يجد له مكاناً عند أكرم زعيتر، ففي اليوم الثاني، الخميس ١٠ نيسان يقول، كان هذا اليوم «يوماً مشهوداً في القدس، إنه موعد وصول علم نابلس للاشتراك في الموسم الذي ندعوه «موسم النبي موسى»، وفيه تتوافد جماعات من نابلس والخليل وقرى القدس بأعلامها. كما تتوافد في هذا الموسم جماهير الزائرين من جميع أنحاء فلسطين، والمراد بهذا الموسم وفي هذا التاريخ بالذات إظهار قوة المسلمين وتجميع قواهم وإثارة حمياتهم، والشائع أن الذي سنّ هذه السنة هو صلاح الدين الأيوبي، وأغلب الظن أن الذي سنّها هو الظاهر بيبرس.

كان اليوم موعد وصول العلم النابلسي، وحينما كنت أهم بالذهاب إلى مكتب اللجنة التنفيذية جاءني بوليس من إدارة الأمن العام يحقق معي في قضية الدعوة إلى جيش الدفاع للطواف على القرى فلم يفز مني بطائل، وقلت له إن الأسماء سوف تعرف، والحركة علنية وليست سرية فتابعوا القضية بما ينشر في «مرآة الشرق».

ثم يممت دار اللجنة التنفيذية العربية في باب العمود والواقعة أمام سراي الحاكم، والمقرّر أن تمر المواكب أمامها لتحيتها. ورحت أرقب من على شرفة مكتب اللجنة التنفيذية مجيء المواكب. وقد هرع شباب القدس في مواكبهم وأعلامهم نحو محلة الشيخ جراح لاستقبال موكب العلم النابلسي. وفي العاشرة والنصف أقبل الموكب النابلسي يستقل أكثر من خمسين سيارة نحو محلة الشيخ جراح حيث استقبله الموكب القدسي، وعزفت موسيقى دار الأيتام الإسلامية نشيداً ترحب بالموكب النابلسي، ثم سار موكب ضخم فخم سيراً على الأقدام ينشد الأناشيد الحماسية وتتقدمه الأعلام ومن ورائها موسيقى دار الأيتام الإسلامية، فطلاب المدارس، وفرق كشافتها بأعلامها، ثم موكب نابلس يحيط بالعلم النابلسي، حتى وصلت المواكب أمام مكتب اللجنة التنفيذية فوقفت تحيي اللجنة التنفيذية وتهتف للوفد وللاستقلال والوحدة العربية. وكانت ألوف المتفرجين تتطلع إلى الموكب الحماسي بإعجاب. ووصل الموكب النابلسي بعلمه الأخضر المزركش بالآيات القرآنية، وكنت والأستاذ عمر الصالح على الشرفة، فتعالت الهتافات، وارتجل الأستاذ عمر الصالح البرغوثي كلمة حياً بها نابلس وشبابها، ونوّه بوطنيتهم باسم اللجنة التنفيذية، وكان يقود موكب العلم النابلسي السيد أسعد المصري (البلعوط) ويحمله السيد سبع العقاد، ويتقدمهم السيد حلمي الفتياني الذي ما أن هتف للحرية والاستقلال واللجنة والوفد والوحدة العربية حتى رددت الجماهير هتافاته،

وهنا قال السيد عمر الصالح للجمهور: الكلمة الآن لابن نابلس البار أكرم زعيتر، فانطلقت الأكف بالتصفيق، وفي هذه الحماسة البالغة ارتجلت كلمة عاطفية دعوت فيها إلى المطالبة بالاستقلال واستمرار النضال في سبيل تحقيقه، ونددت بالسماسرة والخونة، فهتف الجمهور بسقوطهم. وأكدت أن جميع قوى الدنيا لا تستطيع ان تسلبنا وطننا إذا نحن اعتصمنا بالاتحاد وعزمنا على التضحية، هتفت لفلسطين العربية المستقلة الحرة. ثم انطلق الموكب، نحو باب العامود فالمجلس الاسلامي الأعلى، حيث أُلقيت الخطب، وحياهم الشيخ سعد الدين الخطيب باسم رئيس المجلس المفتي الموجود في لندن، فهتفوا لسماحته، هذا وكان مدير الأمن العام المستر «مافرو كورداتو» ممتطياً حصاناً يرافق الموكب، وعدد كبير من رجال الأمن والمخابرات».

عاد أكرم زعيتر إلى نابلس، وهو يقول في نفسه «يجب علينا، نحن العرب، أن نفهم جيداً أن بليتنا من انجلترا نفسها، وأن الصهيونية قد وجدت عند الانجليز لتمكينهم من بلادنا. أما أن الصهيونية عتلة أو مخل للرفع مقدمة إلى انجلترا، فصحيح أيضاً، ولكن العتلة ستكون يوماً آلة لرفع الانجليز انفسهم، لأن اليهود أنكر الأمم للجميل».

أكرم زعيتر: من الاعتقال إلى المحاكمة فالسجن

في اليوم الثاني المؤرخ ١٩٣٠/٤/١١م، يقول أكرم زعيتر:

«في الساعة الثامنة صباحاً دق باب الدار، وإذا بضابط ومعه نفر من البوليس يقول أحدهما لشقيقي عادل: نحن مأموران بالقبض على أخيك «أكرم» وأخذه معنا إلى السجن. وهذه سيارة تنتظره خارج البوابة، فقال لهما: وأين ورقة إلقاء القبض عليه؟ فقالا: إن القانون الجديد قانون – جرائم الفساد – المعدل لا يحتم إبراز هذه الورقة. فاستمهلهما ريثما أتذاكر وإياه، ورأيتني أخرج مرحباً بهما ثم قلت لهما: اسمعا إنني الآن منهمك في كتابة رثاء للمرحوم محمد صلاح الذي تقام له حفلة تأبين عصر اليوم، ويمكن أن أرافقكما إلى السجن قبل الانتهاء من كتابة هذه الكلمة. فسألا: وكم من الوقت تحتاج؟ قلت نصف ساعة فقال أحدهما: تأمر. ودخلا إلى غرفة الضيوف، وطلبت لهما القهوة، ورحت أكتب كلمة التأبين. فاسرعت في كتابة صفحتين، واعتذرت في نهايتها عن العجلة بأنني ذاهب إلى السجن بعد دقائق. وأعتقد أن كلمتي هذه المستعجلة التي كتبتها ونفر البوليس بانتظاري لسوقي إلى السجن من أحفل ما كتبت بالعاطفة. وودعت بعد ذلك الأهل، ولقيت من أخي كل تشجيع، وبالسيارة ذهبت مع نفري البوليس إلى السجن خارج المدينة (وكان يدعى سجن الدبوية)، ففتح الباب وقيل: ادخل، فدخلته ولما قطعت رواقه إلى غرفة السجن وقعت

عيني على السيد عمر صلاح الذي قتل صديقي محمد صلاح خطأ، فلم تقوَ أعصابي على السلام عليه، ومع أن السجناء رحبوا بي فقد رأيتني أنسحب إلى رواق وأجلس على صندوق خشبي، وأفكر فيما أنا فيه. هذه أول مرة أذوق فيها السجن، إنني كنت منذ مدة أتوقع أن أسجن وأن أُنفى وأن أُضطهد معتقداً أن المؤمن الذي يعمل على إنقاذ وطنه لا بد له من التضحية. إنني اليوم في الحادية والعشرين من عمري، وأمامي لا يزال ميدان التضحية متسعاً. وما شغلني إلا أمران: أولهما أنني أجهل حقيقة التهمة الموجهة إليّ، وثانيهما ما ران على النساء من أهلي من ألم وقلق حين ودعتهن إلى السجن، ومكثت في السجن ثلاث ساعات ونصف ساعة قُدم لي في أثنائها الطعام فعزفت عنه. ثم جاء ضابط يقول: الآن تسافر إلى القدس، لأن الأمر بالقبض عليك قد جاءنا من القدس، وخرجت من السجن فوجدت لفيفاً من الشبان متجمهرين خارج السجن، فما أطللت عليهم في طريقي إلى السيارة حتى صفقوا لي تصفيق التشجيع. وقد تبينت منهم: راشد أبو غزالة، جمال القاسم، الحاج فوزي الخياط، الشيخ عبد الحليم عرموش، أحمد أمين المصري، وسمعت جمال القاسم يقول بصوت جهوري: هذه هي الخطوة الأولى يا أكرم، وقد أثّرت كلمته في نفسي، كما كان لحماستهم في وداعي تأثيرها الكبير. وركب في السيارة معي جاويش بوليس من آل المسعود من برقة، كان طالباً في النجاح حين كنت أنا طالباً فيها. فطمأن خاطري، وأعرب لي عن أسفه أن يكون هو البوليس المكلّف بحراستي، وقال إنه مستعد لأداء أية خدمة أكلفه بها. فشكرت له عواطفه، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى القدس، وأمر السائق بالانطلاق بنا إلى سجن القلعة، فاستقبلني ضابط السجن وضابط انجليزي لا أعرفه، وأُجلست في أحد المكاتب ريثما تتقرر غرفة سجني، وفي هذه الأثناء أقبل الأستاذان مغنم مغنم وعمر الصالح البرغوثي وهما محاميان من أصدقائي وسكرتيرا اللجنة التنفيذية. ثم سمعت بعد قليل صراخاً وأخذاً ورداً، فاستفهمت من ضابط من آل طهبوب عن الحادث فقال لي: لقد اجتمعنا بالمستر «كويكلي» وطلبا مقابلتك والحصول على وكالة منك، فمنعهما بغلظة وردهما بعنف، فأجابه الأستاذ عمر الصالح البرغوثي بعنف فتبادلا الشتائم وأوشكا أن يتضاربا لولا أن تدخل الأستاذ مغنم، ثم خرجا لا يلويان على شيء.

وبعد قليل أخذني ضابط السجن إلى إحدى غرف السجن، وكانت مظلمة، وفيها عدد من المسجونين الذين رحبوا بي كثيراً وصفقوا لمقدمي، فزالت كربة رانت على نفسي منذ سمعت نبأ الشجار بين الأستاذ عمر الصالح وكويكلي، ورحت أسأل كل واحد عن سبب سجنه، ففيهم من سجنوا لأسباب ليست سياسية، ومنهم من سجنوا لأنهم أنشدوا في الموسم أو قادوا جمهوراً في أثنائه. ودخل السجان يقول لي: يسمح لك أن تطلب فرشة ولحافاً ومخدة، فكتبت ورقة إلى السيد عزيز شحادة أرجوه فيها تزويدي بالفرشة واللحاف والمخدة، ثم قيل لي: لا يمكنك أن تخرج لقضاء حاجة من

العصر حتى صباح اليوم التالي، ودونك هذا السطل الكبير، تستطيعون كلكم في الليل أن تستعملوه لقضاء حاجاتكم، وأما في النهار وفي أوقات محدودة فيمكنك حين الحاجة أن تدق الباب، فيفتح السجان الباب ويرافقك إلى بيت الخلاء، وفي الساعة العاشرة من صباح كل يوم يؤذن لكم أن تخرجوا إلى ساحة السجن، وأن تدوروا في نظام حول الساحة عدة دورات رياضة لأجسامكم.

وجيء إليّ بالفرشة، وتبديداً لوحشتي راح السجناء ينشدون الأناشيد الوطنية ولا سيما نشيد نجيب الريس:

يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل إلاّ فجر مجدٍ يتسامى

وكان من السجناء ذوي أصوات حسنة كالشيخ شكيب القطب من نابلس، والسيد عبد الفتاح سلام (من الرملة) ومحمد الخرّاز (من نابلس)، كما عرفت من السياسيين في السجن السيد وصفي أبو الهدى. وأشهد أنهم جميعاً كانوا على غاية من الرقة واللطف وحريصين الحرص كله على إرضائي وتيسير راحتي، على أنني لم أنم هذه الليلة حتى مطلع الفجر، وكنت أسمع في الليل مرات أصوات ما ينزل في السطل وأشم الرائحة الكريهة».

مزحة من سجّان وطني!!

يذكر أكرم زعيتر يومه الأول في السجن يضيف إليها مزحة من سجّان في البوليس فيقول «خرجنا من غرفة السجن إلى ساحته، فتنفسنا الهواء، ثم أُمرنا بأن نمشي بخطوات رياضية حول الساحة نحو نصف ساعة، وتُرك لمن يشاء أن يقضي حاجة في المرحاض القذر على أن يرافقه إلى الباب سجّان.

وعدنا إلى غرفتنا، وعند الظهر جاءني السجّان يقول: إن جماعة من أصدقائك وأهلك في نابلس قد جاءوا إلى السجن لزيارتك فمنعوا، وقد أعطوني أسماءهم، إنهم يحيونك ويباركون لك بالسجن (قلت للسجّان أتسخر مني بهذه العبارة؟ فقال: لا والله، هذا شرف لك، وأنا وطني، ولكن لعن الله الظروف التي جعلتني سجاناً) وهم السادة: راشد أبو غزالة وماجد القطب وأحمد أمين المصري وشقيقي حسن زعيتر.

وقال السجّان: وجاء آخرون من القدس ليروك وعادوا خائبين.

قضيت يوم أمس على ما وصفت، ومما لفت النظر ما شاهدته في أثناء الاستراحة في الشمس من شدّة شكيمة الشيوعيين وقوة بأسهم، ومعظمهم من اليهود، فقد كانوا يشاكسون البوليس ويقاتلونه.

في الساعة العاشرة صباحاً دخل ضابط السجن غرفتنا، وأبلغني أنه ستجري محاكمتي اليوم في سراي الحكومة، ودعاني إلى الخروج من الغرفة إلى مكتبه، وهناك أتى بالقيود الحديدية فاحتججت على ذلك وقلت: أو تظنونني أهرب؟

قالوا: تلك هي الأوامر، ولم أشأ الأخذ والرد، فوضعت القيود الحديدية في معصمي، وانطلقنا... كان يمشي أمامي ضابط بوليس، وعن يميني نفر بوليس، وعن شمالي نفر آخر... وإلى سراي الحاكم المستر «كيث روتش»، ويطلقون عليه في القدس لقب باشا، فلا ينادونه إلا بكيث روتش باشا، ويقولون له إنه باشا المدينة، وهو يأنس بهذا اللقب ويغتبط، وقد يستاء إذا هم لم يطلقوه عليه». (٥)

نودّ في هذه الدراسة أن نذكر تفاصيل الجلسة الأولى من محاكمة أكرم زعيتر لتكون دليلاً على محاكمة الإعلاميين والكتّاب والشعراء في محاكم الانتداب البريطاني، المنحاز أساساً ضد وجهة نظر المحكومين، وبلسان الصحافي القدير أكرم زعيتر الذي يصف تفاصيل ما يراه وما يجرى حوله فيقول:

«أُدخلت إلى مكتب الحاكم الانجليزي «كيث روتش»، وُفّكت القيود من يدي، ثم دخل عدد جم من الناس، فيهم وفد من شباب نابلس، وآخر من شبان الخليل، وبعض كرام المقدسيين وعدد من الصحافيين ومراسلي الجرائد. ثم دخل المستر «ركز» أو بالأحرى رجس وهو مأمور المخابرات، جاء ليمثل دور النيابة، ثم دخل الباشا «كيث روتش» حاكم القدس ليمثل دور حاكم الصلح، كما حضر عدد من المحامين المتطوعين الذين اختاروا من بينهم الأستاذ «مغنم الياس» مغنم ليتولى الدفاع عني.

وافتتحت المحاكمة ووقف رجس ليلقي كلمة النيابة، فحمل عليّ حملة شعواء متهماً إياي بالتحريض على الثورة والعمل على خلق الاضطرابات. وأشار إلى «مقالات مرآة الشرق» وخصّ بالذكر الدعوة إلى تأليف جيش الدفاع بقصد تهييج الناس وحملهم على الثورة. ثم قال: إنني أتهم السيد أكرم زعيتر لمخالفته للمادة ٣٢ من قانون البوليس، والفقرة الأخيرة من المادة ٢ من منشور حاكم القدس الأخير، ونصها: (من حرّض الغير على التجمع سواء شفاهياً أو خطياً أو بأي وسيلة كانت أو من غنى أغنية أو تلفظ بكلام أو أبدى إشارات مما قد يؤدي في رأي البوليس إلى الإخلال بالأمن، جاز إلقاء القبض عليه دون مذكرة قبض ومجازاته بغرامة نقدية وبالحبس). ثم نؤدي على الشاهد البوليس السري شفيق الغصين ليشهد ضدي، فدهشت لأن المذكور ينتمي إلى عائلة وطنية لي فيها أصدقاء (ولكنني ردّدت قول الله: ولا تزر وازرة وزر أخرى) أمثال محمد علي الغصين ويعقوب الغصين. وزاد في ذهولي أن المذكور جاءني ذات يوم يطلب الانضمام إلى جيش الدفاع، وما كنت أدري أنه قد أُوعز له بذلك ليكون جاسوساً علينا. وبعد أن أقسم اليمين، راح يشهد أنه سمع القصائد الوطنية أمام اللجنة التنفيذية، وأنه سمعني أخطب في الجماهير، وأنني قلت: أيها الشعب، يقولون إن

بلادنا ستصير يهودية، كلا كلا إننا لن نسمح لهم بذلك ولو بقي منا عربي واحد، فلسطين لنا وستبقى عربية إلى الأبد، وليسقط باعة الأراضي، ليسقط السماسرة الخ. ولقد ناقشه الأستاذ مغنم مناقشة دقيقة أسفرت عن قوله: إنه ربما كان قد فاته سماع الكلمات، وذلك لكثرة التصفيق الحاد، وبعد أن انتهى من شهادته التي توحي بأنني أثرت الجماهير، حدجته بنظرة ازدراء، ثم أعلن الحاكم تأجيل الجلسة إلى يوم الاثنين القادم، وودعت الإخوان وشكرت المحامين، وذهبت مخفوراً إلى سجن القلعة، ولكن من دون تصفيد يدي وقد استقبلني زملائي بالسجن بلهفة وترحيب، وأنشد السيد عبد الفتاح سلاّم (الرملة) بصوته الشجى أنشودة (نحن جند الله) شبان البلاد وكنا نردد لازمتها بحماسة، وقضينا اليوم في أحاديث وطنية».

وفي اليوم التالي، جرت الجلسة الثانية من جلسات المحكمة، فيقول أكرم زعيتر فيها ما يلي:

«كان اليوم موعد محاكمتي أمام المستر «كيث روتش»، وفي الساعة العاشرة ساقني البوليس مصفداً إلى سراي الحاكم، وقد وجدت المحامي الاستاذ مغنم في انتظاري وكان واقفاً مع شقيقي عادل يتذاكران في الدفاع وفي الشهادات فحييتهما، وتلقاني جمهور الأصدقاء والصحافيين بالترحيب، ولم يحضر المستر كيث روتش لاضطراره إلى حضور جنازة المرحوم عارف باشا الدجاني فتأجلت الدعوى إلى الساعة الثانية فظللنا ننتظر حتى حضر الحاكم.

ونودي على مدير الأمن العام المستر «مافرو كورداتو» (إنه أحد أحفاد مافرو كورداتو البطل اليوناني) وراح يشهد بأنني أثرت الجمهور، وأن تصرفي كان من شأنه أن يخل بالأمن العام. وأنه هو نفسه استمع إلى خطابي، وأدرك مدى تأثيره في تحريك الجماهير، مما ينطبق عليه قانون منع جرائم الفساد، ولمّا سأله المحامي عما إذا كان يعرف العربية؟ وعمّا إذا كان قد فهم خطابي؟ جاءت شهادته أنه لا يعرف العربية، ولكن رأى بعد خطابي أن شكيمة الجماهير اشتدت، وأنه حين أوعز اليها بأن تسلك سبيلاً معيناً في طريقها إلى المجلس الإسلامي، رفضت واستعصى عليه إقناعها بسلوك تلك الطريق، فسارت في طريق أخرى، كان من شأنه أن يعرض الأمن للاضطراب، وأنه لولا خطابي لأمكنه أن يسلس قيادة الجماهير. ثم نودي على بوليس عربي سري، اسمه عبد الله الدنف فشهد بمثل ما شهد به زميله البوليس السري شفيق الغصين، وقد بدا في المحكمة مرتبكاً مضطربا حتى لكأنه كان محمولاً على أداء هذه الشهادة أداءً. ومن أطرف ما حدث أن سأله المحامي، وهو يصف تحمس الجمهور بخطابي: وهل صفقت أنت مع المصفقين؟ فأجابه كلا، فقال له: ألست عربياً؟ ألا تتحمس لوطنك؟ فأجاب بأنه لا يريد أن يصفق؟ ثم طلب الأستاذ مغنم من المحكمة أن تسمع شهادتي، فقبلت بذلك. فاعترفت بكل كلمة قلتها في خطابي، وقلت: إنني أديت واجباً وطنياً، وإن تحية موكب أبناء بلدي نابلس من الشرفة أمر لم تكن مندوحة عنه، وأنكرت أنني دعوت إلى الثورة

وحرضت على الاضراب. إن إسقاط الخونة والسماسرة والهتاف للحرية والوحدة والاستقلال هو ما سأظل أدعو إليه، ثم قلت – وهذا هو الواقع – إنني أنهيت خطابي بقولي: سيروا بسلام آمنين. ولما تُرجمت هذه الكلمة حرفياً للحاكم ضحك، وقال لي: إنك في انهائك خطابك بهذه العبارة شأنك شأن ذلك الرجل الذي عض آخر من أذنه وقطعها، ثم عرج على خده فقبله! فضحكت وضحك الحضور! وبناء على سؤال المحامي لي: قلت إنني أعتقد أن المصلحة الوطنية تقضي بأن لا يكون اضطراب ما دام وفدنا في لندن يفاوض لاستخلاص حقوقنا، وما دمنا نترقب تنفيذ تواصي لجنة التحقيق. وقد دعي شقيقي الأكبر الأستاذ عادل للشهادة فشهد لمصلحتي وأفاد أنني أدرس الحقوق، وأنني استعد للامتحان، وأنه يعني مستقبلي، وأن الحاكم من شأنه أن يحرمني مدرسة الحقوق. ثم دافع الأستاذ مغنم عني دفاعاً مجيداً، وانتهى إلى القول: إن ما حسبه البوليس دعوة إلى الثورة وتحريضاً على الاضطراب لا نحسبه نحن كذلك، ونحن أفهم لكل ما قاله أكرم من هؤلاء الشهود! وبعد أن أنهى مرافعته المجيدة قال الحاكم: إنه يُقدر المحامي الأستاذ مغنم ولكنه قانع أن السيد أكرم قد خالف منطوق منشور حاكم القدس، وأنه ألقى خطاباً مهيجاً، ولذلك فإنه يُعد مذنباً، وإنه سيعطي حكمه يوم الخميس في ٢٤ شباط أي بعد عشرة أيام!

وهنا طالب المحامي بإخراجي بالكفالة حتى موعد الحكم، فعارض البوليس ذلك قائلاً: إن وجودي طليقاً هذه المدة يعرض الأمن للخطر، فُرفض طلب المحامي، إذن لا بد لي على الأقل من عشرة ايام أخرى في السجن! وعدت إلى السجن بحراسة البوليس، ولكن غير مقيد، واستقبلني زملائي في السجن بالحفاوة وبالأناشيد الوطنية».

بعض يوميات السجين أكرم زعيتر

وفي انتظار محاكمته، لبث أكرم زعيتر عدة أيام في السجن، ومن خلالها سجّل يومياته فيه، فيقول في يوم ١٩٣٠/٤/١٥م.

«استفقت عند الفجر على ضجيج وصراخ عنيف، فنهضت من فرشتي، ووقفت على دكّة النافذة بحيث أرى من خلالها لقطات مما يجري في ساحة السجن. وقد رأيت شرطياً يقود عربياً يترنح من السكر ويضربه، ثم رماه في حوض ماء لعله يستفيق من سكرته، فقاوم الرجل بعنف، يطفو على الماء وينهض، ويعاود الشرطي تغطيسه، وفجأة سكت الرجل، فانتشله الشرطي ومدده على الأرض وهو يقول: مات، مات فأيقظت زملائي في غرفتي وراحوا يصيحون: موّتوه موّتوه، واستدعى الشرطي زملاءه وهو يرتجف، فنقلوا الميت إلى غرفة أخرى، وعلمت أنهم استدعوا أهله زاعمين

أنه مات موتاً طبيعياً! وضُيق علينا ذلك اليوم، ولم يُسمح لنا بالخروج إلى الساحة؛ خشية أن نشهد بما رأينا، ولكننا ظللنا النهار كله مضطربين واجمين!».

وفي يوم ٤/١٧ يسجّل عن حارس السجن، فيقول:

«حارس السجن ابن حلال، عاطفته جيدة، ولكنه جبان، استطعت باستثارة حميته أن أحمله على أن يهرّب إليّ جريدة «مرآة الشرق»، هللنا لها ورحنا نقرؤها، وقد أحسست باعتزاز حين قرأت صدى حبسي، فشبان الخليل هائجون يبرقون إلى الحكومة ألا تتمادى في العسف والجور، ومراسل المرآة في غزة السيد حلمي أبو شعبان يقول في رسالته: بتنا على أحر من الجمر لمعرفة نتيجة محاكمة أكرم. والله لا يضير أكرم أن يسجن أو أن ينفى في سبيل وطنه؛ لأنه من الشباب الذين لا يضيرهم السجن، ولا تهن عزائمهم من قيوده وأغلاله. وهناك برقية من نابلس هذا نصها: إلقاء القبض على الأستاذ أكرم زعيتر أثار الخواطر، نحتج على توقيفه، طالبين إخلاء سبيله، وقد وقعها السادة: راشد أبو غزالة، وديع النابلسي، ماجد القطب، عز الدين كمال، عبد الحليم عرموش، نديم عطعوط، الطاف الخياط، وصفي كمال، حكمة القطب».

وفيها وصف لحفلة تأبين صديقي المرحوم «محمد أمين صلاح» وفيها أن الشاعر ابراهيم طوقان ألقى كلمتي، بالنيابة عني، وهي التي أعددتها والشرطيان ينتظرانني للقبض عليّ، وفيها وصف لتأثير كلمتي وقد أبّن الفقيد السادة: جمال القاسم، وراضي عبد الهادي، وصلاح الدين العباسي، وفياض تفاحة وإن أخي حسن زعيتر قد أبّن الفقيد بكلمة ألقاها على القبر رحم الله هذا الصديق.

وتحمس السجان لكثرة ما أثنينا عليه بسبب إحضاره «مرآة الشرق» فأحضر في المساء وسراً «جريدة الجامعة العربية» التي يصدرها الصديق الأستاذ منيف الحسيني، فإذا بافتتاحيته تتعلق بسجني، وقد ختمها بقوله» ... فإذا كانت حكومة فلسطين تعتبر المجاهرة بحقوق البلاد والحض عليها والمطالبة بالحرية المهضومة والاستقلال المسلوب تهييجاً يعاقب عليه القانون، فكل العرب في فلسطين إذن مهيجون يجب أن يزجوا في غياهب السجون، ويطبق عليهم قانون منع الإجرام... لن يبلغ الظلم والأذى من نفوسنا ما يريد الاستعمار أن يبلغاه، فإن المعادن الكريمة لا تزيد النار جوهرها إلا صفاءً ورونقاً».

وما لبث السجّان أن جاءني بجريدة الكرمل بعث بها إليّ أحد الأصدقاء وقد نشرت مقالاً تحت عنوان «أكرم زعيتر» وفيه تقول: ساء جداً خبر القبض على الرصيف الوطني الشاب أكرم أفندي زعيتر رئيس تحرير مرآة الشرق، وخصوصاً لأن صحف القدس قالت إن خطابه لم يكن فيه ما يستوجب القبض عليه»... ثم قالت «وقد رفضت الحكومة قبول إخراجه بالكفالة فبات ليلته الأولى في التوقيف... وقد ذكّرنا رفض قبول الكفالة بحادث تهريب السلاح بحيفا وكيف خرج بالكفالة ذو

العلاقة في ساعات قليلة وبعد الوقت المعين».

ويكتب في يومياته بتاريخ ١٩٣٠/٤/١٩م، حول زيارة الأصدقاء، والسماح له بمقابلتهم فيقول:

«هذا اليوم كان آنس أيام سجني، ففيه زارني في السجن نخبة من الكرام، وسمح لي بمقابلتهم في غرفة ضابط السجن، وفي مقدمتهم الأستاذ إسعاف النشاشيبي الذي واساني بكلمات بليغة، ولكنه أعرب عن تخوفه على دراسة الحقوق. وزارني الصديق الأستاذ منيف الحسيني صاحب جريدة «الجامعة العربية» والأخ حمدي النابلسي الذي جاء من يافا خصوصاً لزيارتي ومعه الأستاذ الشيخ عيسى ابو الجبين، كما زارني السادة نعيم طوقان وعزيز شحادة وعبد الغني كاملة وقد حملوا اليّ تحية إخواني طلاب مدرسة الحقوق، وزارني باسم شبان نابلس السيدان أسعد المصري وخالد حناوي.

وفي هذا اليوم دس السجّان في جيبي بطاقة وقال لي: اقرأها في الغرفة، فإذا بها من صديقي الكاتب الفحل الأستاذ نجيب الريس صاحب جريدة «القبس الدمشقية» الشهيرة، وهذا نصها: أخي أكرم، اسمح لي أن أبعث إليك من على ضفاف بردى بتحية إعجابي واحترامي وأنت في سجنك تنعم فيه بشرف الضمير وله الواجب، إن الذين يقفون أنفسهم على تحرير بلادهم من الاستعمار أقل ما يلقونه هو السجن، بارك الله فيك وجعلك قدوة لشباب فلسطين المحتاجين إلى جرأتك وإخلاصك». وزارني السيد عزيز شحادة، وسلمني رسالة من الأخ واصف كمال في لندن عن نشاطات الوفد الفلسطيني في لندن، فأرجعتها اليه لتنشر في «مرآة الشرق». وأطلعني على برقية من عكا وردت على الصحف المقدسيه، وهذا نصها:

توقيف الأستاذ أكرم زعيتر مفخرة الشباب العربي أساء للأمة العربية، نطلب الإفراج عنه، وعنهم:

احمد الشقيري، الحاج بدر العاصي، رشيد فضلة، محمد أديب جرار، أحمد البرادعي، حسني العاصي، محمود غندور، صابر شنار».

أكرم زعيتر من السجن إلى الإقامة الإجبارية

قادوني يوم ١٩٣٠/٤/٢٤م، لأسمع قرار الحكم النهائي من الحاكم في دائرة البوليس «كيث روتش» إلاّ أن الحكم كان أكثر إيلاماً من بقائه في السجن، ويسجل أكرم زعيتر تلك اللحظات بالآتي:

«في الساعة العاشرة كبّل البوليس يدي وسار معي وزميل له إلى مكتب الحاكم المستر «كيث روتش» وقد وجدت رواق السراي غاصاً بالإخوان والأصدقاء من نابلس وكثير من البلدان الفلسطينية الأخرى، وقد كان في مقدمة من رأيتهم إخوتي عادل ونبيه وحسن زعيتر والسادة: عبد اللطيف صلاح وحلمي

الفتياني وراشد أبو غزالة وعادل التميمي وماجد القطب وأحمد المصري وغيرهم. وقد فك القيد من يدي فور وصولي إلى المكتب، وفي العاشرة والنصف أقبل الحاكم المستر كيث روتش ليعلن قراره بالحكم عليّ بالسجن اثني عشر يوماً، والإبعاد إلى نابلس سنة كاملة، لا أبرحها واثبت فيها وجودي كل يوم، ولا أخرج من بيتي في أثنائها بعد الغروب، وتقديم كفالة بخمسة جنيهات، وحيث أن مدة الحكم تُعتبر من يوم توقيفي ففي إمكاني السفر إلى نابلس فوراً بعد أن يقدّم أحدهم الكفالة، وقد قدّمها خالي الحاج نمر حماد فوراً. وقد ذهبت والوفد النابلسي أولاً إلى جريدة «مرآة الشرق» حيث كتبت كلمة وداع وشكر، ودّعت فيها قراء الجريدة بكلمة مؤثرة، كما شكرت للأستاذ مغنم دفاعه الباهر، وقد كتب الأستاذ بولس شحادة صاحب «مرآة الشرق» افتتاحية كريمة تناولت الحكم عليّ بالنقد، وأعلنت ألا تغيير في سياسة الجريدة، وبالغت في شكري والثناء والتنويه بالجهد الذي بذلته في تحريرها، ثم استقليت والوفد السيارات إلى نابلس، وقد وجدنا لفيفاً من الإخوان ينتظرون خارج المدينة، إنني غادرت القدس متألماً لأنني حرمت المنبر الحر الذي كنت أخاطب به أمتي، وآلمني أكثر من هذا أنني لن أستطيع متابعة فكرة جيش الدفاع ومؤتمر الشباب. فأنا محظور عليّ الخروج من بلدي سنة كاملة، أما منعي من التدخل في الشؤون العامة والعمل في السياسة الوطنية فهذا ما لم ألزم نفسي به وما لن ألزم نفسي به. هذا ولست أنسى الكثيرين من الإخوان الشبان الذين كانوا يمدون «مرآة الشرق» بمقالاتهم كعمر الصالح البرغوثي، وعارف البديري، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وحلمي أبو شعبان، وحمدي الحسيني، ورشاد الخطيب، ونمر المصري، وهاشم السبع، وراضي عبد الهادي، وتيسير الدوجي، وأكرم الخالدي، وغيرهم».

هكذا، أصبح أكرم زعيتر حراً، ولكنه سجين مدينة نابلس، لكن ذلك قد مكنّه من رؤية الأصدقاء، والتواصل تلفونياً مع غيرهم، وكتابة المقالات وممارسة مهامه الصحافية، والقيام بالنشاطات النضالية وغيرها، خلال إقامته في نابلس.

محاكمة أخرى... من المضحك ما يبكي

وفي محاكمة أخرى، جرّت له في القدس نتيجة تسلط المدعو «محمد الداوود» على أكرم زعيتر ومقالاته في جريدة «مرآة الشرق» وذكر إسمه، وبسخرية سجّل زعيتر هذه المحاكمة كدليل على سير المحاكمات في الدوائر التابعة للانتداب البريطاني، فيقول في ٢٨ حزيران ١٩٣٠م:

«اليوم كان موعد محاكمتي في القدس أمام حاكم الصلح السيد «موسى نمّر» أو أبو النمّري، في الدعوى التي أقيمت عليّ بتهمة القدح والذم وامتلأت قاعة المحكمة بأصدقائي الذين جاءوا

ليسلموا عليّ. وجاء الأستاذ عمر الصالح البرغوثي ليدافع عني. وقبل البدء في المحاكمة، قال الأستاذ عمر الصالح للسيد موسى نمّر إنني أريد أن أطلع على ملف القضية، لأنه لم يتسن لي دراستها قبلاً، فأمر بتسليمه (الدوسيه) ... الملف، فأخذه إلى النافذة، وطالع الأوراق، وقد أعطي مهلة نصف ساعة، قضيتها في محادثة إخواني برقابة البوليس، وبعد انتهاء الوقت، افتتحت الجلسة، وقد حضر محمد الداوود بنفسه فقال: ان بينتي هي ما نشرته جريدة مرآة الشرق في عدد كذا في تاريخ كذا، وكان المتهم محررها المسؤول، ومن مطالعة الجريدة تبين لكم ما فيها من قدح وذم!

وهنا توقف الأستاذ عمر الصالح وقال: لا بيّنة هناك، لقد طالعت الملف فلم أجد عدد مرآة الشرق المذكور. وإنما وجدت جريدة الجامعة العربية! وراجع الحاكم الملف فوجد فيه جريدة الجامعة العربية ولم يجد جريدة مرآة الشرق، فذهل المدعي كثيراً، وأقسم أنه إنما أحضر مرآة الشرق وأنه لم يحضر الجامعة العربية، وهناك قال له الحاكم: أنت ترى أن البينة الوحيدة ضد المتهم غير مبرزة، فأجابه: ومن أين لي أن أحضر العدد المفقود؟ فسأله الحاكم: وعلى كل فهل ترغب بالاستمرار في الدعوى، فأجابه بعد أن بلع ريقه واصفر وجهه وتفرس في وجوه الحضور المتجهمة له ثم قال: إنني أُسقط دعواي! وهنا أعلن الحاكم براءتي، ومن فرحتي تأبطت ذراع الأخ عمر الصالح وهمس في أذني: أرأيت أن الدفاع عنك لم يكلفني أي جهد! وضحك ضحكة فهمت منها أنه حين أخذ الملف سحب منه عدد مرآة الشرق ووضعه في جيبه ووضع بدلاً منه جريدة الجامعة العربية! وودعت الإخوان وعدت إلى نابلس مخفوراً.

وقد نشرت جريدة «الشورى» خبر القضية تحت عنوان «سلبطة»، قالت فيه: «أن المدعو محمد الداوود تسلبط على الأستاذ أكرم زعيتر، وقاضاه من أجل شيء نشر في مرآة الشرق، ولكن القاضي العادل موسى بك النمّري حاكم صلح (القدس) أصدر حكماً ببراءة الأستاذ.

وكذلك كان شأن جريدة «صوت الشعب» التلحمية التي يصدرها الأستاذ عيسى بندك في الانتصار لي وانتقاد تصرف الحكومة».

جمعية العناية بالمساجين والسجون

ويتحدث أكرم زعيتر الذي دخل السجن، وعرف كم يعاني المساجين من ظلم شخصي، وكم يعانون نتيجة التفكير بعائلاتهم، بالإضافة إلى كون العائلات تعاني وهي تلاحق أوضاع المساجين ومصائرهم، بحيث أخذت هذه القضية في مقدمة اهتمامات الجمهور الفلسطيني، يقول إزاء ذلك: «كنت أتحدث والأخ واصف كمال عن ذكريات السجن، وتطرّق الحديث إلى سوء معاملة السلطات

للمساجين السياسيين من العرب ورعايتها للمساجين الأجانب، وتدليلهم، وآلمنا ما يلاقيه سجناؤنا الوطنيون الذين دخلوا السجون في سبيل الوطن، من جحود المواطنين. وقد هالنا أن بعض عائلات السجناء تستجدي القوت. إن هذا يقتل روح التضحية، فلا بد من تدارك الأمر. وبعد مذاكرة وتقليب الأمر من جميع وجوهه، اتفقنا على أن نؤلف جمعية ندعوها «جمعية العناية بالمساجين» وقبل أن نفاتح أحداً من رفاقنا عهد إليّ الأخ واصف بأن أضع نظام الجمعية، وأن أُحدد فيه غاياتها وشروط العضوية فيها».

وبالفعل، وفي نفس الليلة، وضع أكرم زعيتر النظام الداخلي لجمعية العناية بالمساجين، عرضها على بعض الإخوة من رفاقه، وجرى تأييدها والعمل بموجبها. اعتباراً من ١٩٣٢/١/٣١م، ضمن المحددات والشروط التي يقول فيها: وضعت نظام «جمعية العناية بالمساجين»، وغايتها مفهومة من اسمها، وهي قاصرة على الاهتمام بأمر المساجين. وجعلت شرط الانتماء إليها أن يكون العضو ممن دخل السجن وذاق قسوة السلطات الإنكليزية فيه. وقد عرضنا على بعض الإخوان ممن كانوا قد دخلوا السجن في سبيل الوطن الانتماء إلى الجمعية، فرحبوا بذلك، فمن: واصف ومني ومن عادل كنعان وأسعد المصري والدكتور صدقي ملحس ومحمد علي دروزة وجمال القاسم وفوزي الخياط وإبراهيم الخماش، تألفت اللجنة التأسيسية. وذهبت بنفسي إلى سرايا الحكومة بنابلس، وقدمت إشعاراً بتأليف الجمعية، وقد جعلت أهدافها قاصرة على الناحية الإنسانية، وتم الاتفاق بيننا على أن تنصرف جهودنا إلى إسعاف عائلات السجناء السياسيين، وتفقد أحوال هؤلاء السجناء. «كما أن العضو المنتمي إلى جمعيتنا يجب أن يكون دخوله السجن لتهمة سياسية وطنية».

وبعد أن أخذت وصلاً بالإشعار، اعتبرنا أن الجمعية قائمة حسب قانون الجمعيّات العثماني، وعقدنا في المساء اجتماعاً قررنا فيه:

أولاً: البدء بتسجيل أسماء مشتركين في الجمعية، يدفع المشترك منهم مبلغاً لا يقل عن القرشين أسبوعياً.

ثانياً: توجيه رسالة إلى من نتوسم فيهم الخير في مدن فلسطين؛ لمؤازرتنا في جمعيتنا، وتقديم ما تجود به نفوسهم من تبرعات.

ثالثاً: نشر بيان في الصحف حول تأسيس الجمعية وأغراضها، وقد انتخبت عضواً وانتخب واصف كمال أميناً للسر.

وإني مثبت هنا قانون الجمعية:

تألفت في نابلس جمعية باسم جمعية «العناية بالمساجين والسجون».

غاية الجمعية.

السعي لتحسين حالة السجن من النواحي الصحية والتهذيبية والرياضية، وجعل السجن موضع إصلاح السجين لا إرهاقه.

السعي للاتصال بالمساجين، وسماع شكاوى المظلومين منهم، والعمل على إزالة أسبابه بالطرق المشروعة.

السعي لمساواة السجين الوطني بالأجنبي في المعاملة.

المطالبة بتمييز السجناء الذين يعتقلون لأسباب سياسية.

مساعدة عائلات السجناء أدبياً ومادياً.

تتألف الجمعية من مركز رئيس، مقرّه نابلس، وفروع تؤلف في المدن الفلسطينية الأخرى، تتصل بالمركز، ويسري هذا الدستور عليها.

أعضاء الجمعية ثلاثة أقسام، مؤسسون ومؤازرون وأعضاء شرف:

المؤسسون في المركز هم ...(وقد ذُكرتْ أسماؤهم)

العضو المؤازر هو كل من يتعهد بدفع مرتب شهري لا يقل عن عشرين مِلاّ.

يحق للمؤسسين أن يضيفوا إلى الهيئة التأسيسية من يشاءون بموافقة ثلثي مجموع عددهم.

ينتخب المؤسسون من بينهم لجنة عاملة، تتألف من أمين السر والصندوق وعضو آخر، تُعين وظائفهم مع النظام المالي للجمعية في نظام خاص.

تتالف مالية الجمعية من اشتراكات الأعضاء المؤسسين والمؤازين، ومن المساعدات والتبرعات.

للجمعية المركزية والفروع، مستشار طبي، وآخر قانوني، وآخر ديني، ترجع إليهم الجمعية للاسترشاد بآرائهم، كل في ما يتعلق باختصاصه.

تعقد الهيئة المركزية اجتماعاً سنوياً عاماً من أعضائها والمندوبين عن فروعها.

وقد نشرت الجمعية دستورها، وأذاعت بياناً بتوقيع أمين سرها السيد واصف كمال، انتهى بقولنا: ولا نرى مظهراً للاعتراف بالجميل أجلّ وأبلغ من إغاثة الملهوفين وسدّ رمق الجائعين، والدفاع عن المظلومين ممن يكابدون ما يكابدون في سبيل الله والوطن، والجمعية تعرض دستورها على الأمة، وتستنهض الرأي العام لمؤازرتها، وتعد بنشر بيانات دقيقة مسهبة متوالية عن وارداتها ونفقاتها. والله بالتوفيق وكيل.

ووجد أكرم زعيتر وبعض إخوانه في جمعية العناية بالمساجين، أن العيد قد أقبل ولا بد أن يأخذوا

بعض المبادرات، يقول أكرم زعيتر في مذكراته، بتاريخ ٣٢/٢/٦: «العيد بعد غدٍ أو الذي يليه. إخواننا أحرار صفد والخليل في سجونهم، ولا من يسأل عنهم، أو يهتم بهم. طفنا واصف وأنا وأسعد بلعوط المصري وعادل كنعان على المتاجر، نجمع إعانات لمناسبة العيد... وكانت حصيلة الجميع هذا اليوم عشرين ديناراً.

تلقينا من السيد حربي الأيوبي بيافا رسالة، وفيها مبلغ من المال. زارني السيد عفيف العطعوط مفتش المعارف ليلاً، وقال لي: هذا اشتراكي، أدفعه وأنا شاعر أن أحق جمعية يتوجب الدفع لها هي جمعية العناية بالمساجين. ودُقّ الباب كذلك ليلاً وإذا بالسيد مهيب الخياط الموظف في الحكومة يقول: هذا نصيب متواضع في إغاثة عائلات المساجين الذين دخلوا السجون في سبيل الوطن».

وبدأت الجمعية تشكل بعض الفروع لها، يقول أكرم زعيتر في مذكراته ١٩٣٢/٢/١٢م: «غادرت حيفا صباحاً إلى جنين في طريقي إلى نابلس، اجتمعت في جنين بنخبة من الإخوان الوطنيين، تذاكرنا في موضوع أحرارنا السجناء وعائلاتهم، حدثتهم عن رحلتي إلى عكا، وأخيراً تم الاتفاق على أن يتألف في جنين فرع «جمعية العناية بالمساجين» من السادة: فهمي العبوشي، فضل الطاهر، الشيخ حلمي الإدريسي، عارف السعيد».

وتأسس في عكا فرع لجمعية العناية بالمساجين في ٢/١٠ مكوّناً من السادة: خليل فضة، كامل مغربي، أحمد الشقيري».

ويشكو أكرم زعيتر من الإهمال على إمداد لجنة العناية بالمساجين بالإعانات التي تمكنها من القيام بواجباتها، فيقول بتاريخ ١٩٣٢/٤/١٠م:

«كنت أتوقع أن يكون الإقبال على إمداد لجنة العناية بالمساجين يتناسب وجلال مهمتها. قليلون هم أولئك الذين بعثوا إليها بإعانات من خارج مدينة نابلس. فقد أقتصرت روافد المشروع على ما نجمعه في نابلس، ولا سيما ما يتبرع به الطلاب من يومياتهم، فما أكثر الذين يدفعون قرشين في نهاية الأسبوع.

هذا الإهمال أو هذا الجحود آلمني كثيراً. وقد نشرت لي جريدة (الجامعة العربية) التي تصدر في القدس هذا اليوم مقالاً افتتاحياً تحت عنوان: «من في السجون: أجحود أم نسيان» وفيه قلت: التضحية أساس في خلاص الأمم؛ وضرورة لا منتدح عنها لاستقلال الشعوب، والجهاد والتضحية لفظان لمعنى واحد، لا يكتمل معنى أحدهما إلاّ بالآخر، فما أجدرنا بتشجيع روح التضحية وتنميتها في نفوسنا، حتى نجد فينا القدرة على دفع ثمن الاستقلال مهما غلا، ومهر الحرية مهما عزّ.

«وفي ١٩٣٢/٥/١٢م، استجابت مدن كثيرة للنداء الذي وجهته جمعية العناية بالمساجين، وتألفت

لجان للعناية بالمساجين في الخليل وحيفا وصفد وجنين وقلقيلية ويافا وعكا، وهي تتصل بالمركز في نابلس، وفي هذا تقدير للتضحية وإعزاز للمضطهدين في سبيل الوطن».

«وفي ١٩٣٢/٦/١م، قدمت جمعية العناية بالمساجين في نابلس تقريراً صاخباً إلى الحكومة، بشأن قضية السيد عبد الجواد فراح الخليلي المحكوم عليه بالسجن المؤبد لمناسبة اضطرابات ١٩٢٩ والذي أعلنت السلطة عن بيع ممتلكاته لتسديد ما فرض عليه من دية. وقد استنكرت الجمعية إقدام السلطة على هذا العمل، وطلبت العدول عنه.

وقد كتبت الجمعية إلى جميع فروعها في مدن فلسطين لتؤازرها في هذا الطلب.»

أمّا توقف نشاط جمعية العناية بالمساجين، فيمكن أن يعود للأسباب التالية:

كما لاحظنا، أن هذه الجمعية قد اعتمدت اعتماداً مباشراً على نشاط أكرم زعيتر، الذي لم يجد من تفاعل معه في هذه القضية من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد انشغل زعيتر في نشاط حزب الاستقلال، وما فرضه عليه من كثرة السفر خارج فلسطين، وكذلك انشغل جميع إخوانه في جمعية العناية بالمساجين في مثل هذا النشاط.

نتيجة الإجراءات التي اتخذتها سلطة الانتداب في فلسطين، فقد تزايد عدد المعتقلين من ناحية، وبالإضافة إلى عدد الشهداء والإبعاد والمصادرة والإغلاق من ناحية ثانية، بحيث أصبح عبء تحمّل العناية بالمساجين أمراً ثانوياً، في مواجهة هذه الإجراءات.

تردي الحالة الاقتصادية التي يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني، نتيجة الإجراءات البريطانية، ومصادرة الأراضي، تعددت مواجهة الشعب الشاملة في هذه المواجهة.

مهما يكن فإن مجرّد التفكير في تشكيل هذه الجمعية، يُعد موقفاً إنسانياً ووطنياً سطره أبناء الشعب الفلسطيني، ويعد احتجاجاً على سياسية الانتداب البريطاني في فلسطين.

ما وراء صور شعراء صهاينة على الفئات الورقية الجديدة (للشيكل)

يوسف الشايب

قبل أسابيع، كانت المرة الأولى التي تقع بين يديّ العملة الورقية الإسرائيلية الجديدة من فئة «العشرين شيكل»، وعلى الفور لفتتني صورة امرأة عليها، اعتقدت، ولم يخب ظني، أنها فنانة أو شاعرة أو أكاديمية، لأتأكد بعد ذلك أنها الشاعرة راحيل بلوشتاين، وبطبيعة الحال، الصورة لها في شبابها، ارتسمت على العملة المائل لونها إلى الوردي أو الزهر، كما نسميه، لتكمل سلسلة الشعراء الصهاينة على الفئات الجديدة بدءاً من الخمسين شيكلاً، فالمائتين، ثم المائة، وأخيراً العشرين.

وبات الفلسطينيون مرغمون لشراء خبزهم، أو خضارهم، أو باقة ورد لزوجاتهم أو عشيقاتهم، أو ألعاب أبنائهم، أو كتاباً لشاعر قاتل ضد الاحتلال بالكلمة أو الرصاص، أو حتى لشراء قطع أرض تثبتهم من اقتلاع وحشي عانى منه أجدادهم، إلى التعاطى مع أوراق نقدية تحمل صوراً تبدو جميلة لشاعرات وشعراء صهاينة بدلاً من ساسة في الغالب كانت تتصدر الفئات القديمة للعملات الورقية للشيكل، لكن الألوان الزاهية والصور بهية الطلعة تخبئ خلفها الكثير من البشاعة على مستوى الشعر، والكتابة، والفكر، والمبادئ، وحتى بعض الممارسات.

راحيل بلون الزهر

والشاعرة تعرف باسم «راحيل» مجرداً، ولقبت بـ»راحيل الشاعرة» ريتشيل بلوشين (راحيل هاميشوريرت)، وولدت في العام ١٨٩٠ في سارتوف في ما كان يعرف بالإمبراطورية الروسية، وقتها، ودرست العلوم العامة واللغة العبرية.

زارت راحيل فلسطين في المرة الأولى وهي في الـ١٩ من عمرها، هي التي توفيت عن عمر يناهز الأربعين عاماً جراء إصابتها بمرض السل.

وعُرفت باسم "راحيل الشاعرة»، وكانت من أبرز شعراء اللغة العبرية الكلاسيكية المتجددة، وكان يعرف عنها تعلقها بالفلاحة، حيث أقامت في آخر أيامها داخل كيبوتس «دغانيا»، وكانت «الكيبوتسات» تجمعات سكانية اشتراكية لليهود أكثر منها استيطانية استعمارية كما تحولت بعد احتلال العام ١٩٤٨.

واستقرت راحيل في البداية في «رحوبوت»، ثم انتقلت إلى الجليل وانضمت إلى مدرسة زراعية للسيدات على شواطئ بحيرة طبريا، أو «كينيرت الشمالية» بالعبرية، كما أمضت راحيل في المزرعة عدة سنوات ثم انتقلت إلى فرنسا لتتعلم الزراعة.

وخلال فترة دراستها في فرنسا لم تتوقف عن الحلم بالعودة إلى مناظر بحيرة طبريا/ كنيرت الطبيعية الجذابة من خلال الاشعار التي نظمتها. وفي العام ١٩١٩ عادت إلى فلسطين لتقيم في كيبوتس «دغانيا» القريب من بحيرة طبريا، لكن سكانه طلبوا من الشاعرة ترك الكيبوتس، عقب اكتشاف مرض السل عندها، قبل وفاتها في العام ١٩٣١.

وتنقلت راحيل بين أماكن مختلفة في فلسطين، بين صفد (تسفات) والقدس وتل أبيب، حيث أمضت معظم سنواتها الأخيرة.. وخلال حياتها في المنفى استمرت بكتابة الأشعار عن شوقها والحنين إلى البيت والمناظر التي أدارت ظهرها إليها لبضعة سنوات.

وبالعودة إلى طفولتها، فهي ولدت لأسرة يهودية متدينة، فجدها حاخام الطائفة اليهودية في كييف، ودرست في مدرسة يهودية في صغرها، وحين بلغت سن التاسعة عشرة زارت فلسطين خلال رحلة إلى إيطاليا برفقة شقيقها، حيث كانا يخططان لدراسة الفن والفلسفة، خاصة أنها كانت بدأت تكتب الشعر قبل الرحلة بأربع سنوات، لكنهما قررا البقاء في فلسطين كرائدين صهيونيين، وتعلما العبرية من خلال الاستماع لثرثرة الأطفال في رياض الأطفال، حيث استقرا في «رحوبوت»، وعملا في البساتين، وفي وقت لاحق، انتقلت راحيل إلى ضفاف بحيرة طبريا، حيث درست وعملت في الزراعة، قبل أن تلتقى الزعيم الصهيوني أ. د. جوردون الذي كان له تأثير كبير على حياتها، والتي كرست له قصيدة العبرية الأولى.

في العام ١٩١٣، وبناء على نصيحة غوردون، سافرت الى تولوز في فرنسا لدراسة الهندسة الزراعية والرش، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، باتت غير قادرة على العودة إلى فلسطين، فعادت بدلا من ذلك إلى روسيا حيث كانت تدرس الأطفال اللاجئين من اليهود.. في روسيا عانت من الفقر والعمل الشاق، فضلا عن ظهور مرض لديها في الرئة في طفولتها.

في العام ١٩١٩، بعد الحرب، استقلت السفينة الأولى لمغادرة روسيا، وعادت إلى فلسطين على متن سفينة، وبعدما تم تشخيص مرضها بأنه «السل» المعدي، طردت من «دغانيا» أو «ديغانيا»، وتركت لتدبر نفسها .. في العام ١٩٢٥ عاشت لفترة وجيزة في منزل أبيض صغير في فناء وليام هولمان هانت

هاوس في شارع ٦٤ بالقدس، لكنها أمضت بقية حياتها في السفر وتعيش في تل أبيب، وكانت تعتاش من تقديم دروس خاصة باللغتين العبرية والفرنسية، واستقرت أخيرا في مصحة لمرضى السل في «جيديرا «.

توفيت راحيل في مستشفى بتل أبيب بعيداً عن بحيرة طبريا، لكنها دفنت في مقبرة قرب البحيرة، فيما اطلق اسمها على حدائق في شواطئ البحيرة، إحياء لذكراها، هي التي بقيت على قيد العزوبية.

وبصفته عضوا في هيئة تحرير صحيفة دافار، قام زلمان روباشوف في وقت لاحق زلمان شازار، الذي أصبح الرئيس الثالث لدولة الاحتلال، بتشجيعها على كتابة ونشر شعرها، حتى باتت رائجة لدى «الجالية اليهودية في فلسطين»، هي التي في بعض القصائد كانت تربط بين اسمها راحيل (راشيل) كراشيل، وأم بطريرك، وميشال زوجة داود.

ومن أشهر أشعار «راحيل»:

هل تسمع صوتي، أيها البعيد عني؟

هل تسمع صوتي، أينما كنت؟

صوتٌ ينادي بشدة، صوت يبكي بسكوت،

وفوق الزمان يأمر بالتبريك.

إن المعمورة عظيمة وطرقها عديدة،

إنها تلتقي للحظة، ثم تنشق للأبد.

الإنسان يطلب لكن أقدامه تفشل،

لن يتمكن من إيجاد ما فقده.

يومي الأخير قد يقترب مني

يقترب يوم دموع الوداع

سأنتظرك حتى تطفئ حياتي

كما انتظرت راحيل وديدها

وحلت صورة الشاعرة راحيل محل صورة موشي شاريت، رئيس وزراء الاحتلال الثاني، مع صور من الرواد الصهاينة الذين تروج سلطات الاحتلال أنهم استقروا في فلسطين، على أنها «أرض إسرائيل»، نهاية القرن الـ١٩ وبداية القرن الـ٢٠، في العشرين شيكلاً القديمة (الخضراء).

غولدبرغ البرتقالية

وعلى فئة المائة شيكل الجديدة برتقالية اللون، تم الانتصار لشاعرة إسرائيلية أخرى، هي ليئا غولدبرغ، وهي شاعرة وناقدة ومترجمة، وتعد واحدة من أكثر الشعراء الإسرائيليين شهرة في الزمن الحديث.

ولدت غولدبرغ العام ١٩١١ في بروسيا الشرقية، وتحديداً في كينكسبرغ الألمانية، وتعلمت في مدرسة عبرية محلية، وفي الجامعة درست غولدبرغ اللغات السامية، حتى هجرتها إلى فلسطين الانتدابية العام ١٩٣٥، لتلتحق بمجموعة خاصة من الشعراء والأدباء العبريين سعت إلى وضع ثقافة وأدب وتربية عبرية جديدة في فلسطين قبل احتلالها من قبل العصابات الصهيونية العام ١٩٤٨، هي التي اشتهرت بكتابة الشعر للكبار والصغار، والتي اعتبرت من أولى القصص العبرية الجديدة.

كما نشرت غولدبرغ في جرائد عبرية مختلفة، هي التي أصيبت بمرض سرطان الرئة وتوفيت في العام ١٩٧٠ دون أن تتزوج كسابقتها، وهو ذات العام الذي حصلت فيه على جائزة الأدب الإسرائيلي.

وكانت غولدبرغ شغلت منصب محاضرة بدرجة بروفسور في الجامعة العبرية في القدس، ويسجل لها أنها أغنت الأدب العبري بتراجم لأمهات الأدب الأوروبي.

ومن أبرز قصصها للأطفال «شقة للإيجار»، والتي تدعو إلى التعددية وقبول الآخر ووقف العنصرية استخدمت فيها شخصيات خيالية من الحيوانات تسكن جنباً إلى جنب في عمارة واحدة، ومن أشهر اشعارها التي باتت أغنية شهيرة ومسموعة «**في أرض حبي**»، والتي تتحدث عن حب الوطن والانتظار للمحبوب:

في أرض حبي نورت اللوزة

في أرض حبي تنتظر الضيف

سبع أوانس، سبع أمهات،

سبع عرائس في الباب.

في أرض حبي عَلَمٌ على البرج
إلى أرض حبي سيأتي الزائر
في ساعة طيبة، في ساعة مباركة
تنسّي كل حزن.
لكن – من لديه أعين نسر حتى يراه؟
ومن لديه قلب حكيم حتى يعرفه؟
من لن يخطأ ومن لن يغلط؟
من يفتح له الباب؟

إنني نائمة ولكن قلبي متيقظ
وإن الضيف يمر قدام بيتي
والصباح قد بهر
وفي الحوش
حجرٌ وحيد يتدحرج.

لكن شعر غولدبرغ لم يبتعد كغيرها من شعراء الصهيونية عن الإشادة باليهود دون غيرهم، وتوعد من تصفهم بالأعداء، ففي قصيدتها الموسومة بـ»جهنم السعيدة»، تقول:

من الخراب، من اللهب
من الانتقام، من الذنب
مثل النار التي تحرق
السعادة في الدم
أمام حريق وأمام اغتيال
أمام بندقية وسوط .

وجاءت صورة غولدبرغ بديلاً عن صورة يتسحاق بن تسفي، رئيس دولة الاحتلال الإسرائيلي الثاني، مع صور تروج الاحتلال إنها من الكنيس العتيق في بكيعين من القرون الميلادية الأولى، كانت على فئة المائة شيكل البنية القديمة.

الخمسون المثيرة للجدل

وفقا لموقع يتبع جريدة الإندبندنت البريطانية فإن إسرائيل وتركيا دون غيرهما في منطقة الشرق الأوسط، لا تنشران صورا للنساء على وجه الأوراق النقدية من مجموع ٥٤ دولة فقط على المستوى العالمي في هذا المجال.

ولكن للشعراء الرجال نصيب كما النساء على النسخ الورقية الجديدة للعملة الإسرائيلية، ففي فئة الخمسين الخضراء، تبرز صورة الشاعر الإسرائيلي الشهير شاؤول تشرنيخوفسكي، الذي ولد في أوكرانيا في العام ١٨٧٥، وتوفي في القدس في العام ١٩٤٣، ويحمل شارع فيها اسمه، هو الذي يعتبر من الشعراء غير المتدّينين بالنسبة للكثيرين، ومن شعراء الطبيعة، ما أثار لغطاً بسبب اختيار صورته لتتصدر هذه العملة الورقية الجديدة قبل أربع سنوات.

ولد شرنيخوفسكي تحديداً في زابورجيه أوبلاست في أوكرانيا يوم ٢٠ آب/أغسطس من العام ١٨٧٥، وما بين ١٨٩٩-١٩٠٦ درس الطب في جامعة هايدلبرغ، وعاش في الولايات المتحدة الأميركية عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠، وفي عام ١٩٣١ هاجر إلى فلسطين إبان الانتداب البريطاني واستقر فيها بشكل دائم.

واللافت رغم صهيونيته، أن عدة شخصيات دينية اعترضت على قرار «بنك إسرائيل» لوضع صورة الشاعر تشرنيخوفسكي على ورقة الخمسين شيكل النقدية الجديدة، بسبب زواجه من امرأة مسيحية!

د. حاجاي بن ارتسي، شقيق سارة زوجة رئيس حكومة الاحتلال بنيامين نتنياهو قال إن وضع صورة الشاعر «الروسي»، ولم يصفه بالإسرائيلي على الورقة النقدية هو بمثابة «إهانة»، لافتاً إلى أن»"شاؤول تشرنيخوفسكي أصبح رمزاً للإنصهار الثقافي، لأيدولوجيا الإنصهار، ومن غير المقبول بأن شخصاً كهذا، مهما كانت أهميته كشاعر، يصبح رمزا لدولة إسرائيل، هو الذي تزوج من ميلنيا كارلوفا المسيحية روسية الأصل، والتي أنجب معها إبنته اسولدا».

الحاخام الشهير شلومو افينير: حاخام المستوطنين قال: بأن وضع صورة تشرنيخوفسكي على ورقة نقدية رسمية للدولة اليهودية هو أمر «لا يليق أبداً .. تشرنيخوفسكي حقاً شاعر وكاتب موهوب جدا، وله صلة بشعب إسرائيل، ولكنه عار فظيع، فقد لطخ حياته لأنه كان متزوجاً من امرأة غير يهودية، مسيحية متدينة جدا»، أما افينير مدير الجماعة المتطرفة «عاطيرت كوهانيم»، الواقعة في

الحي الإسلامي من البلدة القديمة في القدس، فقال بأنه «من غير المقبول تمجيد شاعر تزوج زواجاً مختلطاً، بوضع صورته على الأوراق النقدية الإسرائيلية».

وفي العام الماضي أصدر الحاخام اليهودي السفاردي بن صهيون موتزافي، فتوى بتحريم النظر إلى ورقة نقود من فئة الخمسين شيكلاً، لأنها تحمل صورة الشاعر تشرنيخوفسكي ،وذلك لأن المذكور تزوج امرأة مسيحية، واعتبره بذلك معظم الحاخامات المتشددين مرتداً ومدمراً للأمة لمخالفته الشرائع التي تمنع ذلك على اليهود، بل إن الحاخام دعا هذا جماعته إلى طي الورقة المالية إلى الوجه الثاني، وحرّم النظر إلى رسم الشاعر المرتد»، على حد وصفه.

ومع ذلك فإن أشعار تشرنيخوفسكي تنتصر لاضطهاد اليهود، ومن أشهر قصائده «باروخ المغنيستي»، وهي قصيدة طويلة للغاية ولكنها تبدأ بالحديث عن هذا الموضوع الشائع المتكرر في الأدب العبري حول اضطهاد اليهود و»استشهادهم»:

في الشوارع جموع الفلاحين

والحرفيين والفرسان

أنات الموتى وبكاء الأطفال .. أصوات النساء

الأواني محطمة وملابس مهلهلة

الدماء تجري فوق الطين

وصرخات تنادي فلتضربهم حتى الموت

وفي قصيدة «بقوة روحي»، يصور تشرنيخوفسكي «الإنسان اليهودي الجديد»، الغازي والفاتح والمنتقم والمؤمن بالعنف، بأنه قادر على معالجة الموقف عبر الانتقام بالسيف:

يا سيفي، أين سيفي، سيفي المنتقم؟

اعطني سيفي لانتصر على أعدائي

أين أعدائي؟ لسوف اصرعهم

وأحطمهم وأقطعهم إربا إربا

سوف اجعل سيفي يشرب فخوراً من دمهم

وستستحم خطواتي في دماء الصرعى

سأقطع من يمين واحصد من شمال

اعطني سيفي
فلن اغمده مرة أخرى حتى اذبح كل أعدائي .

وحلت صورة الشاعر تشرنيخوفسكي، الذي تميز بأنه تناول في أشعاره التراث اليهودي والتراث العالمي، عوضاً عن صورة الكاتب الإسرائيلي البارز الحائز على جائزة نوبل، شموئيل يوسف عاجنون في الخمسين البنفسجية القديمة.

ألترمان .. الصهيوني الأزرق

وتحمل فئة المائتي شيكل الزرقاء الجديدة، صورة الشاعر ناتان (ناثان) ألترمان، المولود في بولندا العام ١٩١٠، وتوفي في تل أبيب في العام ١٩٧٠، وكان شاعرا، وكاتب مسرحية، وصحافياً ومترجماً، ويعد من اوائل الشعراء في إسرائيل الذي تعاطى مع الشعر المعاصر وترجم العديد من أعمال الأدب العالمي للعبرية.

ولد ألترمان في وارسو التي كانت جزءًا من الإمبراطورية الروسية، وفي العام ١٩٢٥ ، أي حينما بلغ الخامسة عشرة، هاجر إلى فلسطين مع عائلته واستقر في تل أبيب، وتابع دراسته في مدرسة هرتسليا الثانوية، وعندما بلغ التاسعة عشرة، سافر إلى باريس للدراسة في جامعة باريس (السوربون)، ولكن بعد عام واحد، قرر أن يذهب إلى «نانسي» لدراسة الهندسة الزراعية.

بالرغم من علاقاته الوثيقة بينه وبين عائلته وأصدقائه في تل أبيب والزيارات في الإجازات، قضى ألترمان ثلاث سنوات في فرنسا، وتأثر بشدة بالمجتمع الفرنسي وكان يتواصل بين الحين والآخر مع الفنانين والكتاب الفرنسيين.

في العام ١٩٣٢ عاد إلى تل أبيب وبدأ العمل في المدرسة الزراعية (كيبوتس) "أمل إسرائيل" (تكفاه يسرائيل)، ولكن سرعان ما تركها لصالح العمل بالصحافة ونشر القصائد بالعبرية، حيث عمل بالصحف العبرية (هآرتس، دفار، طوريم، معاريف)، واشتهر «بالعمود الأسبوعي» الذي كان ينشره في صحيفة دفار، حيث كان يتضمن "النقد الاجتماعي الساخر»، كما ألف أناشيد وأشعاراً عبرية كثيرة في الحب والطبيعة والجمال والمناظر وأشعاراً أخرى للأطفال. وله ترجمات عبرية لشكسبير وراسين، وترجم أيضاً من الكتب الكلاسيكية وحديثة العهد الكثير، كما ألف مسرحيتين.

ونال ألترمان العديد من الجوائز الأدبية، أبرزها جائزة إسرائيل للأدب في العام ١٩٦٨، سبقها

بعام جائزة تشرنحوفسكي لترجمة مسرحيات موليير، وفي العام ١٩٥٧ جائزة بياليك للأدب، وقبلها بعشرة سنوات جائزة روبين لكتابته «فرحة للفقراء»، في حين كانت أولى جوائزه في العام ١٩٤٦، وهي جائزة تشرنحوفسكي لأعمال الترجمة المثالية.

ومن يدقق في التواريخ يستنتج دون عناء، أن الحركة الصهيونية، وقبل النكبة وقيام دولة إسرائيل على أنقاض أراضي ومنازل وحيوات الشعب الفلسطيني العام ١٩٤٨، كانت تنظم جوائز أدبية، فألترمان حصل على جائزة أدبية في العام ١٩٤٦.

وحلت صورة ألترمان محل صورة زلمان شازار، رئيس دولة الاحتلال الثالث، مع صورة من شارع في صفد.

ويعتبر ألترمان من أبرز مؤسسي حركة «إسرائيل الكاملة» مع كل من تسفي شيلواح وموشي شامير، «من اجل ضمان السيطرة الاسرائيلية على المناطق التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧»، وفق موقع المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار).

ومما جاء في البيان الاول الذي اصدرته الحركة ما يلي: «ارض اسرائيل الكاملة اصبحت بيد الشعب اليهودي، وكما انه لا يوجد لدينا الحق بالتنازل عن دولة اسرائيل، هكذا يجب ان نحافظ على ما حصلنا عليه بواسطة دولة اسرائيل. ونحن نتعهد بالمحافظة على سلامة اراضي ارض اسرائيل، ولن تستطيع اية حكومة في اسرائيل التنازل عن هذه الحقوق، وضمن حدود اسرائيل الكاملة ينتشر العدل والمساواة بين كل المواطنين بدون تمييز» .. وعلى ذلك جُمعت تواقيع وتأييد كبار رجال الفكر الاسرائيلي امثال شاي عغنون وحاييم هزاز ورجال سياسة واكاديمية.

وأصدرت الحركة جريدة بعنوان «زوت هآرتس» (هذه هي البلاد)، وشجعت ودعمت الاستيطان اليهودي في الخليل، وانضم اعضاء كثيرون من هذه الحركة الى اوساط الاحزاب اليمينية مثل الحيروت والليبراليين والمركز الحر، كما شاركت الحركة في اعقاب حرب تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ في تأسيس الحركة الاستيطانية السياسية «غوش ايمونيم».

وتوسم زعماء الحركة خيرا عند تولي الليكود سدة الحكم العام ١٩٧٧، الا ان زيارة انور السادات الرئيس المصري للكنيست الاسرائيلي وقيام بيغين بالتنازل، على حدّ تعبيرهم، عن اجزاء محررة من ارض اسرائيل، دفعت ببعض اعضاء الحركة الى الانسحاب من الائتلاف مع الليكود في الحكومة، وفي مقدمتهم غئولا كوهين وموشي شامير واقامة حزب «هتحيا» (اليقظة)، وبالتالي الاعلان رسمياً عن حل الحركة.

وتحاول إسرائيل من خلال تلك الصور إيجاد شيء من التطامن الذاتي بالثبات مع ان خطاب زعماء

اليمين الزاعق يومياً حول الخطر الوجودي هو أيضا خطاب كاذب فهي تريد الإيحاء بالشعور بالاستقرار والثبات ولذا ازاحت صور من تسميهم الرواد الأوائل أي السفاحين والقتلة من قادة منظمات الإرهاب. وتريد الإيحاء بانها تنشد السلام وتهتم بالثقافة والمعرفة علماً ان المحتفى بصورهم صاغوا أبشع أشكال العنصرية في اشعارهم ونصوصهم ضد شعبنا الفلسطيني ويعيشون ميثولوجيا عفا عليها الزمن عن الأغيار والغوييم.

فئران الشارع *

قصة جان ماري غوستاف لوكليزيو**

ترجمة : أحمد المديني

خوان، مارتان، سيسيليا، لوب، شَبيلا، تونيو، ميغل، إلبيلون، بانشو، لانوتريا، كابيزون، برافو، أغيير، ليتي، جابي، يوني، إلبيرو، إلغاتو، لاراتا، بينيا، مانو، شيبو..هي بعض أسماء عُصبة أو عصابة صِبية مُجمّع الخردوات رقم ٧٤ في شارع ١٦ سبتمبر. تتراوح أعمارهم بين سبعة وخمسة عشر عاما، وأكبرهم سنّا مانو، الذي يعيش مع عائلته، والأسرع بينهم هو إلغاتو، بينما الأكثر مكرا فيهم والأعنف هو برافو، حتى ليقال بأنه في الثالثة عشر حولا فقط، قتل رجلا أراد أن يغتصبه داخل نفق، يحمل في جيبه سكينا ذا نوابض ومقبضا آليا. إلى جانب هؤلاء نوتريا، الفتاة خفيفة العقل نوعا ما، فمُها مهدوم من الأمام بسبب تعنيف أبيها لها. أما شابيلا، لوب، وسيسيليا، وهنّ في الثانية عشر من أعمارهن، فيتصعلكن في الشارع بدل الذهاب إلى المدرسة. بما عليهن من أسمال، يوقعن السياح في فخِّهنّ، فيسرقن جيوبهم، إذ تجذب إحداهن المهووس جنسيا منهم إلى ركن معتم لإغوائه وتهجم عليه الأخريات يجرِّدنه من كل ما يملك. أجملهن بينيا، ذات الأربعة عشر ربيعا، بصدرها

*هذه القصة من المجموعة القصصية التي تحمل عنوان:

« Nouvelles pour la liberté» (قصص من أجل الحرية) صدرت عن دار Cherche-Midi (باريس، ٢٠٠٣) بالاشتراك مع منظمة العفو الدولية.

**Jean-Marie Gustave Le Clezio (المشهور اختصارا J.M.G Le Clézio) اعترف به منذ كتابه الأول Le Procès verbal (المحضر)، جائزة رونودو ١٩٦٣) علما كبيرا من أعلام الأدب الفرنسي المعاصر. صدرت له عشرات الروايات والقصص والنصوص الرحلية، منها Desert(صحراء ١٩٨٠) وL'Africain (الإفريقي ٢٠٠٤).. تُوِج لوكليزيو الذي يحمل أيضا جنسية جزيرة موريس سنة ٢٠٠٨ بجائزة نوبل للآداب على مجموع أعماله.

الوافر، وفخذيها الملفوفين في بنطلون من البلاستيك المُقوّى، الأسود، إشترته من السوق السوداء. أما مانو فهو منحرف ومهرِّب، ويعتبر رسميا رجلَها، الكل يعلم هذا، بمن فيهم صبية العصابات الغريمة في السوق، أو صبية ٥ مايو.

منذ شهرين وبطن بينيا ما انفكّ يتكوّر، ليس سرا أنها تنتظر طفلا من مانو، حتى وهي لا تأتي بهذه السيرة وتتظاهر أن لا شيء يعوّل عليه، رغم قيئها عدة مرات. مانو بدوره لا يتكلم في الموضوع، ومحتمل أنه غير منشغل بمقدم الطفل. وهي تبكي ذات يوم، وضعت شيبو رأسها على بطن بينيا، بحنان أخت لها، وقالت:» أوَتعلمين أنني أسمعه، إنه حقيقي؛ أسمع قلبه ينبض»، فداعبت بينيا رأسها.

المجنون طرًّا بينهم هو شيبو. يحمل هذا الإسم، لأنه منذ صغره اعتاد على شمّ (الكولا). يتنقل حاملا كيسا يجمع فيه كولا الإسمنت. وهو طويل ونحيف قياسا بعامه الحادي عشر، وعيناه سوداوان جميلتان محاطتان بهالة زرقاء، كذلك هو شاحب ولا يبتسم أبدا. حين يتوفر على الكولا، فذاك شيبو الحقيقي، يتمتع بالحيوية والسرعة، ويُرى يركض ولسانُه يلسع ويعضّ، وعكس هذا يكون حزينا ومكتئبا.

شيبو وحده من يعرف متى يمكن أن نعبر. نعم، نعبر مرتين في الشهر، وأكثر، حين ينتهي موسم الأمطار، كما هو الحال الآن. في هذا الوقت يفتح(les gringos)١ الأنابيبَ لينظفوا المجاري. من جهة أرض المكسيك، لا مشكل البتة، فمنذ زمن لم يعد هناك حواجز، أمّا من الجهة الأخرى من الحدود، فالحواجز مغلقة عادة بأقفال.

«هيا، سنعبر، من يأتي معي؟» يبدو شيبو متعجّلا. أفواه المجاري توجد في الجانب السُّفلي من الشارع، تشبه مدخل كهف بين شجرتيْ سَرْو.

«إنها غير مفتوحة» قال أحدهم. بينما شيبو وهو يتسلل بكيسه من الكولا يرد:» أنا أقول إنها مفتوحة، لقد ذهبت إليها هذه الليلة». فعلا، لا أحد سواه يجرؤ على التحرك في القناة الضيقة في ديجور الليل، تحسب أن عينيه تلمعان مثل عيون القطط.

«كلا، غير صحيح!».

«بلى، يا بيتو».

لا يتعارك بيتو أبدا. ينسلّ كإبرة. الواحد تلو الآخر، يهرع الصبية إلى الرِّواق. في الخارج، طلع النهار واضحا، والشمس تحترق فوق الغبار، السيارات تشدّ بأعناق بعضها في اختناق زحام الشارع،

باتجاه نقطة الحدود. الفتيات بقين، لم يغادرن، ومانو أيضا، قال، إنه لا يحتاج إلى العبور عبر المجاري للذهاب إلى الجهة الأخرى.. الحقيقة أنه خاف دائما من المجاري، من أن يبقى محبوسا تحت الأرض. اكتفى بالجلوس فوق حَجرة عند مدخلها وهو يراهم يذهبون. بجواره بينا تدخن بلا مبالاة، ولا تكفّ تردد عبارتها»: أنا إن ذهبت إلى الجهة الأخرى، فلن أعود أبدا إلى هنا». قبل الذهاب كلف العجوز أوغستان سوسيدو شيبو بشراء غرض له، أعطاه ورقةً نقديةً من فئة عشرين دولارا قائلا له:» آتني بمصفاة لبئري، فالمتوفر هنا غير جيد»، ورسم له نوعها في قصاصة ورق:» مصفاةٌ جديدةٌ من نحاس، أقول لك، لا من بلاستيك».

في القناة الضيقة كان شيبو ينغمر شيئا فشيئا من دون توقف. يدفع جسده بحركة متواصلة كما لو أنه يسبح. الظلام دامسٌ تحت الأرض، وهو لا يسمع شيئا، عدا خبط ذراعيه وقدميه كدواب تقضم عشبها. الأنفاسُ مقبوضةٌ، لاهثةٌ قليلا. وفي الخلف يجد الآخرون صعوبة في اللحاق بمن يتقدمهم، فيصرخون:» أوو شيبو!» بأصوات خافتة جدا، شاكية. يقدح شيبو زناد عود ثقاب، يلتمع إثره ضوءٌ أحمر مدة ثانيتين فقط، بسبب نقصان الأوكسجين. في الخلف، وبالنسبة لإلغاتو، لاراتا، أغيير وبيلون، يوني، برافو، بيتو، فإن هذه اللمعة هي بمثابة ضوء فنار يمنحهم الشجاعة. هكذا، يتحفّزون، يدفعون أذرعهم وسيقانهم، مواصلين الشكوى: « أوو ـ شي.. بو!.».

أما هو فينتابه الغضب، يشتُم بصوت خيشوميّ، واضعاً يده أمام فمه ليردَّ الصوت إلى الوراء، وهذا يصنع الصدى في مجموع مرافق المجاري، بل ربما يتفتت التراب بين الواقيات الصدئة للأنابيب، وهنا، بستة أمتار تحت الأرض، بعيدا عن الأزقة والطرقات، وبرائحة تتنفس البراز، ربما لا توجد إلا هذه الكلمات» قحبة، خوَل، قشّ» لا سواها!

وهو يعرف أنه مرَّ إلى الجهة الأخرى حين يعمّ الصمت. ينقطع كل ضجيج متواصل آتٍ من السطح، لا بل يمكن الشروع في إبصار شيء ما: شعاعٌ رماديٌّ يهبط من زوايا أفواه المجاري. ما يدفع الصبية إلى السؤال:» شيبو، هل وصلنا؟ هل نخرج الآن؟». هكذا هم على استعداد للخروج من أول ثُقب. يبزغ أمامهم شعاعٌ فيتعجّلون، عندئذ يُخرِجون رؤوسهم على مَبعدة عشرين مترا من الجدار، في قلب المدينة، لا يبقى لهم إلا أن تصطادهم كلابٌ ضالة.

يمتنع شيبو عن أي جواب، مواصلا تقدمه، عيناه مغمضتان بسبب الجذور النابتة في المجاري وبيده حجر حاد. ففي آخر مرة عبر فيها إلى هنا صادفه زوج جرذين ضخمين، اضطر للعراك مع الأنثى التي سلخت قطعة من جلد مقدمة ذراعه.

الآن، أصبحت رائحة العَذِرة مقززةً، نفّاذةً إلى حد أنها تخنِق بالسُّعال. ومن الضوء الرماديِّ الذي

غمر قنوات الصرف خمّن شيبو أنه يقترب من المُتنزّه، فهنا الجذور تجتاح الممر، وكذلك البقعَ الآسنةُ والنفطَ الأسود.

يتوقف شيبو، يسعى لسماع لغط الأطفال خلفه. في هذه البقعة قنوات الصرف أوسع، تغلقها من فوق سقوف من آجُر غامق. ينقلب يحبو وهو يستكشف الظلام:»» أوو، أين أنتم؟»، صوت برافو وحده يأتيه عن بعد صدِئا، يبدو أن لا أحدَ تبعه، والآخرون لا شك خرجوا من أول ثقب، ما جعله يُزمجر بقرف:» أولاد سفلة!». لا شك، وضَعَ البوليس يده عليهم ونُقلوا رأسا على الشاحنة الزرقاء الشهيرة. طبعا، سيجأرون ويتباكون، كل هذا الضّنى من أجل لا شيء.. وقد أصبح برافو أمامه، أعطاه الإشارة الأخيرة يوجهه نحو المخرج القادم، ويتقدم.

وأخيرا، ها هو يرى ضوء الشمس، فقد وصل إلى المُتنزّه في شرق المدينة، بعيدا عن الطريق. في كل مرة يصل فيها إلى هذا المكان، يحس بقلبه يخفق. يستنشق عميقا هواء الخارج، ويتنفس الرائحةَ السكّريةَ لشجيرات القطن، للعشب المقصوص، للورود. يشمّ رائحة الماء أيضا، فهنا لا حاجة لهم بالمطر. كل صباح، حوالي السادسة، تُفتح الأنابيب وتنثر رشّاتٍ عذابا. يستمع شيبو أيضا إلى ضجّة الأصوات، للأطفال يلعبون، للصرخات، للضحكات. حتى أصوات البالغين تُحدث موسيقى، وهم يتكلمون بلغتهم الغريبة، المنسابة. لغة لا علاقة لها بأصوات القطاع ٧٤، بالصرخات الممزقة لأطفال هناك، والضجّة الزاعقة للشاحنات في طريق ١٦ سبتمبر. لعل الغبار هو السبب، يُرى يعلو في الجانب الآخر ثم يتساقط، يئزّ ويحتك، يَضرّ بالأبصار.. غبارٌ يخنق الرُّضّع في أسِرّتهم، وفي الصباح حين نغشى غُرَفَهم نجدهم كلهم جامدين بردا ورماديين بعيون مفتوحة على الموت.

أخيرا يقفز شيبو إلى الخارج. بوثبة واحدة صار في الهواء الطلق، قبالة المُتنزّه. هنا، تحت سماء شديدة الزرقة، تبدو الأشجار في شكل عمالقة خرافيين. الهواء الساخن يلعب بأوراقها الصغيرة، بعضها ذاهبٌ إلى الإصفرار. إنها أشجارٌ لم يُر مثلُها أبدا في الجهة الأخرى. هناك، لا توجد إلا أشجار الأكاسيا المحترقة، بقبضاتها الإبَريّة البيضاء، والمنوليا المنسّقة في صورة مظلات بلهاءَ بساحة وسط البلدة.

إنها الثالثة بعد الزوال. شرع التلاميذ في الوصول زرافات؛ أطفالٌ يرتدون ملابسَ مزركشة، وتعلو رؤوسهم قبعات جديدة. بيد أن أحذيتهم ما نظر إليه شيبو بغيرة. أحذيةٌ رياضية، مخططةٌ بالأزرق والأحمر، بكُريات مضيئة في نعالها.

يمشي الأطفال فوق العشب إلى جانب شيبو دون أن يروه. إنهم ذاهبون إلى الملاعب، إلى البيوت ذات السقوف المزينة، إلى الجسور والحبال. جلس شيبو فوق العشب، تحت ظل شجرة، ينظر إليهم. في جيب بنطاله الممزق تثوي طلبيةُ العجوز أوغستان، الورقة المدعوكة والعشرين دولارا.

كان شيبو قد نسي تماما طلب المصفاة. ينظر حالما إلى الأطفال وهم يلعبون. ينظر إلى أحذيتهم الرياضية الجميلة، والفاتنة. حقا، بحوزته ٢٠ دولاراً، بيد أنه يحتاج إلى ضعفها خمسَ مرات ليقتنيَ مثلها. ثم إن شيبو يُعزّ أوغستان، ورغم أن لا قرابةَ بينهما فهو يلقبه «جدِّي»، لذا لن يروق له تبديد العشرين دولارا العائدة لجدّه.

في الطرقات المضطرمة لوسط المدينة، هناك، يركض الصِّبيةُ كالفئران، هم فئران. على رأسهم إلغاتو، يليه أغيير، يوني، بيتو، وفي المؤخرة راتا. ضُرِب الموعدُ في السادسة مساء، قبل هبوط الظلام، أمام مخرج المجاري نفسه. هو الوقت الذي تُوقف فيه سيارات مكافحة الهجرة جولتها لوجبة العشاء.

بدأت مجموعة إلغاتو غزوتها، لم تجن منها بعد شيئا يُذكر. بعض البسكويت والعلكة، من متاجر مركز المدينة. يدخلون أربعا وبينما يطوفون حول الرفوف، يتبعهم صاحب المتجر قلِقا، ينهمك إلغاتو في نهب جناح السُّكّريات. خزعبلات لا أكثر، ولهذا السبب يحتقرهم شيبو، ثم يتفرقون عبر الأزقة، متبوعين بصيحات التاجر، نصفها مكسيكي والنصف الآخر محلي أميركي.

حين طعِموا حدّ الشبع قرر الصبية أن يغيّروا الحي. إلغاتو يعرف المدينة كجيبه. سيصلون إلى الأحياء السكنية، هذه البيوت الوطيئة تمتد أمامها مساحات عشب منسّقة. هذا وقت السّقي، وانفتحت السّقايات مباشرة محدثةً ضبابا من الماء يعوم في الشمس، فتدافع الصبية إلى القفز يتلاعبون فوق المساحات المعشوشبة للبيوت، ويغطسون في السحاب الطّريّ. صرخاتُهم الحادة تملأ جنبات الحي، وزقزقة الطيور تعلو حدا يخترق خرخرة المكيفات. بينما الكلاب المحبوسة وراء الحواجز تُصاب بالجنون. وفي الآن عينه، في خمسين منزلا بأبوابها ونوافذها الموصدة دون الخارج الفاتن والخطر، خمسون تلفونا يُركِّب الرقمَ الواحدَ للشرطة:» آلو؟ إنه زقاق الفئران، أيضا!إنهم يركضون في كل مكان! تسعة ـ واحد ـ تسعة!».

يمر يوني على مقربة جدا من النوافذ بذراعين مفتوحين، مطلقا صرخات حادة بنبرة النفير. لا يفوته أن يضرب الأبواب بركلات متناوبة معها يقذف جميع القديسين وزينة الحديقة. يا للعربدة، لا يستطيعون أن يتوقفوا، إنهم الأسرع، الأذكى، الأشجع، لا أحد يضاهيهم سرعة.

فجأة، ها هي سيارة تطاردهم. سيارةُ شخص ما لا الشرطة. خمسينيٌّ، شخصٌ عادي، يسوق سيارةً رمادية. ربما يسكن هذا الحي، ربما لا. تمشي سيارتُه الفارهةُ شبه صامتة في الأزقة، تلاحق الصبيةَ، تدور يسارا، تدور يمينا. إلغاتو مَن أشعَر الآخرين بها، وهم الآن يفرون ما في وسعهم. يندفعون في ممر خلف المنازل، بمثابة طريق تتكوّم فيه حاويات للنفايات تشبه أزقتهم، في الجهة الأخرى من الحدود.

خلف سياجات هاجمهم نباحٌ متواصلٌ للكلاب تصدّى لمرورهم. لن تدخل الكاديلاك هذا الممر، والظاهر أن صاحبها يعرف الحي جيدا، كذلك استدار وتوقف في الطرف الآخر من الممر. لم ينزل من سيارته، بل أمعن فأغلق نوافذها. شرع يتلفن في محموله. غرضُه واضح، فقد كان يهدي الشرطة إلى موقع الصبية. لن يتدخل بنفسه، فليس لفئران نوغاليس٢ سمعةٌ حسنة. حتى أصغرُهم سمُّه زعاف. يضعون في جيوبهم سكاكين، وأنصالا رقيقة، بل يقال إنهم يغرسون شفراتٍ في أفواههم.

حين أدرك إلغاتو الخطر انتابه الغضب، فصرخ يناديهم:» تعالوا، هيّا، هيّا !» وهجموا كلهم دفعة واحدة على السيارة صارخين.. أحس الرجلُ فجأةً أنه لم يعد في أمان خلف الزجاج، حتى مع الرسالة المسجلة للشرطة في أذنه. هكذا حرك مقبض السرعة وضغط على الدوّاسة وإذ السيارة الكبيرة تنطلق بهياج غير مسبوق منها. ركَض الصبيةُ وراءها وهم يصرخون، يوني وراتا، رمياها بأحجار لم تُصبها، إذ صارت بعيدة في الطرف الآخر من الزقاق.

كان برافو في موقعه. هو مكان يعرفه جيدا من المُتنزّه الكبير. لم يخبر به أحدا، ومنذ أسابيع وشهور وهو يحضر هنا، في كل مرة أمكنه عبور الحدود. بدأ كل شيء مع صورة عثر عليها صدفةً في مجلة مصوّرة بمحطة باصات في مدينة أصحاب هذه الأرض[Les gringos]. حمل المجلة وشرع يتصفّحها وهو قاعدٌ تحت الظل في المُتنزّه. المكان المأمولُ لنسيان كل شيء، الخوف، والغضب، والجوع. ترك بصره يتنقل من صفحة لأخرى، وهو ينظر إلى الفتيات بالمايوهات، يسكنَّ بيوتا بهيّة، والموائدُ فيها مملوءةٌ بأطباق الحلويات والفواكه. وعلى حين غرّة، رأى أمامه، غير بعيد، عند الحيّز المخصص للعب الأطفال؛ رآها. فتاةٌ في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، وإن بقامة كبيرة ورشيقة كامرأة كاملة، وكان شعرها بلون النار، ما لم يره أبدا إلا في المجلات المصورة.

كانت الفتاة ترافق صغيرتين من عمر يقارب خمس سنوات، وهما غاية في السّمرة. لا شك أنها مكلفة بحراستهما إلى نهاية الزوال. نظر برافو إلى الفتاة من غير أن يتحرك، اللهم قلبُه يهتز في صدره من هول جمالها. في لحظة ما، التفتتْ نصف دورة، فثبّتت عينيها الشفافتين، بأزرقهما الشاحب على برافو. هنيهةٌ، فقط، ربما ثانيتان، إنما كأنهما دامتا ساعات.. في الضوء العذب للأشجار، حدقتاها تثقبان بمسمارين أسودين محاراتها الشاحبة وشعرها الأحمر الملفوف يصنع حولها هالة مثيرة.. ثم إنها ابتسمت، هي ابتسامة لطيفة، فكّر برافو، لكنه لم يستجب لها من شدة المفاجأة، بل لأنه فزع.. بقي جامدا، منكفئا عند جذع الشجرة، كهندي أحمر وجهه بأخاديد. كان ينظر إلى الفتاة تعنى بالطفلين وتهدهدهما في الأرجوحة.

قضت وقتا طويلا في المُتنزّه، إلى أن خفَت الضوء، ولاشك حلَّ وقت العشاء لأن برافو شمّ رائحةَ

شواء لحمٍ آتٍ من كل شوّايات البيوت المجاورة. أما هو فلم يحسّ بجوع. كان قد نسيَ كل شيء، نسيَ حتى وقت العودة إلى مخرج المجاري.

والآن، صار يعود إلى المُتنزّه. أحيانا ينتظر إلى المساء، عبثا. من قبل كانت الفتاة ذات الشعر الذهبي تصل أبكر مع الطفلين. تحمل في وجهها الإبتسامة الغريبة ذاتها حين ترى برافو جالسا تحت الأشجار، بينما هو لا يجرؤ على التحدث إليها. هَب، فعل، ماذا عنده سيقول لها؟ إنه هو ذاتُه فأر، على استعداد للعراك، وسكينُه الآليّ في جيب بنطاله. لكن، ما إن يرى الفتاة كأنما يصبح آخر، ولداً بمستقبل زاهر، قادرا أن يمتلك ثيابا زاهيةً جديدة، وعائلةً، وبيتا، وحتى يصيرَ له أطفال، كما نرى في الصور الصّقيلة للمجلات.

ميّز شيبو الحذاء الرياضيّ في واجهة المتجر، بالضبط في مدخل المول. ليس هو (المول) بمعنى الكلمة كالواقع في أطراف المدينة. عبارة عن رواق تجاري، للمكسيكيين الذين يفدون للتسوّق في نهاية الأسبوع. يسمّى الغاليريا. الوقت نهاية الزوال، ولم يبق أحد. خلا بضع مراهقين بسراويل عريضة، يحملون لوحات للتزحلق تحت آباطهم، وبضع فتيات يرتدين قمصانا بأكمام قصيرة تكشف سُرَرَهنّ مثقوبةً بخواتم. لا ينظرن نحو شيبو، فكأنه غير مرئي. هناك في الحي الذي قدِم منه شيبو، ينبغي أخذُ الحذر كل الوقت مع البالغين والأطفال، وحتى الشرطة خطرة. ينبغي البقاء جمعاً. أما هنا، فعالمٌ آخر. كلُّ شيء لا مبالٍ، أكثرُ خفة.

هذا الحذاء هو ما يناسب بينيا بالضبط. ورديٌّ خافتٌ، بنجوم فضية، ونعال بكُريات ومقابضَ بيضاء. بهذا، وحين يصبح الحَمْل ثقيلا في بطنها، لن يوجعها ظهرُها.

يجب الحصول على المقاس المناسب. في الواجهة فردةٌ واحدة فقط، وللتوفر على الثانية يلزم طلب ذلك من البائع، هذا الضخم الذي عينُه على شيبو بارتياب. هنا سيستخدم قطعة الجَد أوغستان من فئة العشرين دولارا.

« ماذا تريد؟»، شيبو الذي لا يتكلم الإنجليزية، ردّ بإظهار أصابع يديه الإثنتين ـ « ثمانية؟ هل هو المقاس الذي تبحث عنه؟». وانصرف البائع يُقلِّب العلب خلف الكونتوار. ستغلق الغاليريا بعد نصف ساعة، وفكّر شيبو أنه سيتأخر عن موعده مع الآخرين. ثم استخفّ بالأمر، من يدري، ربما أصبحوا الآن خلف القضبان.

أخيرا وجد البائع الضخم المقاسَ المطلوب. أخرج الحذاء من العلبة وأظهره لشيبو الذي حرك رأسه تجاوبا. مدّ تشيبو ورقة العشرين المطوية، وفي اللحظة التي أرخى فيها البائع العلبة ليأخذ الورقة

النقدية، خطف شيبو الحذاء، وقفز خارج المتجر يجري بأسرع ما بإمكانه من غير أن يلتفت، يتسلل بين السيارات، يصعد الشارع، ثم في زقاق بلا منفذ. يجري والحذاء يرتطم بفخذه كأنه يرقص.. يجري دون أخذ أيّ نفَس، دون أن يفكر. كانت الشمس قد توارت خلف العمارات العالية لوسط المدينة، والظلُّ ينتشر في الأزقة، فيما السماءُ مشرقةٌ بعد، تعبُرها طائرةٌ ترسل خطا فوسفوريا من عُلوٍّ عشرة آلاف متر. وشيبو يجري أمام المُتنزّه حيث أطفالٌ تأخروا هنا يلعبون البيسبول. يجري بين الأحياء الصامتة حيث الناس أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم وعيونُهم صوب شاشات التلفاز.

بعد المُتنزّه، يوجد الشارع المحفوف بالأشجار، حيث مدخل المجاري. تخيّل شيبو مسبقا المجرى الحارَّ والرطبَ الذي سيلِج وفيه يسبح ضامّا كوعيه إلى جسده، والحذاءُ الثمين مربوط بين أسنانه بخيط المقبض.

ولم يسعفه الوقت، ففي اللحظة التي لمح فيها الفمَ الأسودَ للمجاري، مدخله نحو الحرية، رأى السيارات الثلاث للشرطة الشبيهة بحشرات هائلة، سوداءَ وبيضاء، وغير بعيد، في ظل الأشجار، الشاحنة الشهيرة التي تصطاد المهاجرين السريين. هنا فهم أنه اصطيد كفأر.

***

مصلحة احتجاز المهاجرين غير الشرعيين في المبنى المخصص للهجرة عبارةٌ عن قاعة كبيرة من الإسمنت المسلّح، بدون نوافذ.، مُضاءةٌ بثمانية عشر مصباحاً مستطيلاً من النيون، ينفُخ بداخلها جهاز تكييف بمثل ضخامتها وعلى قدر من الضجيج كمحرّك طائرة. في أقصى ركن من الباب ثمّةَ زاويةٌ ضيقةٌ لمرحاض حوض بدون مدخل. يقاد السجناءُ هنا أيديهم مُكبّلةٌ من خلافٍ بقيود من بلاستيك.. الذين لم يستنطقوا يُحتفظ بهم مقيّدين، معاصمُهم تضيق لدرجة يضطرون معها للمشي وهي مقبوضة إلى الأمام بأذرع مثل طيور غريبة، أسيرة. ثمّة آخرون ينتظرون، جالسين أرضا وظهورُهم إلى الحائط. رجالٌ ونساءٌ وأطفال، شديدو السمرة، نابتو اللحية، ثيابُهم مبقّعة بالغبار، ومنهم من أضاع فردةَ حذاء وهو يحاول الإفلات من قبضة الشرطة. عندما تُلحّ حاجتُهم ينبغي أن يجلسوا فوق الحوض على مرأى من الجميع. إنهم جالسون ورؤوسُهم خفيضة، ولما دخل شيبو إلى القاعة رفعوا كلهم رؤوسهم، لكنهم بالكاد رموه بنظرة ماكرة، متعبة. هم جميعا أشخاصٌ غُفل، نساءً ورجالاً، قُبض عليهم في أزقة نوغاليس أو في محمية الهنود الحمر(بباغوس) بعد مسير ليالٍ في الصحراء. الوحيد الذي عرف شيبو بينهم هو برافو. يجلس أرضا قرب الباب. كان قد استنطُق وما زالت على معصميه آثارُ القيود البلاستيكية، وعلى خده الأيسر أثرُ جرح، تحت العين مباشرة.

أسرع يكلم شيبو، متحكِّما في غضبه:» لقد عنّفوني، وعَضضتُ واحدا منهم». سأله شيبو:» أين قبضوا عليك؟» جاء صوتُه خفيضا، فهناك كاميرا تصور القاعة بعدستها الثابتة، لاشك تحمل ميكرو.» قبضوا عليّ في المنتزه، وأنت؟» ـ « في المدخل» ـ « لقد وشي بنا أحد، وأنا أعرف من هو»ـ « من يكون؟»ـ « من؟» ـ « لا أحد غيره، إنه مانو، هذا الخوَل، إبن السافلة»ـ « أوَجُننت؟ لم يكن معنا أصلا»ـ ظهر أثرُ كراهيةٍ من عينَيْ برافو وهو يحتج:»» وإذن، فقد تلفن، هذا ممكن. أقول لك إنه مانو، وهو مخبرُهم» وحرك قبضته مهددا، سأقتله، قسما».

قبل نزول الليل حضر الشرطي. قاد شيبو إلى المكتب المجاور للقاعة. شخصٌ عالي القامة، خمريُّ اللون، ظاهرُ الطيبة، ما لم يخفّف من ريبة شيبو، مثل هؤلاء عادةً هم الأسوأ.

شرع يستنطقه، يتكلم إسبانيةً لا بأس بها، لكن، ربما بسبب إجراء قانوني، يعيد السؤال بالإنجليزية.

ـ « إسمك؟» سِنّك؟ عنوانُك؟ هل تعيش مع والديك؟».

سجل الإجابات في حاسوب. وفوق مكتبه بجانب الحاسوب زوج الحذاء الوردي المسروق من أجل بينيا. هذه مادة الجناية.

ـ « لماذا سرقت حذاء بناتيا؟|.

ـ كي أهديه لأختي.

ـ ألا يوجد عندكم منه هناك؟

ـ لا نملك مالا، وهي في حاجة إلى حذاء جيد. إنها تنتظر صبيا، وظهرها يوجعها.».

يعرف شيبو ما ينبغي أن يقال لاستدرار العطف، وفعلا أفلح، فإنه توسّم لمعة، لطفا من عيني الشرطي، تُنبي عن ابتسامة في محيّاه الأحمر.

«طيب، طيب، لقد استعدنا الحذاء، وصاحب المحل لن يتقدم بشكاية، فيم ستنفعه؟».

ـ ولكن، لديهم عشرين دولارا لي، قال شيبو شاكيا.

ـ ستتعلم من هذا، أليس أفضل لك من الذهاب إلى الحجز؟!

لزم شيبو الصمت، وهو يفرك معصميه توجعانه، ثم سأل الشرطة:

ـ « وماذا عن برافو؟»

نظر إليه الشرطي لا يفهمه، قبل أن يجيب:

ـ ها، تقصد مارتان، ذلك الفأر الآخر؟».

واختفت الطيبة فجأة من ملامحه، ما دعا شيبو يفكر أنه هو الشرطي الذي عضّه برافو، وهو من تسبّب له في الجرح تحت عينه.

ـ « ذاك، سنحتفظ به بعض الوقت، إنه عنيف. وإن نحن سرّحناه اليوم فهو قادر أن يقتل شخصا ما». فما كان من بيبو إلا أن صادق تماما على هذا الرأي. فكر كذلك أن برافو ربما على صواب، مانو هو من وشَى بهم ليُترك له المجال كي يُشغّل عصابته على كيفه.

إنتهى الإستنطاق، وأخذ الشرطي بصمات شيبو، وانتقل يضع حول معصميه هذه المرة لا الأغلال البلاستيكية الفظيعة التي توقف الدم، ولكن قيودا حديدية، ثقيلة وناعمة.

في الخارج، كان الليل منسدلا. سار شيبو خلف الشرطي إلى شاحنة المُرحّلين. فتح السائق الباب الخلفي. في الداخل توجد العصابة بطاقمها كاملة: إلغاتو، أغيير، يوني، بيتو، لا راتا. بدوا بائسين تماما. إلى جانبهم إمرأتان، شعرُهما منكوش وأبيضُ من أثر غبار الصحراء. دفع السائق بغتة شيبو إلى داخل الشاحنة:» يا لأمهاتكم السافلات، أيّ رائحة مقززة منكم؟». لم تصدر نأمة عن الصبية مع دخول شيبو، فهم عنيدون، مشاكسون، ونظر الشرطي إليه هنيهة وهو صامت، يعلم جيدا أنهم سيعيدون الكَرّة. وهذا بسبب المجاري. مجاري في كل المدينة، كلما تمَّ إغلاقُها من جهة، خرج الصبية من جهة ثانية. إنها حكاية بلا نهاية. ينبغي أن يَسمَنوا، فكر الشرطي، شأن الأولاد الحقيقيين في البلدان الحقيقية، الذين يأكلون المثلجات وشرائح اللحم الطرية، وعندئذ لن يصبح بإمكانهم العبور من الأنابيب. كم هو سهل قول هذا، وتذكّر عبارةً لأحد الأشخاص المجاورين للحدود:» إنني لم أنجبهم، فلماذا عليّ أن أطعمهم؟».

تمضي الشاحنة في أزقة نوغاليس. من الفتحة المسيّجة، ظل شيبو وهو يشرئبّ بعنقه، يرى العلاماتِ الزرقاءَ والحمراءَ، وعناقيد المصابيح، وأشجارَ عيد الميلاد، والنخلاتِ العجيبة. يسمع صخب الموسيقى، الأناشيد، ومحفوظات مناغاة الأطفال، كل هذه اللغة التي لا يفهمها.

في دقائق جرى تسليم الصبية في نقطة الحدود، ليصبحوا في عُهدة الجمركيين، ومنهم لينتشروا بسرعة في الأزقة المكتظة. تفاوضت المرأتان مع الشرطة ثم انطلقتا بدورهما باتجاه محطة الحافلات، تسحبان حقيبتيهما المصنوعتين من القنب.

في القاعة الكبرى إلتصق برافو بالحائط لينام، رغم الضوء الساطع للنيون. إنه ينتظر، يحلم بعينين مفتوحتين بالفتاة ذات الشعر الذهبي، الشبيهة بكائن أسطوري، والتي ستعود غدا إلى المُتنزّه. ربما ستدير نظرها لتبحث جهة الأشجار العالية، وعندئذ لن تجده هناك.

الهوامش:

١ـ يطلق إسم (الغرنغو) في أميركا الجنوبية، على الأمريكيين، وعموما على الأجنبي.

٢ـ لوغانس، مدينة أميركية في ولاية أريزونا، وهي تتاخم المدينة المكسيكيةNogales Sonora على الحدود الأميركية المكسيكية.

١٠ حالات

خالد درويش

نهار عابر

عند الفجر،
على شرفة بيتك في الطابق الثالث،
تحت الدالية التي يتسرّب بين أغصانها شاي القمر،
بين «لا» غرورك و«نعم» رغبتي،
تتألقين كبحيرة في الطريق إلى الصحراء،
وأنا أذوي مثل حصان مطعون.

*

في الصباح،
عندما تتزاحم السيارات في الشارع الضيق
ويركض الناس إلى الأسواق والمشاغل والمواعيد (كأنهم سيعيشون أبدا)
ويتكئ الجبل الكبير على طرف الوادي متجهما حزينا (كأنه سيموت غدا)
آوي إلى مراياي
لأراك فيها.

*

عند العصر

أنا في خُسْر

لأنني لم أهجر كبريائي

وأعمل ما يؤهّلني لدخول جنتك.

*

في المساء

أدخل قاعة السينما وحيدًا

أغادر الصالة قبل نهاية العرض إلى الحانة

أكتفي برشفة واحدة من النبيذ المرّ

وأعود إلى البيت.

أبعثر صورك على البلاط البارد

أحدّق في صورتك التي تضحكين فيها تحت شجرة الكرز

وأنتظر المعجزة.

*

في الليل

أنا وحيدٌ وحزين

مثل مركب مكسور في ميناء بعيد.

لا أزهار في الآنية

ولا كلاب في الزقاق تنبح لتؤنس فراغي.

أنا وحيدٌ وحزين

وممتلئ بالشعور بأن الموت

يمكن أن يبلغني بشكل أسهل.

هناك، عند نهاية العالم..

هناك، عند نهاية العالم

حيث تتحرّر الطيور من خوفها

ويلقي الأطفال زوارقهم الورقية في مياه الغدير،

هناك،

حيث يتخطى النهر ضفافه

ألامس أصابعك

فبلاداً تصير الحجارة،

الفصولُ مواعيد

والأصدقاءُ مرايا.

هناك..

تمطر مسرّاتك الزاهية

على ساعاتنا اليابسة.

قنوط

بين يديك المتعبتين

تعبر ريح الجنوب

وعند عينيك الدامعتين

يطلع قمر أخضر

ليضيء لك الحبّ بمراحله الثلاث:

الأمل، والشغف، والقطيعة.

حنين

على ضفاف النهر القادم من الشمال
تحت شجرة الجوز الحانية
بين وضوح الحنين وعتمة الأماني،
أصغي إلى أغنيتك
المنبعثة من تحت التراب.

لقاء

ألتقيك في أوّل الدّرب التي تعبر البساتين إلى النهر
أحدثك عن المغني الذي أشعلت مواويله سماء الحنين،
عن صديقي الذي اغتاله الجند
في أزقة الظهيرة،
عن رقصة النار في أعالي الجبال،
وعن أولاد المخيم
حين يغسلون ضجر الشتاء بماء المزاريب.
ألتقيك في أوّل الدّرب..
وفي نهاية الدّرب
أحدّث نفسي عنك.

صلاة

أريد أن أصلّي
في المسجد الكبير،
وأن أضيء شمعة

في مذبح الكنيسة،
وأسمع الوصايا
في معبد اليهود.
أريد أن أسامر الخطّاء والعفيف،
وأعشق الفصول كافة؛
الصيف والشتاء والربيع والخريف.
أريد أن أبجّل الرحمن،
أريد أن أهادن الشيطان،
وأن أكون مؤمناً وملحداً في آن.

عُد إلى نفسك!

دروبكَ ضيقة، والمرارات واسعة.
سئمتَ البقاء هنا،
وما من رغبة لديك في العودة إلى هناك،
فاذهب إلى نفسك وآخيها،
عُدْ إلى توأمك العميق فيك،
وتسامرا هناك، قرب الموقد،
حتى مطلع الصباح.

احتلال..

ثلاث سيارات عسكرية مموّهة بالطين وأغصان الزيتون،
تحمل ضابطين وعشرة جنود ببنادق إم ١٦
وقنابل وسكاكين وخريطة معقدة،

تسير على الطريق الترابي بحزم وحذر
لاحتلال بيتٍ من الصفيح على طرف المدينة
تسكنه عائلةٌ مكوّنة من خمسة أفراد؛
الأب يتصفح مجلة فنيّة عتيقة قرب مدفأة الحطب،
الأم تضع في المطبخ بعض الزيتون والجبنة والزعتر
ومربى السفرجل والشاي بالميرمية على طبق العشاء،
صبيٌّ مهموم بالتحضير لامتحان الرياضيات في اليوم التالي،
مراهقةٌ تعبث بمفاتيح المذياع بحثاً عن أغنية عاطفية
وطفلٌ ينام في طرف الغرفة على سرير من جريد النخيل.

صغيرا/ كبيرا

صغيراً
أرفع يدي لأقطف الزهرة،
كبيراً
أنحني لأريجها
صغيراً
أضيع في المدينة،
كبيراً
تضيع المدينة فيّ
صغيراً
أفتح عينيّ على الحياة،
كبيراً
على الموت.

الولد الذي كنتُ

ليلاً،

يجيؤني الولد الذي كنتُ

يحملُ على كفّه المخيم/ وردة

توشك على الانفجار.

ليلاً،

تجيؤني عصافير الجنة

كيّ تلتهم روحي.

الباشا لا يموت

سعد القرش

أنصت «وحيد» إلى المهرج. رأى الموائد تخلو، وينهضون ويتحولون إلى فراشات تتراقص، والأضواء تخبو، ويحتجب الناس على البعد. وخزه البرد، وجف ريقه. لم يجرؤ على رفع قُلّة بها بعض ماء إلى فمه، وظل يحتضنها مع البندقية، وعجز عن الهرب خوفا، ومن الإعياء لم يتألم من حوافر ظنها لعدة جياد تروح وتجيء. وحين انسحب الظلام، بعد الفجر، كان حبل ينسحب من فوق ربلته. هم بثني ركبته، وتأكد له أنها حية تسعى. خاف أن يخيفها إذا حرك ساقه فتنهشه، وقرأ الشهادتين، وهو في سجود اضطراري، تلاه نوم عميق.

لسعته شمس الضحى. بحث عن البندقية، ورأى فم قلة الماء مدفونا في الرمال، وقد ارتوت بالماء نبتة صحراوية، واستقام عودها. قدر أن أحد رجال الباشا سرق البندقية ليبيعها، وتركه نائما رحمة به، إذ علم أنه لا محالة ميت. ابتسم وسأل نفسه عما إذا كان قد أطلق رصاصة بالفعل، وهل مات الباشا فخلت الساحة فجأة، أو أخليت من الضيوف والحضور؟ وكيف لم تنكسر قلة الماء، حين دكت جسده حوافر الفرس؟

كان محموما. لم يقو على حمل أسماله، ولعله لم يرها. حدثته نفسه أن يترك صرة الملابس فهي لا تخصه، وسوف تنمو النبتة حولها، وتسترها عن أعين الحرس واللصوص، إلى أن يهتدي إليها الشيخ إبراهيم، وناداه ولم يجبه، وردد الخلاء والتباب القريبة نداءه، وهو يصرخ في الشيخ إبراهيم أن يعود، وألا يتركه وحيدا ويتيما. كان الرجل يميل إلى ماء القناة، ويبسط منديلا ويقف فوقه، ويتجه إلى الضفة الأخرى، إلى سيناء.

سار وحيد على غير هدى. خاض في المياه المالحة، وقبل الخروج منها أحس بالملح يؤلم الجروح. استند إلى صخرة، والتقطت أصابعه بعضا من الدماء النازفة، تذوقها وكانت أكثر ملوحة من عرقه،

وتجرعها ليروي ظمأه، ونهض مواصلا السير، غير واع بالطريق.

آلمته قدماه. لم يعد ملح البحيرات قادرا على أن يكتم الدماء. خلع جلبابه وقطعه بأسنانه، وربط قدميه، ثم خاض في مياه، تليها رمال، بعدها مياه خرج منها بقدمين أكثر ألما، وقد سقطت عنهما الأربطة. شق قميصه من الأمام، وجعله خفا لقدميه، وتجنب السير في البحيرات. كانت الشواطئ التي انحسرت عنها المياه تحتفظ بملوحة أكلت القميص. لم يع وحيد أنه أصبح عاريا حين نزع لباسه، وارتداه حذاء، غير مبال بأحد، حتى انغرست قدمه في أرض رخوة.

نظر إلى السماء، وكظم غيظه. ابتلع ريقه، وجذب قدمه بيديه، فغاصت قدمه الأخرى. ضحك غير مصدق، وفتح عينيه على رحلة امتدت سنوات، وطالت كثيرا، أكثر مما يظن، وأقسى مما يحتمل. خايله طيف أبيه في صحبة الشيخ إبراهيم، وقد أوسع لأبيه مكانا فوق المنديل، وحين هم أبوه «يحيى» بالوقوف إلى جوار الشيخ أشار إليه أن «اخلع نعليك». كانا قريبين منه، فكيف لا يسمعان استغاثته؟ لعنهما وسقط ولم يشعر بألم الارتطام، ولا سمع اصطكاك الجسد بالأرض إلا صبي.

وقف الصبي يلهث. كان قد استعجل كلبا طارد ذئبا حام حول الغنم، ورأى الكلب يتلكأ، ويتشمم نتوءا. أزعج الصبي أن يرى ميتا. لم يجرؤ على العودة مع أبيه بل أشار إلى حيث توجد جثة الشاب، في مكان انحسرت عنه مياه البحيرات.

الأب لم يتحسس الجسد العاري. لاحظ آثار رغاوى كأنها خيط يرتفع عن الأرض بمقدار قبضة يد، ورجح أن أحدا قتل الشاب، وألقاه في المياه الضحلة، فلم تسحبه، أو أنه أغمي عليه، ومات غرقا قبل أيام، إذ جفت المياه حول الجسد الغائص قليلا.

خيل إلى الرجل أنه سمع استغاثة. كان قد استدار، وفكر في أن يعلن العثور على جثة، أو يدفعها نحو المياه، إكراما للميت، بدل أن تنتبه الكلاب وتتداعى على الجثة. ثم التفت الرجل إلى جثة الشاب، وقد صارت الاستغاثة آهة، والدماء تنساب في العروق، وتتدفق إلى الأطراف. دار حول الجسد النحيل النائم على جانبه الأيمن، فإذا به لشاب يحتفظ وجهه ببقايا زبد كأنه لايزال يسيل من جانب فمه، وعضوه يستطيل ليصل إلى الرمال، ويخترق طبقة هشة من آثار المياه، وظله يرتعش.

ابتسم الشاب. كان مغمض العينين، ويلفظ في تحد كلاما فهم منه الرجل أنه يلعن الباشا وجميع الأوروباويين، وأقسم أن ينتقم لأبيه وللشيخ إبراهيم، وألا يرحم الباشا، بل سيترك في دبره علامة ما دام قد عجز عن اصطياده.

انتفض الشاب. ثم هدأ، والرجل يخاطب ربه: «سبحانك، تحيي العظام وهي رميم».

كان جسد وحيد متوردا، تكسوه حبات من عرق.

***

أسند وحيد ذراعه إلى حشية من الخيش. قال له الرجل في حضرة ابنه الصبي إنه قرر أن يبيعه، فاعتدل وحيد، واستقام ظهره، ونهض فجأة، وصفق الباب بحنق. حذر الصبي أباه أن الشاب سيهرب، والرجل هز رأسه بثقة. قال إنه أكثر جبنا من مواجهة ظلام ليل طوبة، في خلاء سيبتلعه، وربما ينهشه ذئب، وإذا تأكد له أنه سيهرب فعلا، فسوف يرسل وراءه كلبا يعيده أو يقتله.

رجع وحيد منكسرا. تابع الرجل بهدوء أنه أنفق عليه أكثر من شهر طعاما وشرابا، وكسا عظامه لحما، ولحمه ثيابا، واحتمل أن يبلغ عنه أي واش أنه يأوي الأثيم الهارب، ولولا رحمة الله بالعباد ورب البلاد، لأصابت الرصاصة الباشا، أو أيا من ضيوفه. من المؤكد أنهم سيكافئونه على إنقاذ الإسماعيلية ومصر المحروسة من المجرم إذا سلمه إلى أولي الأمر.

رد وحيد ساخرا:

ـ ادخرتني، وسمنتني كخروف العيد، لتبيعني بأضعاف مضاعفة؟

أجاب الرجل عن السؤال بسؤال آخر:

ـ ومن يشتري عبدا تنزف قدمه، ولا يضمن أن يعيش حتى مطلع الفجر؟

انتفض وحيد:

ـ عبد؟ حفيد عامر وعمران يباع في الأسواق؟

انفجر الرجل ضاحكا:

ـ وحياتك ما تقلق!

وأتبع ساخرا:

ـ إن كان لك حياة.

ثم قال، وأسنان وحيد تصطك من الخوف كأنه غائب عن الرجل:

ـ ما يرضينا أن نبيعك في الأسواق، هنا يكون البيع.

تساءل وحيد كأنه لم يسمع:

ـ عبد؟ لو أبلغت عني من شهر لكان أكرم لي، وأهون على نفسي.

أجابه جادا:

ـ ومن كان سيصدق أن لشاب هزيل، لا يصمد جسده أمام هبة رياح، علاقة بمحاولة قتل أفندينا؟

قبل وحيد يده. تعمد ألا ينحني، جثا وتناول يد الرجل، رفعها وقبلها. لامته كبرياؤه، وهو عاندها، وقال بوهن:

ـ أنت رجل صالح، وظني أنك حافظ كتاب الله.

أتبع مشيرا إلى الصبي:

ـ حلفتك بابنك الغالي، ما تبيعني ولو بمال قارون، وأعاهدك على البقاء معك، والعمل عندك، حتى أوفي الدين بأكثر مما تنال من بيعي.

خزي الرجل من نفسه. أدهشه منطق الشاب، وأحصى ما أنفق عليه حتى أتم الله شفاءه. كاد يعتق رقبته بكلمة، يعلن أنه حر لوجه الله، ولا تراجع عن ذلك. ثم رجح أن بقاءه شهرا أو عدة أشهر لم يعد خطرا، إذ نسي الناس حكاية الاعتداء على الباشا، وهي موجودة في رأس الشاب وحده، وليس من الحكمة أن يكون أفندينا مشغولا بهذا الأمر، وهو ظافر بمحبة الأكابر من الملوك والأمراء والوجهاء.

اعتذر إليه وحيد. أسف على ما سببه من حرج وإحساس بالخطر، وسأله:

ـ متى سمعت لآخر مرة بمن يفتشون عمن حاول قتل أفندينا؟

صمت الرجل. هل يعترف بأنه لم يسمع بهؤلاء الباحثين عن المجرم؟ لا اليوم ولا حين غادر الباشا وضيوفه، إلى الجنوب نحو السويس، في اليوم التالي للاحتفال بافتتاح قناة السويس، وانصرف الناس إلى مدنهم وقراهم البعيدة، وأطفئت الأنوار المحيطة بالقصر في الإسماعيلية، وفي الطريق الواصل إلى القناة. كاد الرجل يصارح وحيد بأن هذا الوسواس يخصه، ولعله اخترعه وهو محموم، ثم صدقه.

لم يجب الرجل عن سؤال وحيد. رفع إصبعه إلى شفتيه محذرا إياه أن يردد هذا الكلام، وسأله إلى أين يذهب إذا أعتقه بعد شهر أو شهرين؟

أجاب وحيد بفرح النجاة من الأسر:

ـ مصر المحروسة طبعا.

ـ عارف السكة؟

ـ لا .

اقترح عليه أن يرسله إلى تجار في الإسماعيلية. قال إنهم سيذهبون ببضاعة إلى مصر المحروسة، ولم

يأمن وحيد مكر الرجل، ربما يبيعه إليهم ولا يخبره، ولم يطمئن كذلك إلى رجال لا يعرفهم، هم في نهاية الأمر تجار غايتهم الربح، ولو باعوا نفسا بغير حق، في الطريق.

قرأ الرجل قلقه. لم ينتظر منه إجابة، وسأله:

ـ عندك حل؟

ـ ابقني عندك شهرا آخر، فوق ما تريدني أن أبقى، واعطني أجرتي، وبالمال أشتري مطية، وأحفظ كرامتي.

أعجبه الرد. ود لو أن له ابنا يمتلك صفات وحيد. قبل جبينه، وهنأه:

ـ ابن ناس يا وحيد، والكريم لا يهان.

***

على مشارف مصر المحروسة، بدت القلعة بقبابها ومآذنها نقطة صغيرة في فراغ. وضع وحيد بعض البرسيم للحمار، وشكره على احتماله، ولم يربطه إلى وتد، إذ كان متعبا لدرجة لا تسمح له بأن يشرد، ثم إلى أين يذهب حمار مطيع في مدينة لا يعرف طرقها.

أسند وحيد رأسه إلى جدار. بعد قليل، سرى في أوصاله خدر الإرهاق. مدد جسده، وطوى ذراعه وسادة لرأسه المثقل.

من الغيطان القريبة، كان طنين النحل يأتيه متناغما، وهو يتنقل بين نوار البرسيم، وينتشي من رائحة ورد يتفتح في حدائق متناثرة. انبسط وجهه، ونسي شقاءه، ومهانة أبيه في حفر القناة، وإشرافه على الموت قبل أن ينقذه الصبي. قال لربه: «ما رأيت في الدنيا إلا النعيم، وأستحلفك بوجهك الكريم أن أرى أمي». ردد وحيد: «يا أم، أنا هنا يا أم»، حتى إن فلاحا يعمل في الحديقة أيقظه، إشفاقا عليه مما ظنه كابوسا.

قدم إليه غداء. من الجوع، أكله وحيد بنهم، ونسي أن يشكر الفلاح الكريم. تساءل وحيد وهو يبتسم: «إذا كان الحلم هو الجنة، فكيف أهبط منها جائعا، وقد شكرت الله، وقلت له إنني لم أر في حياتي شقاء، وهو يعلم ما تخفي الأنفس؟ كيف لا أرى وجه أمي مرتين في الجنة؟».

أنعشه هواء شهر برمودة. أتى على الطعام كله، وسأله الفلاح:

ـ أنت بخير يا ابني؟

ـ الحمد لله.

ـ أنت وحيد؟

فاجأه السؤال الواثق، فسأله:

ـ أنت عارفني؟

ـ طبعا، أنت ...

لم يمهله وحيد. قاطعه وهو مطمئن، ظنه أحد الناجين من جحيم قناة السويس، نجا هربا، أو بنهاية الحفر. سأله:

ـ وتعرف والدي؟

هز الفلاح رأسه بالنفي. أكمل إجابته عن السؤال الأول:

ـ أعرفك طبعا يا أخي، أنت عابر سبيل، وأسألك: أنت وحيد، أم لك عائلة؟

زفر وحيد أساه. كانت نفثة مصدور، أعمق من قناة أزهقت روح أبيه، وأطول من عشرات السنين. استرجع السؤال: «أنت وحيد، أم لك عائلة؟». أغمض عينيه، وتساءل: «عائلة؟». لم يوجه السؤال للرجل، ولا لنفسه. قدر لو أن جده عامر قد حافظ على تركة جده الحاج عمران، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا ينصلح حال «أوزير» إلا بها، ثم لام أباه، لأنه تخاذل، مرة حين ترك شقيقه إدريس يواجه العاصفة وحيدا، وأخرى وهو يعلق مصيره بالقدر، متواكلا رافضا نصيحة أبيه، بالنجاة مع إدريس الذي آمن بأن أرض الله واسعة، وغادر إلى مصر المحروسة ليلة الحريق.

حسبه الرجل مخبولا. كان وحيد ذاهلا، يغمض عينيه حتى يرى، أو يفتحهما ويحرك شفتيه بكلام لا يسمعه الرجل. قال وحيد إنه ابن عائلة منذورة لنبوءة لا ترحم، وقد أتعبها تكرار الهلاك، حتى أتى الله على أوزير بحريق لم يبق حجرا على حجر، وإن له في هذه المدينة عما اسمه إدريس، وعمة اسمها عائشة، ولهما أولاد، ولعل لهما الآن أحفادا. سأله عما إذا كان يعرف عمه إدريس، المقيم بجوار سيدنا الحسين، كما أخبره أبوه.

كاد الفلاح يضحك. ما أكثر الذين يحملون اسم إدريس وغير إدريس في حي الحسين، ولن ينفعه أن يصعد مئذنة الجامع خمس مرات في اليوم وينادي عمه. صارحه بأن مصر المحروسة أكبر من خياله عنها.

اسود وجه الشاب. لم يعد يملك شيئا، حتى إذا باع الحمار فماذا يفعل بثمنه؟ وكم سيغنيه عن سؤال الناس؟ ولا يعرف الطريق إلى أوزير، ولا يريد العودة إليها مهانا غريبا، ومن الأكرم له أن تضيع ملامحه في زحام مصر المحروسة، ولن يعايره أحد بفقر، أو يهتم بأمره، فيلاحقه بالأسئلة.

أدرك الرجل حزنه الجليل. لم يشأ أن يقفز في رأس وحيد، مستغلا انكسار روحه، وضعف أمله، فيجبره على البوح بما لا يريد. تأمله وحيد، ورآه محدودبا بعض الشيء، ونسي حاله، وهم بسؤاله كيف تحدب ظهره وهو لا يحمل أثقالا، ولعله لم يعمل في حفر القناة، ولا ذهب إلى الإسماعيلية.

استقام ظهر الفلاح، وهو يأتي بمقطف من الخوص. ملأه بالحجارة، وأمره بحمله. رفعه الشاب بمهارة خبير، وقال إنه أخف من أثقال حملها سنين عددا. سر الرجل فحكى ما قرأه في كتاب قديم، وقال: إن سليمان الحكيم عذب الجن ببناء عرشه، وذهب شيوخ الجن إلى إبليس يشتكون إليه، فحثهم على الصبر، ولو كان مؤمنا لقال لهم: «احمدوا الله واشكروا فضله»، لأن سليمان يجعلهم يعملون ليلا، ويستريحون نهارا. علم سليمان فأمرهم بحمل الأثقال ليلا ونهارا. وتسلل بعض شيوخهم إلى إبليس عاتبين، وهو دعاهم إلى أن يشكروا فضل الله عليهم؛ إذ يذهبون بالأثقال ويعودون بالمقاطف فارغة، وفي هذا راحة توجب عليهم أن يحمدوا الله عليها. أحيط سليمان علما، ففرض عليهم حمل الأثقال جيئة وذهابا، ليلا ونهارا. وكادت الجن تكفر بالله، وهي كافرة أصلا يا بني، وإلا أعفاها سليمان ورحمها. وحين ذهبت الجن إلى إبليس، وأبلغته أن الجبار ضاعف لها العذاب بسبب مشورته، تبسم إبليس قائلا: «أبشركم بالفرج»، ومات سليمان.

تساءل وحيد:

ـ الباشا مات؟

فاجأه السؤال، فقال بمرارة:

ـ الباشا لا يموت، يروح فينهض بعده باشا جديد. سليمان الحكيم هو الذي مات.

ـ مات في الحكاية.

ـ وهل أنت عفريت من الجن؟

ـ أنا وحيد.

ـ الوحيد يتحلى بالصبر، ويأكل خبز الأمل.

كظم وحيد غيظه، وقدر الرجل حاله.

ـ إذا ضاقت بك الدنيا، فالمخرج قريب.

ـ وكيف أعثر على عمي إدريس.

ـ قف عند الجامع الأزهر، أو اقرأ الفاتحة في حضرة سيدنا الحسين، واستجب لنداء بصيرتك.

كتب وتقارير

إسماعيل فهد إسماعيل وناجي العلي وحنظلة

بديعة زيدان

في روايته الأخيرة «على عُهدة حنظلة»، الصادرة عن دار العين للنشر، يبدع الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل، في نسج خيالات تكاد تكون واقعية لقدرته الفائقة على ضبط إيقاع الشخصيات، وتصويرها، وتحريكها، والتنقل ما بين الواقع والمتخيل بسلاسة لا تخلو من عمق، في حوارات ما بين رسام الكاريكاتير الفلسطيني الشهيد ناجي العلي و»مخلوقه» الطفل «حنظلة»، في سرد محكم، ورائع، وممتع، وموجع.

ومع انتهاء قراءة الصفحة الأخيرة من الرواية، تشعر كقارئ أن ناجي العلي اغتيل للتو .. تشعر بالفقدان، وبأن صغيره «حنظلة» تيّتم الآن، فلم «يدارِ حنظلة نبرة الحزن من صوته».

وتدور أحداث الرواية في «غرفة الإنعاش» بأحد مستشفيات العاصمة البريطانية لندن، عقب إطلاق النار على ناجي العلي من مسافة قريبة، حيث كان يعيش حالة أقرب إلى الموت السريري، بقيت فيها أجهزة جسده على قيد العمل لقرابة الشهر بمساعدة العديد من المعدات الطبية الموصولة بها.

وفي هذه الأيام، وبسبب صداقته القوية وقربه من ناجي، حيث عملا سوياً في الصحافة الكويتة، ينسج إسماعيل فهد إسماعيل، أحد المطلعين على ولادة «حنظلة» عن قرب، وعلاقة الأب بالابن، حوارات بينهما، حيث يحاول الطفل الذي يدير ظهره إلى العالم، ويدير في هذه الرواية الحوار، حث من خطه ذات يوم على النجاة، ليبقى كل منهما حيّاً.

يربط الروائي الحالات التي يمر بها العلي أثناء غيبوبته بالأبيض والرمادي والأسود، ففي البياض يكون الدماغ أقرب إلى الاستيقاظ حيث يسمع ما يدور حوله، وأحاديث زواره من العائلة وخارجها، وفي السواد يغيب تماماً عن إدراك أي شيء مما يجري، في حين المنطقة الرمادية بطبيعة الحال هي بين هذه الحالة وتلك.

من الشخصيات المحورية في الرواية علاوة على ناجي العلي و»حنظلة»، تلك الصبية الكويتية المدعوة «حنين»، والتي كانت تحضر معها إلى حيث يرقد العلي، رواية «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» لإميل حبيبي، وتقرأ فصولها عليه، كما كانت تعيد نبش ذاكرتهما المشتركة في الكويت، دون إيضاح من هي «حنين»، وما إذا كانت شخصية حقيقية أو متخيلة، أو أراد منها إسماعيل فهد إسماعيل التورية على شخصية أخرى، لا سيما أنها لم تفارقه أبداً حتى لحظة وفاته، حتى إن ناجي و»حنظلة» يتبادلان الحديث عنها، وينتظر كل منهما قدومها إلى حيث كانا، في ساعات متأخرة من الليل كعادتها، حيث تقضي تلك الساعات بجواره حتى الفجر، وكأنها تريد أن تذكره بشيء من علاقة ما كانت تربطها وإياه.

وكانت «حنين» تدرك جيداً أن «المتشائل» لحبيبي من أقرب الكتب إلى قلب ناجي، لذا كانت تقرأ فصولاً من الكتاب أو الرواية، لعلها تحدث معجزة ما، ويستفيق.

والحوارات ما بين العلي و»حنظلة» تعيد سرد سيرة الخروج متعددة الأبعاد في حياة رسام الكاريكاتير الفلسطيني الأشهر، حيث النكبة والخروج من «الشجرة»، ومن ثم الخروج من مخيم «عين الحلوة» بعد اجتياح قوات الاحتلال الإسرائيلي لبيروت، فالخروج من الكويت، وتحديداً من شقته في منطقة «النقرة»، إلى لندن، وما يرافق كل خروج من ذكريات. وهنا يقدم إسماعيل فهد إسماعيل حكايات غير مسبوقة في سيرة ناجي العلي، وكأنها كشف جديد، وإن كان ملتبساً ومتلبساً ثوب رواية تحمل من الخيال ما تحمله من الوقائع.

ولا يخلو الحوار من رعب «حنظلة» إزاء فكرة رحيل صانعه، وهو ما تجلى في تلك الحوارية بينهما ... «سألته ما المصير الذي ينتظرك لو أني فارقت الحياة نهائياً. فجعني رده. سأكون حبراً على ورق. استطرد متسائلاً بحس الإدانة. لست أفهم ما الذي يدعوك لأن تتحدث بصفتك حالة ميؤوساً منها. ألست كذلك؟. أجاب مناشداً. لو كنت كذلك حقيقة لما أبقوك مربوطاً لأجهزتهم. أحسستني أستجيب لمناشدته، قلت له: سأبذل جهدي أن لا أسلم لليأس. دبت حيويته في صوته. هذا ناجي الذي أعرفه».

وقال حنظلة لناجي ذات حوار «رغم كونك لم تفكر يوماً بكتابة وصيتك .. كنت طوال زمنك تدرك أنك معرض للإغتيال، وأنها مسألة وقت لا غير (...) لهذا السبب جاء إنتاجك غزيراً مقارنة برسامين آخرين .. طمحت لأن تقول كل شيء قبل فوات الفرصة (...) في العديد من لوحاتك أشرت إلى احتمال تعرضك للقتل، وأشرت إلى لا مبالاتك تجاه ذلك، معتمداً مقولتك: قل كلمتك وأمضي .. ولا يعنيك إلى أين».

ومن بين الشخصيات التي عايشها ناجي العلي في واقعه، إضافة إلى زوجته وداد، أصدقاؤه الكويتيون مثل أحمد الجار الله، وغانم النجار، وأحمد الربعي، حيث كانوا من بين زواره في «غرفة الإنعاش»، كحال مبعوث الرئيس الشهيد «أبو عمّار»، والفنان نور الشريف الذي كان يعد عملاً سينمائياً يجسد شخصية ناجي العلي، وظهر في وقت لاحق فعلاً.

وكانت وداد تواظب على زيارته في «غرفة الإنعاش» كل صباح، وتحكي له أخبار أولادهما الأربعة، لشعورها بأن مثل هذه الحكايات عمن يعشق قد تكون حافزاً له كي يستفيق، كما كانت تنقل له تحيات أصدقائه، وتخبره بأخبار فلسطين والعالم، وكأنها جسر الوصل ما بينه وبين من وما حوله.

درويش وحبيبي

وحضرت في الرواية بوضوح مقولات وأشعار للشاعر الكبير محمود درويش، والتي كانت كأنها روابط وفواصل في آن، وهي تلك التي يتحدث فيها درويش عن ناجي .. ومنها «أن تكتب ٤٠٠ كلمة عن ناجي العلي معناه أن تكونه .. تكون هذا السر الذي يفضح نفسه يومياً ويبقى سراً .. وحده يستطيع أن يقطر، فيدمّر ويفجّر .. لا يشبه أحداً، لكنه يشبه قلوب الملايين لأنه بسيط ومعجزة كرغيف خبز .. لا أستطيع أن ألتقطه كما يلتقطني .. ما أفعله الآن هو النظر إلى ملامح وجهي في حبره الأسود الرخيص، إنه مفجع وسهل كنهار جميل يشهد مذبحة».

أما حضور إميل حبيبي الطاغي أيضاً، فلم يكن عبر «المتشائل» التي كانت ترويها «حنين» بلسانها على مقربة من ناجي العلي في أيامه الأخيرة داخل «غرفة الإنعاش»، بل إنه، كما في الرواية، ويبدو ذلك كشفاً، أرسل حبيبي ما يشبه المخطوط داخل مغلف له وهو محاط بأسلاك المعدات الطبية، قرأته «حنين» الكويتية أيضاً، وكان شيئاً غير «المتشائل».

هذا علاوة على حكاياته معه، وما كان أرسله له حبيبي من بلغاريا إلى «السفير» في بيروت، ونقله له رئيس التحرير طلال سلمان، بل إن سيرة حبيبي حضرت في الرواية أيضاً خلال الحديث عن لقاءاتهما في «ركن منزو في مقهى فندق فيتوشا بصوفيا»، هو الذي أبلغ ناجي قائلاً «ناسك في الداخل يعدونك قديساً مجنوناً .. كثيراً ما تساءلت وأنا أتابع رسوماتك: من أين يأتي هذا المجرم المتهور أحياناً بأفكاره المذهلة .. أتخيلك وأنت تواجه ورقك الأبيض تنظر في البعيد لدقائق معدودة، فإن خذلتك مخيلتك، دسست يدك في جيبك وطلعت بفكرة غريبة لا تخطر ببال أحد».

وكان من الذكاء بمكان، أن يتجه إسماعيل فهد إسماعيل لكتابة ناجي العلي روائياً، كي يبقى القارئ ملتبساً عن قصد، وكأنه أراد أن يقول ما لا يمكن إدراجه في دائرة اليقين وهو يسرد سيرته الشخصية

لا سيما في الكويت، وهذا ما تجلى عبر شخصية «حنين»، كما أشرت سابقاً.

في هذه الرواية يشعر القارئ بقشعريرة ما، لا تحملها الكثير من الروايات، وهذا يعكس حالة القرب الكبيرة ما بين ناجي العلي وصاحب الرواية، حيث تطفو على السطح مشاعر الفقدان، والحنين، كما هي الدهشة والفاجعة والكشف أيضاً.

حول ناجي والرواية

وقال إسماعيل فهد إسماعيل في ندوة بالكويت حول الرواية وعلاقته بناجي العلي، مؤخراً، حصلت «أوراق فلسطينية» على تسجيل صوتي لها: تربطني بناجي العلي علاقة بدأت منذ ستينات القرن الماضي، وكان لا يكاد يمرّ أسبوع إلا ونلتقي، حيث كان عضواً فعالاً في أحد التجمعات الثقافية في الكويت أواخر الستينات وكنت في ذات التجمع وآخرون من كويتيين وعرب، وكان في ذلك الوقت يرسم للمجلات التي يشرف عليها غسان كنفاني كالحرية ومن بعدها الهدف، لافتاً إلى أن «حنظلة» ولد للمرة الأولى في جريدة «السياسة» الكويتية.

ووصف إسماعيل صديقه الفلسطيني بـ»المشاكس، والمحارب، والعصبي، والانفعالي، والصدامي، وفي ذات الوقت فهو نقي، ونظيف، وإذا أخطأ سرعان ما يعترف بخطئه ويعتذر، لكنه كان يدافع عن رأيه بشدة، وليس من السهل أن يتنازل، وهو ما تسبب له بعداوات كثيرة حتى ممن يحملون ذات الفكر الذي كان يحمله .. كان محسوباً على «فتح» ثم على «الديمقراطية» وبعدها بات محسوباً على نفسه، خاصة أنه لم يبق على أحد من السياسيين إلا وهجاه برسوماته، إلا ما ندر».

وشدد الروائي الكويتي: حدث الاغتيال، وكانت الخسارة كبيرة جداً بالنسبة لي، لكونه كان من أصدقائي المقرّبين للغاية، حيث سادت بيننا علاقة تتسم بالقرب على الصعيدين الفكري والروحي، فالكتابة عنه فيها شيء من الوفاء.

عن حنين واستعصاء الكتابة

وعن شخصية حنين في رواية «على عهدة حنظلة»، كشف إسماعيل فهد إسماعيل: كنت أعرف هذه الشخصية، وهي كويتية وكانت تتعاطى الصحافة، وأعلم أنها لازمت الشهيد ناجي العلي طوال فترة مكوثه في المستشفى لحين وفاته، من التاسعة مساء وحتى الفجر .. زوجة ناجي العلي وأسرته يعرفونها أيضاً، لكنهم لا يعرفون طبيعة العلاقة القريبة بينهما كأصدقاء .. استطعت بعد

التواصل معها لأشهر إقناعها بالبوح، وانقطعنا عن العالم لمدة أسبوع في شقة، وحكت لي حول دقائق حياة ناجي خاصة في لندن، أي في السنوات التي كان بعيداً فيها عني، وبدأت الكتابة فكان الفصل الأول، قبل أن أبتعد عن الرواية لظروف خاصة، لكنها ظلت تشدني بين آن وآخر إليها .. حاولت مرة واثنتين وثلاث وأربع لكن استعصت عليّ كتابتها، لأنني أريد أن أكتب عن ناجي، ولا أريد أن أتعرض لحياته الشخصية، ولا لمواقفه السياسية بشكل صريح، إضافة إلى حساسيات أخرى فلسطينية وعائلية، فكنت كلما يستدعيني العمل سرعان ما يطردني عنه.

وأضاف: حين كنت أعمل على رواية «العنقاء» وجدت متنفساً بأن أوجدت مساحة لناجي في العمل، ولم يكن هذا الدور مقحماً بل حقيقياً .. بعد سلسلة من الروايات، شعرت بأنني بت أملك من الأدوات ما يؤهلني لكتابة الرواية، فعدت إلى الفصل الذي كتبته أواخر العام ١٩٨٨ وأوائل العام ١٩٨٩، وحينها بحثت في تفاصيل عدة حول الموت السريري، وساعدتني كثيراً كاتبة القصة هدى القاطع فيما يتعلق بتوفير العديد من المراجع، لهذا أهديتها الرواية.

ما بين الواقع والتخييل

وحول الواقع والتخييل في الرواية، أشار إسماعيل إلى أنه «طوال السنوات التي فكرت فيها حقيقة بكتابة الرواية، واستمرت لثلاثين سنة، لم يكن في بالي أن يكون حنظلة شخصية تنطق وتفكر وتناقش داخل العمل الروائي، وهذا يجعل في الرواية جانباً فانتازياً، لكون حنظلة هو توقيع ناجي العلي، لكني حملته شيئاً من شخصية ناجي، وجعلته انعكاساً له كي أجد مبرراً لحوار درامي يمتد هنا وهناك في الرواية، بالإضافة إلى دور الراوي العليم المتواري، أو الراوي الضمني، وما عداه كافة الشخصيات واقعية بلا استثناء، كما الوقائع، فحتى حادثة تناول «المربين» ما بين ناجي وحنين بحضور غانم النجار في لندن حقيقية، وكذلك ما يتعلق بتسفير ناجي من الكويت وكون أن صقر وأحمد الربعي كانا في وداعه بالمطار، كما أن كثيرين منا يعرفون طبيعة العلاقة ما بين المشاكسين المبدعين اميل حبيبي وناجي العلي.

اميل حبيبي برأيي أفضل من عبر عن القضية الفلسطينية، وفلسطينيي الداخل بشكل خاص، هؤلاء الذين يعيشون المعاناة اليومية لكونهم على تماس يومي ومباشر مع سياسات الاحتلال، على عكس من هم في الخارج دون التقليل من نضالاتهم، كما أن اميل فلسطيني عربي مسيحي أجبر على حمل الجنسية الإسرائيلية، وبقي مشاكساً للاحتلال، فكان مختاراً للقدس ثم عضواً في الكنيست، ومنع من السفر، وكان لي الحظ بأن ألتقيت به لأكثر من مرة، وهو عبقري بكل ما تحمله الكلمة، فيكفيه

«المتشائل»، وإن كنت أعتبر «سرايا بنت الغول» أفضل عمل روائي عربي كتب حتى الآن، حتى أنني قرأته كثيراً، وضمنت مقاطع منه كما «المتشائل» في رواية «على عهدة حنظلة».

فيلم ناجي العلي

وكشف إسماعيل: أحد الأسباب التي جعلتني أشعر بأنني أفرغت من رغبة الكتابة عن ناجي العلي في حينه، السيناريو الذي أعده بشير الديك لفيلم يحمل اسم ناجي العلي، فقد أرسله لي للاطلاع عليه، وإضافة لمسات هنا وهناك فيما يتعلق بفترة إقامة ناجي بالكويت .. اطلاعي على السيناريو الذي كتبه بشير الديك وهو صديق لناجي العلي كما هو حال نور الشريف قلل شغفي للكتابة لما وجدته من سيناريو ناجز لعمل كان يعد قبل استشهاد ناجي، وخرج بعد اغتياله .. كان لي شرف الاطلاع على السيناريو قبل التنفيذ.

تقديم

وكان الروائي المصري إبراهيم فرغلي قدم ندوة الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل حول رواية «على عهدة حنظلة» بالقول: بالأمس كنت أتحدث مع الدكتور سليمان العسكري بمناسبة هذه الندوة عن ناجي العلي، قال لي أنه أيقونة كبيرة، فقلت له أن ناجي العلي يُستعاد الآن بشكل كبير جدا، فقال لي، هو لم يمت أصلا.

وأضاف: كان هذا إحساسي في الحقيقة، خصوصا خلال قراءتي لرواية «على عُهدة حنظلة» لأستاذنا إسماعيل فهد إسماعيل، الذي تناول فيها سيرة ناجي العلي من خلال تتبع فترة الموت السريري التي قضاها ناجي العلي في إحدى مستشفيات لندن عقب محاولة اغتياله، والتي تجاوزت فترة شهر تقريبا، من خلال مونولوج بين الوعي الغائب لناجي العلي وبين حنظلة، الشخصية الشهيرة التي ابتدعها ناجي العلي في رسوماته التي كانت كل منها بمثابة قنبلة صغيرة ينشرها كل يوم في صحف الكويت والمنطقة العربية.

حنظلة الذي ولد في عمر العاشرة وبقي معلقا في هذا العمر، نفس السن التي بلغها ناجي العلي حين خرج من موطنه في فلسطين مهجرا من قبل الصهاينة منتقلا مع عائلته إلى مخيم عين الحلوة.

حنظلة الذي أدار للعالم ظهرا مستهجنا قبحه، كأنه بظهره يشير إلينا ليدين القبح والعمالة للغرب والتشتت والضعف والمهانة التي بلغها العرب واسفر عن عدم قدرتهم على مواجهة القضية الأنبل بين كافة قضاياهم.

وشدد فرغلي: في رواية إسماعيل فهد إسماعيل نعرف الكثير عن ظروف نشأة شخصية حنظلة، والدور الكبير الذي لعبته رسوم ناجي العلي التي بقي حنظلة أيقونة ثابتة فيها، والتي بلغت من قوة التأثير أنها أصبحت مهددة لحياة ناجي العلي، وتسببت في اغتياله في النهاية.

«على عهدة حنظلة» ترينا كيف أن روح ناجي لم تغادرنا لأنها ظلت معلقة في أيقونة حنظلة الباقي معنا، أيقونة تجمع جمال فكرة المقاومة بمرارة طعم الحنظل الذي يمثله مصير فلسطين التي يريد المحتل اغتصابها على مرأى من العالم بلا ذرة من خجل أو حياء.

وفي النص نتعرف على بعض أبرز محطات حياة ناجي العلي، في المخيم، وفي بيروت والكويت ولندن، كما تبرز الدور الكويتي الكبير في احتضان القضية الفلسطينية والتي كان ناجي العلي أبرز رموزها إخلاصا ونقاء، والذي عاش بها مطمئنا وعمل في صحفها من السياسة إلى الطليعة ثم القبس، كما نتعرف على بعض الشخصيات التي عايشها ناجي في الكويت وخارجها، خصوصا إميل حبيبي، الذي يأتي أحد نصوص رواياته وهو «سرايا بنت الغول» مضفّرا في مقاطع عديدة من النص على لسان قارئة كويتية ممن اعتدن زيارة ناجي خلال محنة فقدانه الوعي بعد محاولة الاغتيال، وكذلك تظهر شخصية سعدالله ونوس الكاتب المسرحي السوري الرائد، وطلال سلمان رئيس تحرير جريدة السفير في بيروت، والفنان نور الشريف، ومن الكويت غانم النجار وجاسم الصقر وأحمد الربعي وغيرهم.

تحاشي

وأكد الروائي الكويتي على أنه ابتعد فيما أورده برواية «على خطى حنظلة» عن أمور البحث فيها الآن «مزعج، ولا فائدة منه» .. وقال: حتى عائلة ناجي العلي كان لديها الرغبة لأن أتحاشى كشف الأمور المباشرة تماماً.

وشدد إسماعيل على أن الشاعر الكبير محمود درويش زار ناجي العلي خلال غيبوبته في المستشفى، وأنه لم يذكر ذلك في الرواية لكونه استعاض عنها بنصوص درويش عن ناجي كشهادة توزعت على ثمانية فصول داخل العمل .. كلاهما توفي، وكلاهما مبدع عظيم لا يجارى، فمحمود درويش هو الرقم الأول في الشعر العربي .. تناولت الرواية علاقة درويش بناجي في أوائل الثمانينات حيث كانت في منتهى النقاء والجمال، كاشفاً أن نص الرواية مرر على عائلة ناجي العلي كي لا يكون فيه أي مس بشخصه، وكانوا مرتاحين للعمل.

القدس في أواخر العهد العثماني والتراث العربي الإسلامي: «المكتبة الخالدية» أنموذجاً

دانييل سيكاري

المقدمة:

من المهم الآن، أكثر من أي وقت مضى, طرح قضية عن القدس, من أجل الحفاظ على الذاكرة التاريخية والتراث الثقافي لهذه المدينة، التي أصبحت هويتها مهددة بشكل كبير ومتزايد من قبل مشروع الاستعمار البغيض. إن الخطر الجسيم الناجم عن التغيير, الناجم عن السرقة وحتى تدمير مثل هذا الإرث الكبير, الذي يهدف إلى محو الماضي العربي والإسلامي في القدس وفلسطين, يجعل من الضروري استعادة تاريخ هذه المنطقة، من أجل إعادة تأكيد ارتباطها وعلاقتها العظيمة بالعالم الاسلامي, سواء في الماضي أو الحاضر.

في سياق التاريخ العثماني, لم تفرض أي مدينة أهميتها على أساس ديني, وهو ما يتعارض مع الادعاءات الاسرائيلية الحديثة بأن القدس عاصمة لها "موحدة وأبدية". في واقع الأمر, على الرغم من أهميتها غير العادية- سواء في المنظور الديني أو الرمزي- بسبب الوجود الكبير للأماكن المقدسة التي تخص الديانات الثلاث , فقد بدأت القدس تضطلع بدور بارز إداريا وسياسيا, فقط في منتصف القرن التاسع عشر, الذي تم تعزيزه أكثر من خلال إنشاء "متصرفية" مستقلة في عام ١٨٧٢.

لقد تم طرح قضية القدس كعاصمة لإسرائيل مرة أخرى في السادس من كانون الأول عام ٢٠١٧, من خلال الاعتراف الرسمي للرئيس الأمريكي دونالد ترامب بسيادة إسرائيلية حصرية على المدينة. إن هذا الإعلان, الذي كان له للأسف التأثير الأقوى على المستوى الإقليمي منه في جميع أنحاء العالم, يمثل عملا خطيرا يميل الى تعديل الوضع التقليدي للمدينة المقدسة بشكل فعال. ليس فقط لأنه لا يأخذ في الاعتبار أن جزءا من المدينة – القدس الشرقية- تسكنها غالبية من الشعب الفلسطيني, ولكنه يحجب أيضا تاريخ القدس نفسها التي منذ القرن السابع بعد الميلاد وحتى النكبة عام ١٩٤٨- مع الاعتراف بالوجود المهم للمجتمعات المختلفة القائمة والمتفاعلة- هو تاريخ اسلامي. هذا الاعتراف الذي رفضته الجمعية العامة للأمم المتحدة رسميا, يضع مع ذلك قضية كبيرة فيما يتعلق باستقرار المجتمع الفلسطيني – تم القاءه في مزيد من الاضطرابات- والهوية التاريخية والثقافية للمدينة التي تقع تحت الاحتلال الاسرائيلي لأكثر من خمسين عاما. ومن هذا المنظور, فإن الجهود الأخيرة التي بذلها العديد من الباحثين الفلسطينيين في عملية جمع, وتحليل وكشف التراث التاريخي بحكمة يمثل خطوة أساسية من أجل الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية للقدس وإعادة تأسيسها.

في هذا الصدد, نقدّر أنه من الضروري التأكيد على الأهمية الخاصة للأرشيفات التاريخية – مع الأخذ بعين الاعتبار المخطوطات والوثائق العربية- التي على الرغم من قيمتها كمصدر أولي, للأسف أقل استخداما من قبل المؤرخين والعلماء الغرب والعرب.

ليس من قبيل الصدفة اخترنا أن نوسع ونتعمق في المناقشة التي بدأناها قبل بضع سنوات عن المدينة المقدسة بدراسة بعض رحلات السفر العثمانية السابقة في فلسطين. وبهذا الاسهام القصير, نود أن نلقي المزيد من الضوء على المكانة الخاصة التي احتلتها القدس في سياق منطقة فلسطين خلال الفترة العثمانية السابقة (منتصف القرن التاسع عشر – بداية القرن العشرين) من خلال إبراز علاقة التراث التاريخي والثقافي الفلسطيني المحفوظ في سجلات ومكتبات المدينة المقدسة. على وجه الخصوص ننوي التركيز على الدور الأساسي الذي تلعبه تلك المجموعات العائلية, التي من خلال نشاط بعض أعضائها (أعيان) وكذلك علاقتهم بالحكومة العثمانية, كانوا قادرين على التأثير على الحياة الاجتماعية للمدينة, من ناحية, والتأثير على صنع القرار السياسي من ناحية أخرى,

من خلال الحفاظ على هيمنتها وحتى توسيعها في الفترة المعتبرة. ولا يجب أن نغفل عن العلاقة المتميزة التي أقامها هؤلاء الأعيان مع المجال الثقافي, ليس فقط من خلال نشاطهم السياسي، ولكن أيضا من خلال المؤسسة- أو إعادة التنشيط, اعتمادا على الوضع- للمؤسسات (الأوقاف) التي تم تعيينها لجمع وحفظ المخطوطات العربية والإسلامية, وكذلك مجلدات تاريخية ووثائق خاصة ذات طبيعة مختلفة, كما هو الحال في ما يتعلق بالمكتبة الخالدية, التي تأسست في القدس في بداية القرن الماضي. لم يقتصر دور هذه المكتبات أو المخطوطات في الحفاظ على السجلات التاريخية, ولكنه كان ينطوي في كثير من الاحيان على أداء المجالس العلمية التي كان لها تأثير كبير على المجال الاجتماعي والثقافي. ومن هذا المنظور تجدر الإشارة إلى أنه في ضوء الأحداث الأخيرة, أصبح دور بعض هذه المؤسسات الثقافية متزايد الأهمية.

امتثالا لحاجة الباحثين الذين يشاركون في عملية استعادة ماضيهم, نود أن نقدم إسهامنا الصغير في إبراز جزء محدد من التاريخ الفلسطيني, وأن نعبر أيضا عن الاهتمام الخاص لرئيس الدراسات العربية والإسلامية لجامعة باليرمو لكل من الفلسطينيين والقدس.

نود في النهاية أن نشكر السيد يحيى يخلف, محرر مجلة أوراق فلسطينية, لأنه وافق على نشر هذه المقالة, و د. عزيز العصا, رئيس قسم الثقافة في نادي الموظفين في القدس, لمساعدته التي لا تقدّر بثمن ودعمه الودّي.

ازدهار القدس في منتصف القرن التاسع عشر

لم تمثل فلسطين وحدة سياسية أو إدارية مغلقة, مستقلة عن الأراضي العربية المجاورة – مثل سوريا, لبنان, الأردن والعراق- حتى الحرب العالمية الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية.

حتى منتصف القرن التاسع عشر, لم يتسم التاريخ العثماني لفلسطين بحوادث كبيرة – باستثناء بعض المحاولات المحلية المثيرة للاهتمام، لجعل بعض المناطق المهمّة مستقلة عن السلطة العثمانية- بدلا

من ذلك اتبع مصير معظم تلك المناطق التي تشكل جزءا من بلاد الشام. في النصف الأول من القرن التاسع عشر, في واقع الأمر, بدأت فلسطين تشهد سلسلة رائعة من التغييرات الجذرية – الإدارية والاقتصادية وكذلك الاجتماعية- والتي يجب النظر فيها في إطار عملية الاصلاح الأوسع التي أثارتها الحكومة العثمانية والمعروفة باسم تنظيمات خيرية (إصلاحات مفيدة, ١٨٣٩-١٨٧٦).

على الرغم من الاعتبارات الخاصة التي تمتعت بها عبر القرون, فقد احتلت القدس لفترة طويلة خلال العصر العثماني وضعا هامشيا نسبيا بالنسبة لمدن أخرى مهمة في فلسطين, مثل عكا وحيفا, على طول الخط الساحلي الشمالي. وقد تعززت أهميتها الإدارية أولا بحملة إبراهيم باشا والوجود المصري في فلسطين خلال العقد ١٨٣٠-١٨٤٠, وتم تعزيزها بعد استعادة الحكم العثماني. حوالي عام ١٨٧٢, بعد قانون فيلايت لعام ١٨٦٤, تم فصل مقاطعة القدس (السنجق) عن المحافظة العثمانية لسوريا العظمى (ولاية الشام), لتصبح محافظة مستقلة (متصرفية) وضعت تحت السيطرة المباشرة لإسطنبول.

ليست فقط هذه التغييرات كان لها تأثير قوي على المستوى الاداري والسياسي, ولكنها أثرت بشكل عميق أيضا على المؤسسة الاجتماعية للمدينة. على سبيل المثال, من المهم الإشارة الى الزيادة المذهلة لسكانها ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر. في بداية القرن التاسع عشر, كانت القدس مدينة متواضعة للغاية حيث يعيش فيها حوالي (١٠,٠٠٠) نسمة. في البداية, كانت هذه الزيادة بطيئة للغاية, بحيث أنه في عام ١٨٤٠ قد ارتفع عدد سكان المدينة بمقدار ٥٠٠٠ فقط, ولكن بدأ يزداد أسرع في السنوات التالية. في واقع الأمر, بحلول نهاية القرن كان عدد سكان القدس أكثر من (٤٠,٠٠٠) نسمة (كان لا يزال يتألف بشكل كبير من المسلمين العرب, والجالية اليهودية لم تتعدى ١٤,٥٠٠) وأكثر من (٦٠,٠٠٠) في بداية القرن التالي. يجب أن نعتبر هذه التغييرات رمزا للأهمية التي كانت القدس تتخذها تدريجيا في تلك الفترة.

معظم هذه الزيادة السريعة في عدد سكان المدينة, ناجمة عن الإصلاحات التي تمت خلال فترة التنظيمات وستيطان اليهود المهاجرين والقادمين من أوروبا الشرقية والوسطى المستفيدة من الحماية القنصلية الأوروبية, تعكس بشكل أساسي الفرص الجديدة التي خلقت بواسطة ظروف

اقتصادية, سياسية واجتماعية أفضل.

وقد انعكس ازدهار القدس الاقتصادي والاداري ايضا في توسع المدينة (مثل إقامة أحياء جديدة خارج الجدران العثمانية), وفي تحسين المنشآت الحضارية وطرق الاتصال, حتى أنه في نهاية القرن التاسع عشر, انتقل المحور السياسي والاقتصادي أخيرا من الشمال (عكا) الى الجنوب (القدس) في منطقة فلسطين.

جانب آخر مهم ولا يمكن الاستهانة به, فيما يتعلق بعملية التحديث التي خضعت لها مدينة القدس في نهاية الفترة العثمانية, هو الوجود الأوروبي المتزايد في المنطقة. فالقوى الغربية مثل: فرنسا وبريطانيا العظمى، قد أبدت بالفعل اهتماما خاصا بأراضي بلاد الشام منذ بداية القرن التاسع عشر, كما هو الحال مع حصار نابليون لعكا عام ١٧٩٩م. حصلت هذه المخاوف على فرصة للنمو بعد استعادة الحكم العثماني بحلول عام ١٨٤٠, بفضل الدعم العسكري الذي ضمنته بريطانيا العظمى للإمبراطورية.

يتجسد الوجود الغربي في فلسطين، في الأساس، في ثلاث نواحي على الأقل: ١. الناحية السياسية, من خلال تأسيس قنصليات أجنبية. ٢. الاقتصادية, من خلال تحسين أنشطة تنظيم المشاريع الأجنبية والتجارة. ٣. الثقافية, من خلال تأسيس المدارس التبشيرية والمؤسسات الثقافية. انتشار الثقافة الغربية في فلسطين, وفي القدس على وجه الخصوص, من خلال تدريس اللغات الأجنبية (الانجليزية, الفرنسية والألمانية) والعلوم الحديثة, سواء داخل المعاهد التبشيرية أو المدارس الثانوية العثمانية (مكاتب) التي نشأت من التنظيمات, كان لها تأثير قوي على تدريب الأعضاء الشابة للعائلات المهمة في القدس الذين من المرجح أن يصبحوا الأعيان المستقبليين للمدينة وقادة الحركة الوطنية الفلسطينية في بداية القرن العشرين, كما سنرى ذلك بشكل أوضح من خلال الفقرة التالية.

على الرغم من أنه من غير الممكن حتى الآن التحدث عن خطر واضح يتعلق بالهوية الفلسطينية في هذه المرحلة, ومع ذلك فقد شهدت الثقافة الفلسطينية التقليدية حقيقة تغيرا كبيرا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

الشخصيات البارزة والعائلات: حكم الخالديين

بالحديث عن فلسطين- كما هو حال المناطق المجاورة التي تشكل الشرق الأوسط- من الصعب جدا إعطاء وصف للمجتمع من حيث " الطبقات الاجتماعية", مما قد يؤدي الى "الغموض والحيرة". يعتمد هذا، بشكل أساسي، على الحراك الاجتماعي الواضح القائم على الوحدة الأسرية, والذي يمثل أساس كل مؤسسة اجتماعية. وتعطينا هذه الميزة الخاصة فهما صحيحا لنقل وتسوية فرع عائلي واحد في مناطق مختلفة, وكذلك للتأثيرات الايجابية أو السلبية التي من الممكن أن تكون للفرد على المجموعة العائلية التي ينتمي إليها.

وقد عززت الاصلاحات التي أدخلها ابراهيم باشا مكانة الأعيان في القدس, بحيث أصبحت الجماعات العائلية مثل الحسيني والخالدي, وهما العائلتان الرئيسيتان للمدينة, بارزة من خلال الحفاظ على، أو حتى تطوير علاقتهما مع السلطة السياسية, "التي أعطتهم تدريجيا منصب القيادة على قسم معين من السكان المحليين.

تجدر الاشارة الى أنه قبل انشاء متصرفية مستقلة, حاكم القدس (متسلّم) والقاضي الشرعي, الذين يمثلون أهم المكاتب السياسية والقضائية, حيث يتم تعيينهم مباشرة من قبل الباب العالي من خارج مجموعة علماء المدينة, لهذا السبب مُنعوا من السيطرة على هذه المناصب, ولا يمكنهم أن يفترضوا امتياز نقلها بالميراث. في هذا الصدد, بقدر ما يتعلق الأمر بمحكمة الشريعة الاسلامية (المحكمة الشرعية) – غالبا ما يمثل أعضاء الخالدية استثناء كبيرا.

على عكس المدن الفلسطينية الأخرى مثل صفد, نابلس أو الخليل, التي تعتمد على الاقتصاد غالبا لكونها تقع على طرق التجارة التقليدية, كان المنصب الخاص لأعيان القدس يعتمد، بشكل أساسي، على تعيينهم في المكاتب الدينية الرئيسية, مثل إفتاء, نقابات الأشراف, والسيطرة على العديد من أوقاف المدينة, ومن بينها المسجد الأقصى, الذي يمكنهم من خلاله ممارسة نفوذهم على القضايا الادارية, الدينية والاجتماعية. منذ القرن الثامن عشر, أصبحت العديد من هذه المكاتب وراثية,

ولعائلات معروفة, مما أدى تدريجيا إلى بلورة المؤسسة الاجتماعية الحضارية وانخفاض كبير في الحراك الاجتماعي.

ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر, شهدت المؤسسة الاجتماعية للقدس تغييرات مهمة عكست، بشكل أساسي، الروح العامة للإصلاح في فلسطين والمناطق المجاورة.

أصبح الوصول الى المكاتب العثمانية الحديثة, التي تعتمد مناهجها في الغالب على نموذج غربي, بالإضافة الى معرفة اللغات الاوروبية, ضروريا بشكل تدريجي لأغراض سياسية أو ادارية. وفي هذا الصدد, تجدر الاشارة الى الخبرة الواسعة التي اكتسبها يوسف ضياء الدين الخالدي (١٨٤٢-١٩٠٦)، الذي كان أول ممثل فلسطيني لمتصرفية القدس في أول برلمان عثماني (١٨٧٧).

الخالديين, الذين ادعوا النسب من خالد بن الوليد, صحابي للنبي محمد (صلى الله عليه وسلّم), يحظون بالتقدير لكونهم أول من استقر في القدس خلال القرن الرابع عشر. احتل العديد من افراد هذه العائلة مناصب هامة في المحكمة الشرعية للمدينة منذ القرن السادس عشر, ويرجع ذلك أساسا للفترة القصيرة التي كانت للحكم العثماني (سنتين) وما يترتب على ذلك من تكرار البدائل اللازمة, مما أدى الى ارتفاع مناصبهم في سياق القرون الثلاثة التالية. من الجدير بالذكر أنهم لم يكونوا قادرين فقط الحفاظ على السيطرة على أهم منصب ديني في القدس, ولكنهم أيضا تولوا مناصب قضائية ذات صلة في يافا وغزة وغيرها من بلاد الشام.

لم يكن يوسف ضياء الدين الخالدي هو الوحيد الذي تسلق خطوات مهنة سياسية ذات صلة بين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وفي واقع الأمر, سرعان ما تبعه شقيقه ياسين, الذي تولى السيطرة على مجلس بلدية القدس (بلدية القدس) من عام)١٨٩٨ الى عام ١٩٠٧, وابن أخيه روحي ب. ياسين (١٩١٣) الذي بعد أن كان عضوا في لجنة الاتحاد والتقدم, أصبح ممثلا للقدس في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) في عام ١٩١٢. في هذا الصدد, من المهم أن نؤكد على الدور السياسي الخاص للخالديين لمواجهة التهديد الصهيوني بمجرد اندلاعه في نهاية القرن التاسع عشر, وخاصة بعد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في بازل في عام

١٨٩٧. في ملاحظة وجهها يوسف ضياء الدين الى ثيودور هرتسل, مؤسس الحركة الصهيونية, في عام ١٨٩٩' أكد بشكل جدي أن فلسطين " تشكل جزءا لا يتجزأ (جزءان لا يتجزآن) من الامبراطورية العثمانية.

المكتبة الخالدية

يشير تأسيس المكتبة الخالدية إلى الاهتمام الخاص الذي ساهم فيه أفراد الخالدي لأهمية الحفاظ على التراث التاريخي لعائلتهم والتراث العربي الاسلامي الموجود في القدس. إنها ليست بالطبع, المكتبة الاسلامية الوحيدة في المدينة ذات الصلة التاريخية والثقافية حتى يومنا هذا. في هذا الصدد, تجدر الاشارة الى مكتبة مسجد الأقصى (٦٦٦ مخطوطة), المكتبة البديرية (٦٣٦ مخطوطة), مكتبة الحسيني (١٧٢ مخطوطة), مكتبة المتحف الاسلامي في الحرم الشريف (٦٤٤ مخطوطة).

تقع المكتبة الخالدية في قلب مدينة القدس القديمة, في حي باب السلسلة, حيث شهد التعداد العثماني عام ١٨٠٥ بروز أسرة الخالدي بمائتي عضو على الأقل. تجدر الاشارة الى أن أول مخطوطات قد جمعت حوالي عام ١٧٢٠ (٥٦٠ مخطوطة), قبل قرنين تقريبا من تأسيس الخالدية كمكتبة عامة.

مقارنة بالمجموعات المهمة الأخرى، تضم المكتبة الخالدية أكبر عدد من المخطوطات الإسلامية (حوالي ١٢٠٠ كتاب) في جميع أنحاء فلسطين، إلى جانب آلاف الوثائق الخاصة التي تعود لأعضاء عائلة آل خليفة، بالإضافة إلى ما يقرب من (٥٠٠٠) مجلد (في اللغة العربية وكذلك باللغات الأجنبية) تأتي في الغالب من مكتبات شخصية.

تم تأسيس المكتبة رسميا عام ١٩٠٠ من قبل الشيخ راغب ب. نعمان الخالدي (١٨٦٦-١٩٥١)، أحد أبرز أفراد عائلته. بحضور أعضاء بارزين آخرين في أسرة خالدي، تم الاتفاق على أنه عند وفاة أحد أفراد الأسرة، يجب نقل كتبه إلى المكتبة. كما تم الاتفاق على تعيين مدير ((ناظر متفرج) للإشراف

على المكتبة، والذي يجب أن يكون في متناول أي شخص يريد الدراسة فيها.

من الجدير ذكره, أن الشيخ ظاهر الجزائري، الذي كان قد أسَّس « المكتبة الظاهرية» في دمشق، قد شارك في فعاليات المكتبة الخالدية، مع اعتبار خاص لترتيب المخطوطات وترتيب تراث الكتاب، الذي أدى في النهاية إلى نشرهها ككتالوج. كان الشيخ ظاهر الجزائري صديقًا مقربًا لعائلة الخالدي، ولكن بالإضافة إلى الصلات بين أفراد العائلات المحلية، تواجد في القدس ضمن السياق الأوسع للتفاعلات المهمة بين المغاربة و المشارقة في بلاد الشام بين القرنين التاسع عشر والعشرين، بالذات مع وصول شيخ عبد القادر الجزائري في دمشق عام ١٨٥٦.

من عام ١٩٠٠ وحتى نهاية الفترة العثمانية، خضعت المكتبة الخالدية لتطور كبير، بسبب اقتناء المكتبات الشخصية التابعة لأفراد العائلة، والتي تم نقلها إلى المكتبة بعد وفاة أصحابها، وفقا لما تم الاتفاق عليه في لحظة تأسيسها. من بين أولئك الأعيان يمكننا العثور على شخصيات بارزة مثل ياسين ب. محمد علي (توفي ١٩٠١)، وشقيقه يوسف ضياء الدين (توفي ١٩٠٦) وروحي ب. ياسين (توفي ١٩١٢). كانت هذه سمعة المكتبة في بداية القرن العشرين والتي كانت غالبًا ما تدرج في زيارات العديد من العلماء المهمين في طريقهم إلى القدس وفلسطين. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى الزيارات المتكررة التي قام بها شيخ دمشق الشهير جمال الدين القاسمى للمكتبة خلال إقامته في القدس عام ١٩٠٣.

كان الشيخ راغب الخالدي يدير المكتبة الخالدية حتى نهاية أربعينيات القرن العشرين. وقد احتفظت بموقعها الغريب في غضون السنوات التالية، والذي يستمر حتى يومنا هذا. لقد كانت النكبة عام ١٩٤٨، واحتلال القدس عام ١٩٦٧، والتي أثرت بشكل كبير على المدينة ومنطقة فلسطين كلها, ذاتا تأثير دائم على دور المكتبة، فيما يتعلق بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي. يرتبط هذا الجانب بشكل خاص بفرار العديد من أعضاء الخالديين منذ عام ١٩٤٨، ونثرهم خارج المدينة.

الاستنتاجات والخاتمة

تجربة هؤلاء الأعيان الخالديين الذين تمكنوا من الاستفادة من السياسة العثمانية للتنظيمات من خلال الحفاظ على السيطرة على المكاتب الدينية والقضائية الرئيسية في القدس وغيرها من المدن المهمة في فلسطين، وبعد ذلك، تَولّي مسؤولية أكثر المهام الإدارية والسياسية ذات الصلة، تدل على طابع معين من الاستمرارية، من جهة، وعدم الاستمرارية، من ناحية أخرى. أما بالنسبة للحالة الأولى، فهي تعكس ملامح جزء كبير من البنية الاجتماعية في فلسطين وكذلك المناطق المجاورة لبلاد الشام، التي تأسست أساسًا على الوجود التقليدي للمجموعات العائلية المهمة، على علاقتها مع السلطة السياسية وكذلك على صلاتهم المحلية وحتى الإقليمية، بحيث يفترض في كثير من الأحيان الدور الأساسي للوسطاء بين القيادة السياسية والشعب.

أما بالنسبة للحالة الثانية، فهي تعكس الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المختلفة التي جاءت جنبا إلى جنب مع عملية الإصلاح والتحديث في المنطقة بأسرها. في واقع الأمر، لم يكن على هؤلاء العلماء فقط مواجهة الاستبداد المستمر للطبقة الحاكمة العثمانية وتركيبة المحافظات العربية، لكنهم اضطروا أيضاً لإعادة تقييم دورهم فيما يتعلق بالتدخل الأوروبي، وكذلك انتشار التهديد الصهيوني.

مثل هذه التغيرات الجذرية أثرت بشكل كبير على القدس التي أصبحت منذ ١٨٧٢ أهم مدينة في جميع أنحاء فلسطين.

يرتبط ماضي المدينة بالضرورة بنشاط تلك المؤسسات التي تهدف إلى الحفاظ على ذاكرتها التاريخية وتراثها الثقافي. وينطبق هذا على وجه الخصوص على القدس، التي هويتها مهدده بشكل خطير من قبل الاحتلال الصهيوني للمدينة. من هذا المنظور، ليست فقط المكتبة الخالدية تمثل نقطة محورية للمنطقة برمّتها، بالنظر إلى العدد المذهل للمخطوطات ودورها الحالي في

الحفاظ على الماضي العربي والإسلامي للمدينة، بل ايضا ما يتعلق بمدى صلتها بالاعتماد على سمعة عائلة الخالدي وفترة حكمها الحاسمة، والتي يجب اعتبارها جزءاً حيوياً من هذا التراث نفسه.

المصادر والمراجع

1. Abu-Manneh Butrus, “Jerusalem in the Tanzimat Period: the new Ottoman Administration and the Notables”, in Die Welt des Islams, xxx, 1990;
2. Al-Asad Nāṣir al-Dīn, Muḥammad Rūḥī al-Khālidī: rā’id al-baḥth al-ta’rīkhī al-ḥadīth fī Filasṭīn, Maʿhad al-buḥūth wa’l-dirāsāt al-ʿarabiyya, Cairo 1970;
3. Al-ʿAsalī Kāmil Jamīl, Maʿāhid al-ʿilm fī Bayt al-maqdis, al-Jāmiʿa al-urduniyya, ʿAmman 1981;
4. Al-Assa ʿAziz, “Al-matḥaf al-islāmī fī’l-masjid al-Aqṣā al-mubārak: al-matḥaf al-ʿālamī al-waḥīd fī Filasṭīn”, in Mishwār nn. 5, 7-8 (2017), pp. 12-13 (i), 18-19 (ii), 14-15 (iii);
5. al-Balawī Salāmah al-Ḥarfī, “Al-mu’assasāt al-taʿlīmiyya wa’l-maktabāt fī’l-Quds”, in Muḥsin Muḥammad Ṣāliḥ (ed.), Dirāsāt fī’l-turāth al-thaqāfī li-madīnat al-Quds, Markaz al-Zaytūna li’l-dirāsāt wa’l-istishārāt, Beirut 2010;
6. Al-Bānī Muḥammad Saʿīd, Tanwīr al-baṣā’ir bi-sīrat al-shaykh Ṭāhir, Maktabat al-ḥukūma al-ʿarabiyya al-sūriyya, Damascus 1920;
7. Ben-Arieh Yehoshua, “The Population of the Large Towns in Palestine during the First Eighty Years of the Nineteenth Century, according to Western Sources”, in Moshe Ma’oz (ed.), Studies on Palestine during the Ottoman

Period, The Magnes Press, Jerusalem 1975, pp. 49-69;

8. Büssow Johann, Hamidian Palestine. Politics and Society in the District of Jerusalem 1872-1908, Brill, Leiden-Boston 2011;

9. Giardina Andrea, Liverani Mario, Scarcia Biancamaria, La Palestina, Editori Riuniti, Roma 1987;

10. Hourani Albert, "Ottoman Reform and the Politics of Notables", in W. Polk, R. Chambers (eds.), Beginnings of Modernization in the Middle East, University of Chicago Press, 1968, pp. 41-67;

11. Al-Jabūrī Nawār Ḥusayn Muṣṭafà, Al-nashāṭ al-qunṣulī al-fransī fī'l-Quds al-sharīf (1840-1900), Dār wa maktaba al-Ḥāmid li'l-nashr wa'l-tawzī, Åmman 2015;

12. Karpat Kamil, Ottoman Population 1830-1914: Demographics and Social Characteristics, University of Wisconsin Press, Madison 1985;

13. Khalidi Rashid I., "A Research Agenda for writing the History of Jerusalem", in Nassari Issam, Tamari Salim (eds.), Pilgrims, Lepers and Stuffed Cabbage. Essays on Jerusalem's Cultural History, Institute of Jerusalem Studies, Jerusalem 2005, pp. 12-27;

14. Khalidi Rashid, "Palestinian Identity: the Construction of Modern National Consciousness", in Israel Studies, vol. 3, no. 1 (1998), pp. 266-272;

15. Al-Khālidī Walīd, Al-maktaba al-khālidiyya fī'l-Quds, Beirut 2002;

16. Al-Khālidī Walīd, Qabla al-shatāt: al-ta'rīkh al-muṣawwar li'l-shaƀ al-filas-

ṭīnī 1876-1948, Mu'assasat al-dirāsāt al-filasṭīniyya, Beirut 1987;

17. Al-Khaṭīb Ạdnān, Al-shaykh Ṭāhir al-Jazā'irī: rā'id al-nahḍa al-ʿilmiyya fī Bilād al-Shām, Maʿhad al-buḥūth wa'l-dirāsāt al-ʿarabiyya, Damascus 1971;
18. Mannāʿ Ādil, Aʿlām Filasṭīn fī awākhir al-ʿahd al-ʿuthmānī (1800-1918), Mu'assasat al-dirāsāt al-filasṭīniyya, Beirut 2008;
19. Manna Adil, "Continuity and change in the socio-political elite in Palestine during the late-Ottoman period", in Thomas Philipp (ed.), The Syrian land in the 18th and the 19th century: the common and the specific in the historical experience, F. Steiner, Stuttgart 1992, pp. 69-89;
20. Mannāʿ Ādil "Hal aṣbaḥat al-Quds āṣima fiʿiyya li-Filasṭīn fī awākhir al-ʿahd al-ʿuthmānī?", in Nassari, Tamari (eds.), Pilgrims, Lepers and Stuffed Cabbage. Essays on Jerusalem's Cultural History, Institute of Jerusalem Studies, Jerusalem 2005, pp. 63-78;
21. Mannāʿ Ādil, Ta'rīkh Filasṭīn fī awākhir al-ʿahd al-ʿuthmānī 1700-1918 (qirā'a jadīda), Mu'assasat al-dirāsāt al-filasṭīniyya, Beirut 2003;
22. Mantran Robert (ed.), Storia dell'Impero ottomano, Argo Editrice, Lecce 2011;
23. Ma'oz Moshe, Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861, Clarendon, Oxford 1968;
24. McCarthy Justin, The Population of Palestine: Population Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate, Columbia University Press, New York 1990;

25. Mukhlaṣ ʾAbdallāh, “Nafāʾis al-khizāna al-khālidiyya fīʾl-Quds al-sharīf”, in Majallat al-majmaʿal-ʿilmī al-ʿarabī bi-Dimashq 4 (1924), pp. 366-369, 409-413;

26. Al-Munajjid Ṣalāḥ al-Dīn, Al-makhṭūṭāt al-ʿarabiyya fī Filasṭīn, Dār al-kitāb al-jadīd, Beirut 1982;

27. Pellitteri Antonino, Magribini a Damasco, Istituto per l’Oriente, Roma 2002;

28. Al-Qāsimī Ẓāfir, Jamāl al-Dīn al-Qāsimī wa ʿaṣruhu, Maktaba Aṭlas, Damascus 1965;

29. Schölch Alexander, Taḥawwulāt jadhariyya fī Filasṭīn (1856-1882): dirāsāt ḥawla al-taṭawwur al-iqtiṣādī wa’l-ijtimāʿī wa’l-siyāsī (tr. Ar. Kāmil Jamīl al-ʾAsalī), Dār al-Hudā, ʾAmman 1990;

30. Sicari Daniele, “Déplacement et engagement dans l’œuvre «Al-rawḍa al-numāniyya fī siyāḥat Filasṭīn» de Numān al-Qasāṭilī (1854-1920)”, in Laurence Denooz, Sylvie Thiéblemont-Dollet (eds.), Déplacements et publics, Proceedings of the International Conference “Déplacement(s) et Public(s)”, Presses Universitaires de Lorraine, Nancy 2017, pp. 231-244;

31. Sicari Daniele, Gerusalemme e la Palestina nella riḥla maqdisiyya dello shaykh Jamāl al-Dīn al-Qāsimī (1903), Proceedings of the 28th UEAI Congress (Palermo, 12-16 September 2016), Peeters Publishers, Leuven (forthcoming);

32. Sicari Daniele, La trasmissione dei saperi a Damasco fra tradizione e innovazione (1876 – 1908). La produzione arabo-islamica e la documentazione siriana

dell'epoca, Aracne Editrice Int.le srl, Rome 2012;

33. al Soumer Ammar, "Historical Documents Centre in Damascus: Definition and Analysis. Representing the Other in the Law Court Documents", in Alif-bâ. Studi arabo-islamici e mediterranei, Atti del Convegno La rappresentazione dell'Altro nell'area del Mediterraneo, xx (2006), pp. 19-29.

الهوامش:

١) هذه الورقة هي النسخة العربية لورقة باللغة الإنجليزية، بعنوان:

Late-Ottoman Jerusalem and the Arab-Islamic Legacy: The maktaba al-Khālidiyya

للباحث الإيطالي "دانيال سيكاري" في جامعة باليرمو:

Daniele Sicari – Università degli Studi di Palermo (Italy)

وقد وصلت الورقة إلى هيئة التحرير من الباحث باللغتين: الإنجليزية والعربية.

٢) باحث إيطالي.

٣) تم اعتماد المصادر والمراجع كما هي في الورقة الأصلية –باللغة الإنجليزية.

أوراق المؤسسة

ملتقى الحوار الرابع
القاهرة ٢٧ فبراير / شباط ٢٠١٨-٠٤-٢٩
قضية فلسطين: تحديات وآفاق

أدار الندوة السيد عمرو موسى رئيس مجلس الأمناء في مؤسسة عرفات، الأمين العام الأسبق لجامعة الدول العربية

مداخلة السيد ميغيل انخيل موراتينوس وزير خارجية اسبانيا الاسبق والمبعوث الاسبق للاتحاد الاوروبي للشرق الأوسط

عندما انظر الى هذا الجمهور.. كم يبدو مؤثرا ان ارى هذه الغالبية منكم ايها الفلسطينيون القادمون من فلسطين مع اصدقاء عرب وكذلك مع ممثلين خارجيين روس واوروبيين في هذه اللحظة الحرجة لكم وللمنطقة وللعالم.

دعوني كما تعودت ان اكون دائما مخلصا والى درجة كبيرة صريحا في الحديث لكم أيها الاصدقاء الاعزاء عن احساسي العميق بالوضع الحالي. لا أريد ان أعطيكم أية نصيحة، لست أنا الذي يمكن أن يقدم لكم المعطيات لأنها قضيتكم في حياتكم وحياة أسلافكم وفي حياة مستقبلكم. لذا بنظرة خارجية، الشيء الوحيد الذي

أستطيع ان أشارككم به بتواضع كبير هو كيف أرى الوضع من وجهة نظر خارجية.

طبعا، لستم في بداية الصراع لن اقارن الوضع في فلسطين اليوم بما كان عليه في ١٩٤٨ وفي بدايات النكبة والمواجهات رغم انها قد تبدو لبعض منكم اسوأ، لا اعتقد ذلك، لكن مقارنة مع ما في اعماقي حول مؤتمرات السلام واوسلو اثناء انخراطي في عملية السلام ما بين ١٩٩٦ و٢٠٠٣ والسنوات اللاحقة، اليم يجب ان اقر تصريحا دبلوماسيا، نحن قلقون بالفعل.

بأسى كبير، رأيت كيف بدت القضية الفلسطينية تختفي من الاجندة على المستوى العالمي. كان هناك الربيع العربي، وكان هناك حروب وأزمات... كانت هناك اهتمامات اخرى... القضية الفلسطينية ايها الزملاء الاعزاء لم تكن اولوية كما كانت قبل عشر او خمسة عشر سنة.

انا لست متشائما... لكن اعتقد اننا وصلنا الى نهاية لحظتنا. ومع قرار ترامب بنقل سفارة الولايات المتحدة الى القدس، من الممكن ان يكون هناك دافع من قبل الفلسطينيين بأن يتفاعلوا مع هذا المستقبل حيث ان رسالتي البسيطة هي ان يجب على لعرب بالطبع ان يقدموا الدعم وبالطبع يجب على الأوروبيين ان يدفعوا ثمن المسؤولية بالانخراط وتقديم المساعدة، ولكن يا اصدقائي الأعزاء، الامر متروك للفلسطينيين انفسهم كما قال الدكتور ناصر القدوة، لتوسيع رؤيتهم واستراتيجيتهم.

اذا لم تنجحوا في خلق استراتيجيات جديدة اليوم مع الجانب الفلسطيني والرؤيا حول النجاة، لا يوجد جديد... في حديثنا عن عاصمة واحدة الى عاصمة اخرى وانتقالنا مع اجتماع الى اجتماع لن نغير المدخلات لوجود عملية سلام جديدة

في الشرق الاوسط.

ولهذه الاسباب، يجب على الفلسطينيين ان يقفوا ويتحركوا ويقرروا ان قوة الضعيف اقوى من القوي... اشعر انكم تعتقدون بأنكم الجانب الضعيف لكنكم انتم الجانب القوي. دونكم لن يكون هناك سلام في المنطقة لذا يجب ان تستفيدوا من ضعفكم، هذا جزء من سياسات ومفاوضات من وجهة نظر دبلوماسية.

... للأسف، انتم دائما تتوقعون من الأميركان ان يقدموا لكم صفقة العمر. للمرة الاولى، يجب على العرب والاوروبيين ان يشحذوا جهودهم. انه ليس سهلا لان العرب لا يثقون بالأوروبيين والعكس صحيح... لا نثق ببعضنا البعض. تعتقدون اننا منقسمون وهذا صحيح... تعتقدون اننا منقسمون وهذا صحيح ايضا. ولكن في هذه اللحظة يجب ان نؤمن بأنفسنا لانها منطقتنا، انها منطقتنا المشتركة.

فلسطين هي الأولوية، لانه بدون الحل الفلسطيني/ الاسرائيلي، ستعم فوضى ضخمة في كل المنطقة لذا لا تيأسوا ايها الاصدقاء لكن يجب عليكم ان تتصرفوا.

ما الذي سيحدث عندما تقوم الولايات المتحدة بنقل سفارتها الى القدس في التاسع او العاشر من ايار؟ ما هي استراتيجية الاوروبيين والعرب؟ ربما يجب ان لا نفعل شيئا او ربما يجب ان نبدأ بفعل شيء. ماذا ستكون ردة فعلنا؟ يجب البدء من الآن، انا لست متشائما على الاطلاق لكنني اعتقد ان هناك وقت جديد قادم ويجب على الفلسطينيين ان يستغلوا الفرصة.

مداخلة السيد ميخائيل بوجدانوف نائب وزير خارجية روسيا

أيها الزملاء المحترمون والاصدقاء الاعزاء،

يسعدني ان ارحب بمشاركتي ملتقى الحوار الذي سوف نناقش خلاله قضايا الشرق الاوسط الرئيسية من بينها القضية الفلسطينية وهي طبعا تتصدر الأجندة الاقليمية.

قبل كل شيء اود ان اشكر ادارة مؤسسة ياسر عرفات على دعوتي لحضور الاجتماع السنوي لمجلس أمناء المؤسسة والذي عقد اليوم اضافة الى منح العضوية الشرفية للمؤسسة لي. إنه لشرف كبير لي واشكركم على اتاحة الفرصة للمشاركة في الفعاليات المتعلقة بإرث الرئيس المؤسس ياسر عرفات ومسيرته. وهو زعيم فلسطين البارز والشخصية السياسية الدولية الكبيرة. لقد كرس حياته كلها للكفاح من أجل تحقيق حقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف في اقامة دولة مستقلة تعيش مع اسرائيل في السلام والأمن.

لم يعد سرا ان استمرار النزاع الفلسطيني الاسرائيلي هو عنصر عدم الاستقرار المزمن في الشرق الاوسط. ان الاحتلال الاسرائيلي المستمر منذ اكثر من ٥٠ عاما للأراضي الفلسطينية يزعزع الوضع في المنطقة ويخلق تربة خصبة للمتطرفين. فلذلك لا يمكن تهميش اولوية القضية الفلسطينية وفقدان اهميتها حتى على خلفية النزاعات الحادة التي تجتاح منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا.

ولقد ادى قرار رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب الصادر في ٦ ديسمبر عام ٢٠١٧ حول الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية الى القدس ادى الى تفاقم الاوضاع في النزاع الفلسطيني الاسرائيلي وهي لا تزال صعبة للغاية بسبب حالة الركود في عملية السلام وغياب الحوار السياسي بين الطرفين. وكما اعلنا اكثر من مرة فان خطوات الادارة الأميركية التي تسبق حل احدى القضايا

الرئيسية للوضع الدائم نعتبرها خطوات خاطئة ومزعزعة للاستقرار ولا تخدم مصالح استئناف عملية السلام الحقيقية بين الفلسطينيين والاسرائيليين. فقد اسفرت خطوات واشنطن عن تصاعد حدة التوتر في المنطقة في الاراضي الفلسطينية وخاصة في قطاع غزة.

نحن ننطلق من انه لا يجوز تحديد مستقبل القدس وحل غيره من القضايا الرئيسية للنزاع الفلسطيني الاسرائيلي من خلال اتخاذ الخطوات الاحادية الجانب. فيجب التوصل الى التسوية الدائمة لنزاع الشرق الاوسط المزمن من خلال المفاوضات المباشرة بين الطرفين على اساس قرارات الشرعية الدولية بما في ذلك قرارات مجلس الامن والجمعية العامة للأمم المتحدة ذات الصلة اضافة الى مبادرة السلام العربية. ونحن ندفع مواقفنا هذه بشكل مستمر في اطار الاتصالات المباشرة مع طرفي النزاع والدول الاقليمية الرئيسية. وبتلك الطريقة كان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين يجري محادثاته في موسكو مع كل من رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتانياهو في ٢٩يناير والرئيس الفلسطيني محمود عباس في ١٢فبراير والملك الاردني عبد الله الثاني في ١٥ فبراير.

وتدعم روسيا على الدوام الخيار المبدئي للقيادة الفلسطينية لصالح التسوية السلمية مع اسرائيل. ونعتبر الرئيس عباس ممثلا بارزا لـ»معسكر السلام» في فلسطين وهو يؤمن بشكل مخلص بامكانية التسوية السياسية مع اسرائيل. وهذا ما اثبته عندما اعاد النظام في الاراضي الفلسطينية باحتوائه على العواقب الوخيمة لانتفاضة الأقصى، كما اسس الرئيس عباس مؤسسات الحكم الفعالة. فان اضعاف مواقفه الداخلية يصب في مصلحة العناصر الراديكالية ويهدد في نهاية المطاف بموجة جديدة من العنف والفوضى.

ومن الواضح انه للبحث الفعال عن سبل تسوية النزاع العربي الاسرائيلي لابد من

تضافر الجهود للمجتمع الدولي بأسره. وسنواصل تقديم الدعم لاخراج عملية السلام من المأزق في اطار «رباعية» الوسطاء الدوليين وفي اطارات جماعية اخرى. ومع الاخذ في الحسبان وجود الاقتراحات المفيدة التي قد بلورتها «الرباعية»، نرى انها تحتفظ بقدراتها باعتبارها اطارا فريدا من نوعه للوساطة. ونؤيد تفعيل هذه الآلية وتعاملها المنتظم والمكثف مع الجامعة العربية وكافة اللاعبين الاقليميين والدوليين القادرين على المساهمة في اخراج التسوية بين فلسطين واسرائيل من المأزق الخطير.

وبطبيعة الحال، تعد استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية عاملا يسهم في تحقيق التقدم في التسوية الشرق اوسطية. ونعتبر حدثا مهما في هذا المسار ما ابرمته حركتا فتح وحماس برعاية مصرية في ١٢ أكتوبر عام ٢٠١٧ من الاتفاق على عودة السلطة الفلسطينية الى ممارسة سلطتها الادارية الكاملة مجددا على قطاع غزة. وفي اتصالاتنا مع كافة القوى الفلسطينية نحثها على الالتزام باتفاقات ذات صلة من اجل تجاوز الانشقاق بين رام الله وغزة. ونتطلع على ان المضي قدما في سبيل المصالحة الفلسطينية على اساس البرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية سيؤثر ايجابيا على الاوضاع في التسوية الشرق اوسطية، بما في ذلك اعادة اطلاق عملية السلام الحقيقية.

وحول كل من الانعدام المزمن لحل القضية الفلسطينية وتداعيات ما يسمى بـ»الربيع العربي» المشتعل قبل ٧ سنوات، الشرق الاوسط وشمال افريقيا من منطقة مزدهرة الى منطقة الفوضى وسفك الدماء. فان الدول مثل سوريا وليبيا والعراق واليمن التي بدت مستقرة مؤخرا، تعيش الان أزمات في غاية الخطورة واصبح «الربيع العربي» (وفي حال العراق وليبيا- التدخل الاجنبي المباشر) كارثة حقيقية لهذه الدول مع الخسائر البشرية الهائلة وظهور ملايين اللاجئين وكسر الانظمة القائمة والتخلي عن المباديء المعتادة وتحطيم البنية التحتية والتدهور الحاد للاوضاع الاقتصادية

والاجتماعية لسكانها. وكان كل ذلك نتيجة للسياسة الخرقاء والقصيرة النظر لبعض الدول الغربية وهي سياسة الاطاحة بالانظمة غير المرغوب فيها التي ادت الى خلق فراغ السلطة واخلت بآليات الحكم، وهذا ما استفاد منه الارهابيون لاحقا.

وفي هذه الظروف الصعبة اصبح اطلاق العملية العسكرية الروسية في سوريا بدعوة من الحكومة السورية الشرعية في سبتمبر عام ٢٠١٥ نقطة تحول في محاربة الارهاب. وخلال سنتين ونصف سنة منذ ذلك الحين حققنا نجاحات كبيرة ليس فقط في مجال محاربة الارهاب (تم القضاء على بؤر الارهاب الرئيسية في سوريا)، بل وفي خلق الظروف اللازمة للمضي قدما في مسار التسوية السياسية واعادة اعمار سوريا في مرحلة ما من مراحل تسوية النزاع. وهنا لابد ان اشير قبل كل شيء الى مؤتمر الحوار الوطني السوري المنعقد في مدينة سوتشي في ٣٠يناير عام ٢٠١٨ بمبادرة الدول الثلاث الضامنة لعملية آستانا.

كان هذا المؤتمر غير مسبوقٍ من حيث مستوى التمثيل منذ بداية الجهود الرامية للمضي قدما في عملية التسوية السورية وخرج باتخاذ القرارات الملموسة- تبنى البيان الختامي حول مبادئ العملية السياسية على اساس قرار مجلس الامن ٢٢٥٤ والنداء الى المجتمع الدولي عن ضرورة زيادة المساعدة الانسانية لسوريا ودعم اعادة اعمار البنية التحتية والقطاع الصناعي. ويشدد البيان الختامي بوضوح على قرار مؤتمر الحوار الوطني السوري بشأن تشكيل اللجنة الدستورية التي تقوم بعملها في جنيف تحت رعاية المبعوث الخاص للامين العام للامم المتحدة الى سوريا ستيفان دي ميستورا.

وسبق لاجراء مؤتمر الحوار الوطني السوري العمل المكثف في منصتي آستانا وعمان الذي ادى الى انشاء مناطق خفض التصعيد الاربع- في شمال محافظة حمص والغوطة الشرقية ومحافظة ادلب وجنوب غرب سوريا. فضلا عن ذلك انخفض بشكل كبير

مستوى العنف في سوريا ولو كانت هناك بطبيعة الحال، بعض الانتهاكات.

وفي سياق محاربة الارهابيين تم تحقيق النجاحات المهمة في العراق. مثلما في سوريا يتعامل الجانب الروسي بشكل وثيق مع العراقيين بغية تطهير البلد من الداعشيين. وبهدف تقوية القدرة القتالية للقوات المسلحة العراقية تقوم دولتنا بتزويد الاسلحة والمعدات العسكرية فضلا عن نشاط مركز المعلومات للتحالف الرباعي بمشاركة ممثلي روسيا، العراق، سوريا وايران.

ونعتبر انه توجد اليوم في العراق فرصة طيبة للتركيز على اعادة اعمار البنية التحتية التي دمرتها داعش وتحقيق المصالحة الوطنية وتهيئة الظروف المطلوبة لعودة اللاجئين الآمنة. نأمل بأن بغداد سوف تنجح في تحسين العلاقات مع اقليم كردستان ذي الحكم الذاتي بشكل كامل حيث اصبح الوضع اكثر توترا نتيجة لاجراء الاستفتاء على انفصال الاقليم كدولة مستقلة عن العراق في ٢٥سبتمبر عام ٢٠١٧. ان موقف روسيا ازاء هذه المسألة معروف جيدا: نحن ندعو الى ضمان مصالح الشعب الكردي ولكن في اطار الدولة العراقية الموحدة.

لا تزال موسكو تشعر بقلق بالغ تجاه استمرار الازمة في ليبيا. وفي الوقت الراهن هذا البلد منقسم وينبغي جمعه من جديد ويعقد تدخل القوى الخارجية ذات المصالح المتضاربة خلافات بين السلطات في غرب ليبيا وشرقها. واسترشادا بضرورة الحفاظ على سيادة ليبيا وسلامة اراضيها نواصل في هذا الخصوص العمل المطرد مع ممثلي طبرق وطرابلس وندعوهم الى تجاوز الخلافات الداخلية وبدء تطبيق خارطة الطريق بشأن التسوية السياسية التي اقترحها المبعوث الخاص للامين العام للامم المتحدة الى ليبيا غسان سلامة.

واليمن هي الدولة الأخرى التي تثير احداثها قلقا بالغا. فلا تزال الاوضاع في هذا

البلد تتدهور. وقد دخل النزاع المسلح الى مرحلة التصعيد الجديدة بعد تفكك التحالف ما بين الحوثيين والقوات الموالية للرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح اضافة الى مقتله على يد الحوثيين في ٤ديسمبر ٢٠١٧. وتتفاقم الأوضاع نتيجة لشلل الاقتصاد اليمني وتدمير اغلبية منشآت البنية التحتية والظروف المعيشية الصعبة للشعب اليمني الذي يعاني من الجوع والأوبئة. فتصف الامم المتحدة والمنظمات الدولية المتخصصة الوضع في اليمن كأكبر كارثة انسانية. فيبلغ عدد السكان المدنيين الذين يحتاجون الى مساعدة عاجلة تقريبا ١٩ مليون نسمة اي ثلثي الشعب اليمني.

وفي هذه الظروف نواصل سياستنا المبدئية الهادفة الى وقف اطلاق النار في اليمن في اقرب وقت ممكن واستئناف المفاوضات برعاية الامم المتحدة. وفي نفس الوقت نتخذ التدابير الرامية الى تخفيف محنة المدنيين من خلال تقديم المساعدات الانسانية والغذائية اللازمة.

وتدعم روسيا تقليديا علاقات الصداقة مع جميع دول الشرق الاوسط دون استثناء. ونحن مهتمون بأن هذه المنطقة التي طالت معاناتها تتجاوز المرحلة الراهنة والتغييرات الجوهرية وتستعيد مظهرها المزدهر الذي كان قبل هذه الازمات. فلذلك تهدف سياسة روسيا في الشرق الاوسط الى تحقيق هذه النتيجة. ونحن ننطلق من اهمية احترام السيادة ووحدة الاراضي لجميع دول المنطقة وضرورة تسوية جميع الخلافات والازمات من خلال الحوار الشامل ودون التدخل من الخارج سواء عن طريق التدخل السافر او فرض الوصفات الجاهزة حسب المعايير الاجنبية.

ويبدو لنا ان العديد من دول الشرق الاوسط وشمال افريقيا تقدر اليوم كل التقدير مواقف روسيا المبدئية وتعتبرنا انصار علاقات الاحترام المتبادل والحقوق المتساوية.

وشكرا لكم على انتباهكم.

د.ناصر القدوة: المواجهة الفلسطينية والتحديات الحالية

أرحب بالسيدات والسادة الحضور، إن القرارات الأخيرة التي اتخذتها الإدارة الأميركية من قبل الرئيس ترامب وخاصة فيما يتعلق بالقدس عاصمة لإسرائيل واعترافها بها والقرار يبدأ بنقل السفارة الأميركية إلى هناك وفي البداية قيل إن هذه العملية سوف تستغرق أربع سنوات ثم قيل إنها ستتم قبل نهاية ٢٠١٩ ثم قيل إمعاناً في الإهانة إنها ستتم في أيار/مايو القادم، أريد أن اشير فقط إلى أن ما سيجري في مايو القادم هو الانتقال إلى أحد مباني القنصلية الأميركية التي عمرها ١٨٠ سنة وأن مكان هذا المبنى هو المنطقة الحرام أي أنه انتقال من القدس الغربية إلى بقعة جغرافية أخرى لها مدلولات إضافية، وبطبيعة الحال هناك رفض فلسطيني مطلق لكل هذه الخطوات والمواقف الأميركية وهناك أيضاً نفس هذا الموقف على الجانب العربي، الجانب الفلسطيني أيضاً اعتبر أن الولايات المتحدة بهذه المواقف قد ألغت دورها أي دور الوسيط بين الجانبين كراع لعملية السلام وطالب بإنشاء آلية دولية جيدة، طبعاً نحن نعلم بوجود الرباعية الدولية التي أشار إليها السيد بوغدانوف أيضاً نفهم أن هذه الرباعية بلا فاعلية على الإطلاق وشاهده الجانب الروسي أيضاً. بنفس الوقت نحن نفهم أن أي تشكيل كوني جديد يجب أن يكون على توافق بين الأطراف الدولية الفاعلة لكن الفكرة هنا أن وجود جهة دولية متعددة الأطراف تنهي الاحتضان الأميركي لرعاية هذه العملية وتضع الأساس السياسي المناسب الذي قلنا جميعاً أنه الشرعية الدولية والمبادرة العربية للسلام تؤكد الأساس

السياسي لأي عملية سياسية وتقوم برعاية هذه العملية لحين إنفاذها وتعمل ضمن فترة زمنية معقولة إلى النتائج النهائية، أي أنه دون استخدام هذه الآلية وبدون هذا التخطيط لن تكون هناك أية إمكانيات مطروحة للبحث، السؤال الآن هل يمكن حدوث هذا بشكل فوري أنا أعتقد الإجابة بالنفي، وحصول الأمر يتطلب العمل بجهد حقيقي على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي، على جبهتين الجبهة الأولى هي جبهة المواجهة ومقاتلة الاستعمار الاستيطاني لدولة فلسطين. ولابد من خطوات حقيقية في هذا المجال تبدأ فلسطينياً بتحريم العمل في المستعمرات وتمر أيضاً على مسوغة فلسطينية بعملية تعبئة حقيقية لكل قطاعات الشعب الفلسطيني في عملية مواجهة ميدانية مع المستعمرات والمستعمرين تنهي مايسمى وضعاً طبيعياً لهذه الظاهرة الغير القانونية وتمثل انتهاكاً جسيماً للقانون الدولي الإنساني أي جريمة حرب ، ثم نذهب إلى المسوغ الإقليمي وربما نحاول على سبيل المثال الحصول على مواقف جديدة أيضاً من قبل بعض الأطراف العربية خاصة من الدولتين العربيتين اللتين لهما علاقة رسمية مع إسرائيل لنطلب على سبيل المثال أو نتوصل إلى منع المستعمرين من الدخول إلى أراضي هذه الدول وربما خطوات أخرى وصولاً إلى إجراءات عملية دولية تأخذ الموقف الأوروبي الصادق بوسم منتجات المستعمرات ومسوغ جديد وربما تفرض مجموعة من الإجراءات العقابية على المستعمرات والمستعمرين والشركات والهيئات العاملة في المستعمرات. جميع ذلك هو في الحقيقة تنفيذ للإلتزامات القانونية وفق اتفاقية جنيف الرابعة. لايوجد موقف سياسي جديد، المطلوب أن تقوم هذه الدول بتنفيذ بقية التزاماتها وفق أحكام القانون الدولي.

يواكب هذا العمل التي تؤيده في مجال مقاطعة إسرائيل الBDS لكن علينا

أن نكون واضحين فيما يتعلق في الفرق الأساسي في موضوع العقوبات على أساس القانون الدولي الإنساني التي تقوم بها من جهة وهو مانطالب به وحقنا من جهة وقمنا بحملة جماهيرية تستهدف منظمات المجتمع المدني وتقوم على أساس سياسي أخلاقي وليست على أساس قانوني الأمرين من الممكن أن يكملا بعضهما البعض ولكن الأمر الأول هو الأساسي من وجهة نظري إذ لابد من خطوات حقيقة على هذه الجبهة ولابد أيضاً من خطوات حقيقية على جبهة خلق حقائق سياسية لاتراجع عنها غير قابلة للتراجع عن حدود دولة فلسطين وهذا يأتي إما عن طريق استكمال الاعترافات خاصة من مجموعة الدول المهمة التي لم تعترف بنا حتى الآن وإما من خلال تعزيز المركز القانوني لدولة فلسطين في المنظمات الدولية أو كليهما في طبيعة الحال هذا أيضاً مهم جداً لأن وجود الدولة هو حجر الرحى ونحن هنا نتحدث عن إقامة دولة فلسطينية لكن الدولة الفلسطينية قائمة بحكم الحق الطبيعي والتاريخي للشعب الفلسطيني وبحكم الشرعية الدولية وبحكم إعلان الاستقلال الذي أشار له السيد بوغدانوف واعتراف أغلبية دول العالم بهذه الدولة. المطلوب هو نضال من أجل الاستقلال الوطني لهذه الدولة وخلال ذلك مطلوب مواجهة الاستعمار الاستيطاني في هذه الدولة، ومطلوب خلق حقائق سياسية ودولية جديدة غير قابلة للتراجع من قبل هذه المجموعة من الدول التي أشرت لها.

موضوع الضفة حجر الزاوية هو جوهر البرنامج الوطني الفلسطيني الذي يجب التمسك به وعلى شكله والإصرار على تنفيذه، بعض الأفكار الأخرى في هذا المجال والتي يمكن أن تلغي حدود ١٩٦٧ والتي تلغي الخط المسمى بخط الهدنة سنة ١٩٤٩ تنطوي على مخاطر كبيرة من ضمنها شرعنة الاستعمار الاستيطاني

الذي تحدثنا عنه في القانون الدولي والإنساني وربما من ضمنها إجراءات إسرائيلية وأميركية متعلقة بالقدس.

لانسطيع فعل ذلك والموقف يجب أن يتأكد من خلال الإصرار على إنجاز الاستقلال الوطني كما ذكرت ببرنامج الإجماع الوطني الفلسطيني.

فيما يتعلق بالوضع الفلسطيني نحن نتفق مع وجهات النظر التي تقول ان إنجاز الوحدة الفلسطينية واستعادة الوحدة الفلسطينية سياسياً وجغرافياً هو متطلب أساسي للتقدم إلى الأمام في كافة المجالات وخاصة في مجال إنجاز الحقوق الوطنية الفلسطينية.

لا يمكن أن نتقدم حتى في مجالنا الاقتصادي حتى في حياتنا حتى في علاقاتنا الاجتماعية دون أن ننهي الانقسام ودون استعادة الوحدة الفلسطينية على كافة المستويات وهناك جهود جدية تجري في هذا المجال ولكن من الضرورة التخلي عن الحكم المنفرد لقطاع غزة وإعادة قطاع غزة إلى النظام السياسي والإداري الفلسطيني، النظام الإداري للسلطة الفلسطينية ويتطلب أيضاً إصرارنا على بناء شراكة سياسية في نظام سياسي يعاد تشكيله ويتطلب توافقاً سياسياً حول المضي قدماً إلى الأمام بمفهوم جديد بسيط ومباشر جوهره الدولة، دولة فلسطين، إنجاز الاستقلال الوطني لدولة فلسطين على حدود ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية وهو أمر أصبح ممكناً الآن أكثر مما سبق وأكثر مما مضى بسبب التغيرات السياسية التي جرت داخل حركة حماس وتغييراتها الداخلية فقد وصلت بالجميع على أرضية هذا البرنامج الوطني المشترك الذي يوفر ذلك الاجتماع الوطني والذي يوفر اتفاق البرامج الممكن والذي لابد منه لإنجاز شروط هذه الوحدة، على أرضية هذا يجري التعامل مع الملفات المختلفة سواء

أكان موظفين أو معايير وغيرها.

أولاً يجب أن يكون هناك احترام لهذه المفاهيم الأساسية باعتبارها متطلبات لإنجاز عملية الوحدة، ويمكن أيضاً إضافة العديد من الأمور المتعلقة بالوضع الفلسطيني الداخلي ببناء المؤسسات، وإعادتها إلى حالة القوة التي كانت عليها في السابق. مفهوم الوضع الفلسطيني الداخلي بحاجة إلى كيان، نوع من أنواع التقوية ونوع من أنواع التحسين لأنه بدون ذلك سيكون أصعب بمواجهة المخاطر الكبرى التي تحيط بالمشروع الفلسطيني والشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية الغير قابلة للتصرف حسب قرار الأمم المتحدة.

عام ١٩٧٥ عرفت الحقوق الغير قابلة للتصرف للشعب الفلسطيني باعتبارها حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال الوطني هناك أيضاً حقوق أخرى متمثلة في حقوق اللاجئين الفلسطينيين وفي التعويض وآخره وفق الشرعية الدولية والقرار ١٩٤ وقرارات الأمم المتحدة الأخرى حتى لا أتعارض والمبادرة العربية للسلام ذكرني السيد رئيس مجلس الأمناء وهذا بالـتأكيد كلام سليم مئة بالمئة نؤكد في هذا المجال على ضرورة تنفيذ المبادرة العربية كما هي مسألة التنفيذ للتطبيع مسألة لا يمكن ابداً فهمها ولا التعامل معها بأي درجة من الجدية إلا بعد الانسحاب الإسرائيلي وإقرار إسرائيل بوجود الشعب الفلسطيني ووجود دولة فلسطين وحق الشعب في الاستقلال الوطني يلي ذلك تطبيع العلاقات بين إسرائيل والدول العربية لا بد من التأكيد على أهمية الوطن العربي الذي يشكل الرافعة الأساسية للنضال الوطني الفلسطيني وبدون هذه الرافعة سنكون بوضع في غاية الصعوبة ، المنطقة تمر الآن في ظروف صعبة نعم هناك مجموعة من الدول العربية تتعرض لمصائب كبرى تهدد وجودها بشكل مباشر وهذا بطبيعة

الحال يعكس نفسه على قدرتنا الفلسطينية بالتحرك والانجاز لذلك هناك تلك العلاقة التبادلية بين التحسن على الوضع العربي وتحقيق تقدم في ذلك المجال هو تحسن الوضع الفلسطيني في مجال المواجهة مع اسرائيل وفي مجال انجاز حقوقنا الوطنية. فيما يتعلق بموضوع الاستعمار الاستيطاني فهو خطر رئيسي على وجود الدولة الفلسطينية وعلى الحقوق الوطنية الفلسطينية وبالتالي مواجهته هي المهمة المركزية الملقاة على عاتق الشعب الفلسطيني كما أسلفنا كيف يبدأ هذا فمن الممكن أن نشارك الدول العربية من خلال اجراءات ضد المستعمرين باعتبارهم أناساً ينتهكون القانون الدولي والإنساني وفقاً للالتزامات الدولية مع الدول العربية مع اي جانب من الجوانب الأخرى.

موضوع ال BDS هو موضوع مهم يجب فهمه لكن الأهمية المركزية هي موضوع بناء منظومة متكاملة في العقوبات والإجراءات ضد المستعمرات وضد المستعمرين.

مسألة ثانية هي مسألة الاعتراف بالدول فليس بالضرورة أن تكون هناك اعترافات جماعية.

المهم أن نعرف أن الموضوع ليس جاهزاً للطرح والموضوع ليس موقفاً ايجابياً تأخذه هذه الدولة أو تلك الموضوع هو قرار سياسي عميق لخلق حقائق سياسية غير قابلة للتراجع عنها في مجال اقامة دولة فلسطين والحقوق الوطنية الفلسطينية.

النقطة الثالثة انجاز الاستقلال الوطني لدولة فلسطين على حدود عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس والبرنامج الوطني المركزي هو محور برنامج الإجماع الوطني هذا يجب أن نتمسك به بالمطلق بغض النظر عن اي تكتيكات سياسية.

* النقطة الرابعة والأخيرة فيما يتعلق بالوضع للسلطة أنا لست ممن يدعون إلى حل السلطة أنا ممن يدعون إلى إعادة هذه السلطة لكي تتحول مرة أخرى إلى سلطة خدماتية بحتة وتقدم الخدمات للشعب الفلسطيني مع ترحيل كافة المسائل السياسية مرة اخرى إلى منظمة التحرير الفلسطينية وإعادة النظر في كثير من الجوانب ومنها عملية بناء الأجهزة الأمنية الفلسطينية وغيرها .

إذاً يكون لدينا أداة مواجهة كجزء من مشروع وطني متكامل بمعنى لا بد من عقد المجلس الوطني لابد من تعزيز منظمة التحرير الفلسطينية لا بد من إعادة وتقوية المؤسسات عموماً سواء كان في إطار منظمة التحرير الفلسطينية أو السلطة.